الدكتور / محمد عمارة

شخصيات لها تاريخ

٤٥ شخصية

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


شخصيات لها تاريخ

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م، ٢٠٠٠م، ٢٠٠١م عن عام الجائزة تقديرًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية – القاهرة – الإسكندرية
الإدارة: القاهرة: ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني – مدينة نصر
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع الأزهر: ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي – هاتف: ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع مدينة نصر: ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس – مدينة نصر – هاتف: ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع الإسكندرية: ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر – الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا: القاهرة: ص.ب ١٦١ الغورية – الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني: info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت: www.dar-alsalam.com



تأليف

دكتور محمد عمارة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

عندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان تعداد الأمة الإسلامية ١٢٤٠٠٠ - هم الذين مثلوا ويمثلون الجيل الذي ثبتت له « صحبة » و « معاصرة » للرسول وعصر البعثة والتأسيس .

وعندما أرخ المؤرخون لأعلام الصحابة والصحابيات - أي الذين كانت لهم إسهامات متميزة ، ومشاركات بارزة في الحياة العامة - الدينية .. والفكرية .. والسياسية .. والأدبية .. والعسكرية .. إلخ - بلغ تعداد هؤلاء الأعلام نحو الثمانية آلاف .. أي أن الإسلام ، قد استطاع في سنوات قليلة ، أن يفجر في هذه الأرض الجاهلية المجدبة الطاقات والملكات التي جعلت نحو ١٦٪ من تعداد الأمة يصنفون في عداد « الأعلام » ..

ثم توالى ، بعد عصر النبوة والخلافة الراشدة ، اندياح دوائر هذه الطاقات التي فجرها الإسلام في مختلف ميادين الإبداع ، الشرعي منه والمدني ، النظري منه والعملي ، حتى لقد أبدعت الثقافة الإسلامية فنًا متميزًا في التآليف التاريخية ، هو فن « الطبقات » ، الذي يؤرخ لأجيال وطبقات وسلاسل المفسرين والمحدثين والأصوليين والفقهاء والحكماء والشعراء والأدباء والنحاة والبلاغيين والمؤرخين والرياضيين والفيزيائيين والفلكيين

والأطباء والمترجمين .. وغيرهم وغيرهم من الأعلام في مختلف فنون وعلوم الحضارة الإسلامية .. وهو فن لا يمكن كتابة تاريخ الإسلام بدون النظر فيه ؛ لأنه - مع فن « الخطط » ... الذي يؤرخ للأمكنة والعمائر والحرف والصناعات - بمثابة « ديوان الأمة » ، وإنجازات الحضارة .. بينما لم يتجاوز تاريخ « الدولة » و « السلطان » ، الشريحة الأقل وزنًا وتأثيرًا في حقيقة ذلك التاريخ ..

« فأعلام الأمة » .. وليس « سلاطين الدولة » هم المرآة الأكثر تمثيلًا لتاريخ الأمة وإنجازاتها الحضارية عبر المسيرة التي بدأت بظهور الإسلام ..

والذين يقارنون ذلك الغنى والثراء ، الذي فجره الإسلام ، في محيط بداوة الجاهلية ، طبقات وأجيالًا من أعلام العلماء في مختلف ميادين الإبداع ، بذلك الفقر المدقع والموات التام الذي أحدثته النصرانية في أوربا ، عندما هيمنت في مناخ سبق وازدهرت فيه الحضارة الإغريقية والرومانية .. يدرك أبعاد الحقيقة التي تؤكد تمايز موقف كل من الإسلام والنصرانية إزاء العلم والعلماء والأعلام ..

فمنذ أن انتشرت المسيحية في الدولة الرومانية - على عهد قسطنطين الكبير [٢٧٤ - ٣٧٧م] - وحتى القرن السادس عشر الميلادي - أي لأكثر من ثلاثة عشر قرنًا - لم تنجب أوربا النصرانية عالمًا من العلماء !! .. ولم تبدأ أوربا مسيرة

التلمذة على العلم الإسلامي - في ظل مقاومة عاتية من الكنيسة واللاهوت - إلا في النصف الثاني من القرن السادس عشر .. فقبل سنة ١٥٤٣م لم يكن لها أي إسهام في الطب أو العلوم الطبيعية أو الرياضيات أو الفلك .. وقبل سنة ١٥٣٨ م لم يكن لها أي إنجاز في الفيزياء أو الكيمياء أو العلوم التقنية .. بل إن كتاب « كوبرنيكوس » [١٤٧٣ - ١٥٤٣ م] عن دوران الفلك ، الذي ألفه سنة ١٥٣٠ م قد ظل محرمًا - من قبل الكنيسة - ولم يأخذ طريقة إلى التوزيع إلا في سنة ١٧٥٨م ... أي بعد انتصار فلسفة التنوير الوضعي العلماني على اللاهوت الكنسي ، وحلول ثالوث هذا التنوير - « العقل » و « العلم » و « الفلسفة » محل ثالوث النصرانية الأوربية : « الله » و « الكنيسة » و « اللاهوت » ! ..

ومنذ ذلك التاريخ ، تفجرت ميادين الإبداع الحضاري الأوربي بطبقات وسلاسل أعلام العلماء ، لكن بعد أن خلعت أوربا العلمانية من على « رأسها » غلالة وأغلال الدين .. فالأوربيون لم يتمدنوا إلا عندما « تحرروا » من لاهوت النصرانية وكنيستها .. على حين كان النقيض في عالم الإسلام ، فالإسلام هو الذي فجر ينابيع الثقافة والمدنية والحضارة والإبداع في مختلف ميادين العلوم والفنون .. وملأ الحياة الإسلامية بأجيال وسلاسل وطبقات أعلام العلماء في كل هذه الميادين .. بل لقد اقترن تراجع الإبداع الإسلامي في هذه

الميادين ، وندرة أسماء الأعلام المبدعين فيها بتراجع حاكمية وتأثير الروح الإسلامية عن هذه الميادين ..

لذلك .. كان من أكبر الأخطاء في كتابة التاريخ الإسلامي ، الوقوف عند تاريخ « الدولة » و « السلطان » .. وإهمال تاريخ « الأمة » ، الذي تجسد في طبقات أعلام العلماء .. فحضارتنا ، التي فجرها الإسلام ، وصبغها بصبغته ، قد أبدعتها الأمة ، وصنعها العلماء ، الذين عاشوا في أحضان الأمة ، وموّلت الأمة صناعتها تمويلًا أهليًا بواسطة الأوقاف .. بل إن جميع هذه الإنجازات قد تمت في ظل انحراف « الدولة » و « السلطان » عن منهاج « العدل » و « الشورى » ، الذي جاء به الإسلام ! ..

ولخطر هذه الحقيقة من حقائق الوعي الحقيقي بتاريخ الإسلام وأمته وحضارته ، كان اهتمامي – منذ السنوات الأولى لمشروعي الفكري – بالكتابة عن أعلام الاجتهاد والتجديد في حضارة الإسلام .. كتبت في ذلك الكتب العديدة .. والفصول التي تناولت حياة وإبداعات العديد من هؤلاء الأعلام ..

* * *

ومواصلة لهذه المسيرة ، أقدم إلى الباحثين والقراء هذه الدراسات – المتفاوتة الحجم – عن حياة وإنجازات خمس وأربعين عَلَمًا من أعلام التجديد والاجتهاد في تاريخ الإسلام – من القرن الهجري الأول وحتى العصر الذي نعيش فيه – ..

والجامع بين هذه الدراسات هو الإبداع في ميادين التجديد والاجتهاد .. في مختلف مدارس الفكر والسياسة .. ما يرضاه البعض منا وما لا يرضاه .. لأن ما يرضاه قوم هو ما لا يرضاه آخرون ! .. ففي صفحات هذا الكتاب ينابيع من الفكر المجدد ، فجرتها عبقريات إسلامية ، من خلال حياة وفكر هؤلاء الأعلام ، الذين ازدانت بهم ، ولا تزال حضارة الإسلام .

والله نسأل أن ينفع به .. وأن يجعله حافزًا للعقل المسلم المعاصر على المزيد من الإبداع والاجتهاد والتجديد .. إنه ﷻ خير مسئول وأكرم مجيب ..

دكتور/ محمد عمارة

* * *

(١) نافع بن الأزرق

[٦٥ هـ = ٦٨٥ م]

هو أبو راشد ، نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي ، البكري الوائلي ، الحروري [٦٥ هـ - ٦٨٥ م] .. زعيم فرقة الأزارقة - التي نسبت إليه - من الخوارج .. ويسمى الحروري كواحد من الخوارج الذين تبلورت فرقتهم ، على عهد علي بن أبي طالب [٢٣ ق . هـ - ٤٠ هـ = ٦٠٠ - ٦٦١ م] في قرية « حروراء » - من ضواحي الكوفة - فسموا لذلك بالحرورية ، نسبة إلى « حروراء » ! ..

وكان نافع بن الأزرق من أهل البصرة ، وأحد فقهائها .. بدأ حياته العلمية بصحبة عبد الله بن عباس ﷺ .

وعندما بدأت الثورة على عثمان بن عفان [٤٧ ق . هـ - ٣٥هـ = ٥٧٧ - ٦٥٦ م] أواخر عهده ، كان نافع وأصحابه من أنصار هذه الثورة ، التي استهدفت عزل الخليفة الراشد الثالث ، لما رأوه من ضعفه عن كبح جماح قرابته ، من بني أمية ، الذين استأثروا بالحكم من دون الناس .. ولقد عبَّر الأزارقة عن رأيهم في عثمان بقولهم : « إنه آثر القربى ، ورفع الدرة ، ووضع السوط ! ومزق الكتاب ، وضرب منكر الجور ، وآوى طريد رسول الله ﷺ ، وضرب السابقين بالفضل وحرمهم ، وأخذ الفيء فقسمه في فُسَّاق قريش ومُجّان العرب ! ... » .

وبعد انقضاء عهد عثمان بن عفان ، باستشهاده ، كان نافع ابن الأزرق وأنصاره من أعوان علي بن أبي طالب ، ناصروه وقاتلوا معه ضد جميع خصومه ومعارضيه : طلحة بن عبيد الله [٢٨ ق . هـ - ٣٦ هـ = ٥٩٦ - ٦٥٦ م] والزبير بن العوام [٢٨ ق . هـ - ٣٦ هـ = ٥٩٦ - ٦٥٦ م] .. ثم معاوية بن أبي سفيان [٢٠ ق هـ - ٦٠ هـ = ٦٠٣ - ٦٨٠ م] .

وعندما ظهرت نتيجة « التحكيم » بين علي ومعاوية في « صِفِّين » .. كان نافع بن الأزرق من زعماء الخوارج الذين رفضوا هذه النتيجة ، ورفعوا شعار « لا حكم إلا لله » ، فسموا « بالمُحَكِّمة » .. وبالحرورية ، لاجتماعهم في حروراء .. وبالخوارج - لخروجهم على الدين ومروقهم منه - في رأي خصومهم - ولخروجهم إلى الدين ، ضد أئمة الجور - كما يقولون هم - ! ..

* * *

وكان نافع بن الأزرق - ككل الخوارج - يرى الإمامة والخلافة فيمن يصلح لها وتتوافر فيه شروطها ... رافضين احتكار قريش لها واستئثارها بها دون المسلمين .. كما كانوا يرون - على عكس الشيعة - أن طريق الخلافة والإمامة هو الشورى والاختيار والبيعة من الأمة للإمام .. وليس النص والتعيين والوراثة ..

وفي تقييم التاريخ السياسي لدولة الخلافة الراشدة .. أعلنوا

ولاءهم لعهدي أبي بكر وعمر .. وتولوا عثمان بن عفان في السنوات التي سبقت سيطرة قرابته على شئون الخلافة ، وأعلنوا براءتهم منه في هذه السنوات .. كما تولوا علي بن أبي طالب حتى وقعة « التحكيم » ، ثم تبرأوا منه بعد التحكيم ..

أما تقييمهم للانقلاب الأموي ولدولة بني أمية : فهو الرفض لهم والبراءة منهم ، باعتبارهم مرتكبين للذنوب الكبائر ومصرين عليها ! ..

وعندما احتدم الجدل بين فقهاء الأمة حول حكم مرتكب الكبيرة .. في حقبة اشتداد الصراع عند بني أمية .. وقال قوم : إنه منافق .. وقال آخرون : إنه مؤمن .. وقال فريق ثالث : إنه فاسق .. كان رأي نافع بن الأزرق - الذي كان يقود يومئذ أكبر ثورات الخوارج ضد الدولة الأموية - إن مرتكب الكبيرة - والمعنى والمراد بالدرجة الأولى ، بنو أمية وعمالهم وأنصارهم - كافر ومخلد في النار .. فكان ذلك بداية فكر التكفير لمن ينطق بالشهادتين في تاريخ الفكر الإسلامي ! .. ولقد تراوح التكفير بين « كفر الشرك » وبين « كفر النعمة » أي الجحود لأنعم الله ! ..

كذلك ، انحاز الخوارج إلى القول بحرية الإنسان واختياره ، ورفضوا « الجبر » الذي كان بنو أمية يبررون به ما أحدثوه في فلسفة الخلافة وعلاقة الحاكم بالمحكوم من تغييرات ! ..

وشددوا على فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانطلقوا منها إلى نظرية في « الثورة » وتجريد السيف ضد ولاة

الجور والفسق والضعف يمكن تسميتها بـ « نظرية الثورة المستمرة » ! .. فلقد « أوجبوا » الثورة والخروج إذا بلغ عدد الثائرين أربعين رجلاً .. وسموا هذه الحد « حد الشراء » ، أي الذين اشتروا الجنة عندما باعوا أرواحهم .. فعليهم « واجب الخروج » – [الثورة] – « حتى يموتوا أو يظهر دين اللّٰه ، ويخمد الكفر والجور ! .. » .

أما إذا كان عدد الثوار فوق الثلاثة ، ودون الأربعين .. فإنهم يكونون على « حد الدفاع » ، يقفون من أعدائهم موقف الدفاع ، لا موقف الخروج والهجوم ! .. فإذا كان العدد دون الثلاثة جاز لهم القعود ، وكانوا على « مسلك الكتمان » ... فإذا قامت دولتهم ، وظهر أمرهم ، فهم حينئذ ، على « حد الظهور » ! .. أي أن الموقف من الثورة والخروج قد تراوح بين : « مسلك الكتمان » .. و « حد الدفاع » .. و « حد الشراء » .. و « حد الظهور » ! ..

* * *

وعندما ثار عبد اللّٰه بن الزبير [١ – ٧٣ هـ = ٦٢٢ – ٦٩٢م] بمكة ، على عهد يزيد بن معاوية [٢٥ – ٦٤ هـ = ٦٤٥ – ٦٨٣م] دعا نافع بن الأزرق ثوار الخوارج في البصرة إلى الخروج إلى مكة لمناصرة ابن الزبير ضد بني أمية ، وللدفاع عن بيت اللّٰه الحرام ضد حصار الجيش الأموى .. وقال لأصحابه : « إن اللّٰه قد أنزل عليكم الكتاب ، وفرض عليكم فيه الجهاد ،

واحتج عليكم بالبيان ، وقد جرد فيكم السيوف أهل الظلم وأولو العداء والغَشْم ، وهذا من قد ثار بمكة ، فاخرجوا بنا نأت البيت ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا .... » .

فخرجوا بقيادته إلى مكة ، إبان اشتداد القتال بين ابن الزبير وجيش يزيد بن معاوية ، فقاتلوا معه ضد جيش يزيد .. فلما توفي يزيد ، ورجع جيشه عن حصار مكة .. أراد نافع بن الأزرق وأصحابه محاورة ابن الزبير لمعرفة رأيه في عثمان بن عفان ، .. وهل هو على مثل رأيهم فيه ، .. أم هو من المخالفين .. ولقد انتهت المناظرة بينهما بإعلان ابن الزبير خلافه لهم في أمر عثمان .. فرفضوا نصرته .. وغادروا مكة عائدين إلى البصرة مرة أخرى ..

وفي البصرة تواصل الصراع بين الخوارج ، بقودهم نافع بن الأزرق ، وبين ولاة بني أمية .. حتى اضطربت البصرة بالفتنة التي حدثت بين بعض قبائلها .. فانتهزها الخوارج وثاروا كبرى ثوراتهم ، التي بدأت بتحطيم أبواب السجون ، والخروج إلى الأهواز .. وفي الأهواز .. ومن حول البصرة .. دارت موجات من القتال الضاري ، الذي استمر لعدة شهور .. وفيه قتل العديد من الولاة والقواد الذين تتابعوا على قيادة جيش بني أمية .. وقتل كذلك نافع بن الأزرق في المعركة التي دارت في

« دولاب » على مقربة من الأهواز ..

ولقد كانت ثورة الأزارقة هذه أعظم ثورات الخوارج ضد دولة بني أمية .. حتى لقد كانت النزيف الذي أصاب تلك الدولة بالإعياء .. فأجهزت عليها ثورة الجند الخراسانية .. وقطف ثمارها بنو العباس ! [1].

* * *

(١) [تاريخ الطبري] - جـ٥ - طبعة دار المعارف - القاهرة - بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - .. [تيارات الفكر الإسلامي] - للدكتور محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥م .

(٢) نَجْدَة بن عامر

[٣٦ - ٧٢ هـ = ٦٥٦ - ٦٩١ م]

هو نجدة بن عامر الحنفي [٣٦ - ٧٢ هـ = ٦٥٦ - ٦٩١م] من بني حنيفة ، من بكر بن وائل .. يلقب بالحروري - أي الخارجي - نسبة إلى قرية حروراء - على بعد ميلين من الكوفة - وهي التي اجتمع فيها أوائل الخوارج على عهد علي بن أبي طالب [٢٣ ق.هـ - ٤٠ هـ = ٦٠٠ - ٦٦١ م] .. عقب « التحكيم » ..

وكان نجدة بن عامر ، في البداية ، واحدًا من قادة الخوارج الأزارقة ، قبل انقسامهم .. ولقد شارك في ثوراتهم التي سبقت على هذا الانقسام الذي حدث سنة ٦٤ هـ = سنة ٦٨٤ م .

وعندما ثار عبد الله بن الزبير [١ - ٧٣ هـ = ٦٢٢ - ٦٩٢م] بمكة ضد يزيد بن معاوية [٢٥ - ٦٤ هـ = ٦٤٥ - ٦٨٣ م] خرج نجدة بن عامر ، مع الخوارج ، من البصرة إلى مكة ، لنصرة ثورة ابن الزبير ، وللدفاع عن بيت الله الحرام ضد حصار جيش يزيد .. وهناك قاتلوا مع جيش ابن الزبير ..

فلما توفي يزيد بن معاوية ، ورجع جيشه المحاصر لمكة إلى الشام ، دارت محاورات ومناظرات بين الخوارج وبين ابن الزبير حول موقفه من عثمان بن عفان [٤٧ ق . هـ - ٣٥ هـ = ٥٧٧ - ٦٥٦ م] ومن الأحداث التي نقمها عليه الناس وثاروا عليه وقتلوه بسببها .. وكان الخوارج يبرأون من عثمان بسبب

تلك الأحداث .. وكان ابن الزبير يخالفهم في ذلك ويتولاه .. فلما وضح الخلاف بينهما في هذه القضية ، وكان الخطر قد زال عن بيت الله الحرام ، انصرف الخوارج عن نصرة ابن الزبير ، وقفلوا راجعين إلى البصرة ..

وفي البصرة توزعت قواتهم وقياداتهم .. فبقى نافع بن الأزرق [٦٥ هـ = ٦٨٥ م] مع من بقى معه - وهم الذين سموا بعد ذلك بالخوارج الأزارقة - بقوا في البصرة .. وقامت ثوراتهم فيها وفيما حولها من الأقاليم والأمصار ..

أما نجدة بن عامر ، فلقد خرج مع فريق آخر من الخوارج - فيهم من قادتهم أبو طالوت - من بني زمان بن مالك بن صعب ابن علي بن مالك بن بكر بن وائل .. وأبو فديك ، عبد الله ابن ثور بن قيس بن ثعلبة بن تغلب [٧٣ هـ = ٦٩٢ م] .. وعطية بن الأسود اليشكري [٧٥ هـ = ٦٩٥ م] .. فانطلقوا إلى أرض اليمامة ، فأعلنوا الثورة هناك ..

ولقد أصبح نجدة بن عامر أمير المؤمنين في دولة الخوارج التي أقاموها باليمامة ، والتي ضمت البحرين ، وعُمان ، وهجر ، وبعض من أرض العرض .. وأصبح لهذه الدولة جيش وولاة وعمال .. وظل نجدة بن عامر أميرًا للمؤمنين فيها قرابة العشر سنوات ! ..

واستطاع جيش هذه الدولة الخارجية أن ينتصر في العديد من المعارك ضد جيوش مصعب بن الزبير [٢٦ - ٧١ هـ =

٦٤٧ - ٦٩٠ م] الذي تولى أمر العراق من قبل أخيه - ثائر مكة - عبد الله بن الزبير .. وضد جيوش من بني أمية بعد وفاة نجدة .. ووفاة ابن الزبير ! ..

* * *

وكان نجدة بن عامر وفرقة الخوارج النجدات - التي كانت على رأيه والتي نسبت إليه - يرون رأي عامة الخوارج في المبادئ الأساسية التي ميزتهم عن الفرق الإسلامية الأخرى ..

● فالخلافة والإمامة فيمن توفرت شروطهما فيه ، قرشيًا كان أم غير قرشي ، عربيًا كان أم عجميًا ..

● والثورة فريضة ضد أئمة الجور والضعف والفساد .. توجبها فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

● وهم يتولون أبا بكر وعمر .. وعثمان قبل الأحداث التي أحدثها في السنوات الأخيرة لحكمه .. ويبرأون منه فيها وبسببها .. ويتولون عليًا فيما سبق التحكيم .. ويبرأون منه بسببه وفيما بعده ..

● وطريق الخلافة هو الشورى والاختيار والبيعة من ممثلي الأمة ..

● والإنسان حر مختار .. والله منزه عن مماثلة المخلوقات والمحدثات ..

ولم يكن نجدة ممن يكفر مرتكب الكبيرة « كفر شرك » -

كما هو رأي نافع بن الأزرق - وإنما كان يراه « كفر نعمة » .. أي أن ارتكاب الكبيرة هو نوع من الكفر والجحود بأنعم الله .. وليس شركًا في التوحيد لله .. كذلك ، فلم يكن الصحابة يكفرون الخوارج .. بل لقد روى التاريخ أن نفرًا من صحابة رسول الله ﷺ ، فيهم الصحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب كان يصلي خلف نجدة بن عامر ! ..

ولقد تميز الخوارج النجدات - وإمامهم وفقيههم نجدة بن عامر - عن فرق إسلامية أخرى خارجية وغير خارجية - ببعض الآراء .. فعندهم ، مثلاً ، أن الدين أمران :

أحدهما : معرفة الله ومعرفة رسوله ﷺ ، وتحريم دماء المسلمين وأموالهم ..

وثانيهما : الإقرار بما جاء من عند الله جملة ..

وما عدا ذلك من تفاصيل الحلال والحرام والشرائع ، فالجاهل بها معذور ؛ لأنها ليست من الدين ! ..

على أن أهم ما تميزت به النجدات ، في الفكر السياسي : هو القول بأن « الخلافة - الإمامة - السلطة - الدولة » هي واجبة من طريق « العقل » ، لا من طريق « الشرع » .. لأن وجوبها من طريق الشرع يجعل إقامتها واجبًا دائمًا وأبدًا .. أما وجوبها من طريق العقل : فإنه يربط إقامتها بقيام الضرورة والحاجة إليها ، وهي إقامة العدل والتناصف بين الناس .. فإذا قام العدل

وامتنع الظلم ، وتناصف الناس دون حاجة لوجود السلطة والدولة ، فلا وجوب لإقامة هذه السلطة والدولة ! ..

ولقد استندوا في رأيهم هذا إلى أسباب ، منها :

أ – أنه ليس هناك نص على وجوب الإمامة ، لا من الكتاب ولا من السنة .. أي ليس هناك نص متواتر يعلو مقامه مقام أحاديث الآحاد ، التي هي ظنية الثبوت ، ومن ثم لا تكون مصدرًا للعقائد ! ..

ب – وأنه ليس هناك إجماع على وجوب الإمامة شرعًا .. فالإجماع لابد وأن يستند إلى نص شرعي – وهذا النص غير موجود – حتى يتأسس عليه الإجماع ! .. ثم إن الإجماع – برأيهم – لم يحدث في السابقة الأولى للخلافة ، على عهد أبي بكر .. ومن الأئمة من ينكر إمكانية قيام الإجماع أصلًا ! ..

فليس « الشرع » ، إذن ، هو طريق وجوب الإمامة ، وإنما طريق وجوبها هو « المصلحة » للأمة والمجتمع .. فعندما تكون السلطة والدولة والخلافة والإمامة ضرورية لإقامة العدل – والعدل واجب شرعي – فإن وجوبها يصبح أمرًا لا نزاع فيه ؛ لأنها تستمد وجوبها هذا من الوجوب الشرعي الدائم لإقامة العدل بين الناس .. فكأنها واجب مدني إذا توقف على إقامته إقامة الواجب الشرعي ؛ إذ ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب ...

أما إذا قام العدل بين الناس ، وانتفت المظالم وأسبابها واحتمالات ظهورها في المجتمع ، فإن العدل الواجب شرعًا يكون قد تحقق ، فكأن الإمامة والدولة متحققة ، ولهذا لا وجه ولا مبرر لإقامة سلطة حاكمة قد انتفت دواعي قيامها في المجتمع العادل ..

فهم لا ينفون وجوب الإمامة والسلطة - كما فهم البعض - وإنما ينفون أن يكون « الشرع » هو مصدر وجوبها ، ويرونها واجبًا عقليًا ، لا شرعيًا ! ..

وعبارة الشهرستاني ، التي تحدث فيها عن رأيهم في هذه القضية ، هي من أدق العبارات التي عبرت عن رأيهم هذا .. فرأيهم - كما تعرضه عبارة الشهرستاني [٤٧٩ - ٥٤٨ هـ = ١٠٨٦ - ١١٥٣ م] : « إن الإمامة غير واجبة في الشرع وجوبًا لو امتنعت الأمة عن ذلك استحقوا اللوم والعقاب ؛ بل هي مبنية على معاملات الناس ، فإن تعادلوا وتعاونوا وتناصروا على البر والتقوى ، واشتغل كل واحد من المكلفين بواجبه وتكليفه ؛ استغنوا عن الإمام ومتابعته ، فإن كل واحد من المجتهدين مثل صاحبه في الدين والإسلام والعلم والاجتهاد ، والناس كأسنان المشط .. فمن أين يلزم وجوب الطاعة لمن هو مثله ؟! .. » .

قد تبدو الفكرة مثالية .. خصوصًا عندما تأتي من ثوار ، ومن قائد تولى في الدولة الخارجية الثائرة إمارة المؤمنين ! ..

لكنها منطقية .. بل وتفتح صفحة مهمة من صفحات الفكر السياسي في تراث الإسلام[1] ؟ .

* * *

(١) [تاريخ الطبري] جـ ٥ جـ ٦ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار المعارف - القاهرة [تيارات الفكر الإسلامي] للدكتور محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م . [الإسلام وفلسفة الحكم] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

(٣) محمد ابن الحَنَفِيَّة

[٢١ - ٨١ هـ = ٦٤٢ - ٧٠٠ م]

هو محمد بن علي بن أبي طالب . وكنيته أبو القاسم . وشهرته : ابن الحنفية - وهذه الشهرة نسبة إلى أمه - خولة بنت جعفر - التي اشتهرت بـ « الحنفية » - نسبة إلى بني حنيفة .. فلقد كانت خولة سِنْدِيَّةً سوداء ، سُبِيَتْ في موقعة « اليمامة » ، فأصبحت أمة لبني حنيفة ، ثم أعطاها أبو بكر الصديق لعلي بن أبي طالب ﷺ ، فولدت لعلي محمدًا ، الذي سماه وكناه باسم النبي ﷺ وكنيته ، قائلا : إنه قد استأذن الرسول في فعل ذلك إذا أعطاه الله ولدًا بعد وفاة الرسول ﷺ .

ولقد ولد محمد في المدينة ، ونشأ بها ورعًا ، واسع العلم .. وورث سواد اللون عن أمه الحنفية .. ومع العلم والورع كان أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام .. وعلى حين كان الإمام علي يخشى على ولديه الحسن والحسين القتال في معاركه ضد خصومه ، فلقد شارك ابن الحنفية في هذه المعارك ، فقاتل مع أبيه في موقعة « الجمل » [٣٦ هـ = ٦٥٦ م] وكان حامل الراية يوم موقعة « صفين » [٣٧ هـ = ٦٥٧ م] .

وعندما بدأ التشيع لأئمة آل البيت في العهد الأموي ، حصر الشيعة الاثنا عشرية إمامتهم في أبناء علي من فاطمة ﷺ ،

فلم يقولوا بإمامة محمد ابن الحنفية .. لكن فرقة من فرق الشيعة - هي « الكيسانية » - نسبة إلى « كيسان » مولى علي ابن أبي طالب - لم تحصر أئمتها في أبناء فاطمة ، واتخذت من ابن الحنفية إمامها ومهديها .

وعلى حين انتشرت في صفوف فرق الشيعة المبالغات والأساطير حول أئمتهم - بمن فيهم ابن الحنفية - الذي زعمت « الكيسانية » أنه حي لم يمت ، وأنه غائب ، في « جبل رضوى » ، وسيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملأها الأمويون جورًا - حتى قالوا في ذلك شعرًا ، من مثل قول « كثير » عن علي والحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية :

ألا إنَّ الأئمةَ من قريشٍ ... ولاةَ الحقِّ أربعةٌ سواءُ
عليٌّ والثلاثةُ من بنيه ... هم الأسباطُ ليس بهم خفاءُ
فسبطٌ سبطُ إيمانٍ وبرٍّ ... وسبطٌ غيَّبتْهُ كربلاءُ
وسبطٌ لا تراهُ العينُ حتى ... يقودَ الخيلَ يتبعُها اللواءُ
تغيَّبَ لا يُرَى فيهم زمانًا ... « برضوى » عنده عسل وماء !

فاعتقدوا فيه عقيدة « الغيبة » والعودة بعد الغيبة ، قبل أن يعتقدها الاثنا عشرية في إمامهم الثاني عشر محمد بن الحسن - ابن العسكري - الذي زعموا غيبته في القرن الثالث الهجري ..

ومن مثل زعمهم أن الملائكة تراجعه الحديث في جبل رضوى .. كما قال السيد الحميري - بعد سبعين عامًا من وفاة

ابن الحنفية :

وما ذاقَ ابنُ خولة طعمَ موتٍ ولا وارتْ له أرضٌ عظاما

لقدْ أمسى بمردفِ شِعْبِ رضوى تراجعه الملائكةُ الكلاما !

على حين انتشرت هذه « العقائد » الشيعية ، حول ابن الحنفية ، وهو لا يزال حيًا .. فإن ورعه وعلمه قد جعلاه يستنكر هذه المبالغات ، وينهى الناس عن هذه الأساطير ..

ففي مواجهة الأساطير التي حكيت حول فكرة « المهدي » و « عقيدة المهدية » ، وبعد أن قاد « المختار الثقفي » [١ - ٦٧هـ = ٦٢٢ - ٦٨٧م] ثورة بالعراق نسبها إلى ابن الحنفية .. سئل محمد بن الحنفية عن لقب « المهدي » .. فلم ينكر أنه « مهدي » ، لكنه فسر المعنى تفسيرًا مضبوطًا بضوابط عقلانية الإسلام ، فقال : « نعم ، أنا مهدى ، أهدي إلى الرشد والخير » !.. ونهى أصحابه عن تصديق الأحاديث التي تزعم اختصاص آل البيت بعلم خصهم به الرسول ﷺ ، دون المؤمنين .. وعندما سأله أحد أتباعه :

- كانت تبلغنا عنك أحاديث من وراءِ وراءِ ! ..

أجابه بقوله :

- إياكم وهذه الأحاديث ؛ فإنها عيب عليكم . وعليكم بكتاب الله تبارك وتعالى ؛ فإنه به هُدَى أولكم ، وبه يُهْدَى آخركم » .

ولقد عاش ابن الحنفية حقبة الصراع على الخلافة ، عقب وفاة يزيد بن معاوية ، بين عبد اللّٰه بن الزبير [١ - ٧٣ هـ = ٦٢٢ - ٦٩٢ م] وعبد الملك بن مروان [٢٦ - ٨٦ هـ = ٦٤٦ - ٧٠٥ م] .. ورغم اعتقاده بأحقية آل البيت للخلافة ، إلا أن مذهبه كان رفض الاشتراك في هذا الصراع ؛ بل ورفض البيعة لأحدهما ، والانتظار حتى تجتمع الأمة على إمام واحد .. ولما ذهب الناس إليه وهو بمكة ليسألوه عن صلته بثورة المختار الثقفي بالعراق .

قال لهم : « نحن حيث ترون محتسبون ، وما أحب أن لي سلطان الدنيا بقتل مؤمن بغير حق » .

ولقد اضطرته الأحداث إلى التنقل في البلاد ، فخرج من المدينة إلى مكة عندما تعرضت المدينة عقب موت معاوية بن أبي سفيان ، لموقعة « الحرة » [٦٣ هـ = ٦٨٢ م] في بداية حكم يزيد .. فلما مات يزيد ، وخرج ابن الزبير بمكة ، ورفض ابن الحنفية مبايعته ، قائلًا : « حتى تجتمع لك البلاد ، ويتسق لك الناس » عزله ابن الزبير مع أنصاره بشعب بني هاشم .. ثم خرج إلى منى ، فالطائف ، ثم دخل مكة حاجًا ، في أربعة آلاف من أنصاره - وكان له في عرفة لواء ، ولابن الزبير لواء ، ولبني أمية لواء ! .. ومن الطائف ذهب إلى « أيلة » عندما دعاه عبد الملك بن مروان للإقامة في أرضه .. فلما طلب منه مبايعته اعتذر بمثل ما اعتذر به لابن الزبير ، قائلًا : « حتى يجتمع

الناس عليك أو عليه [ابن الزبير] - ثم أدخل فيما دخل الناس فيه ، فأكون كرجل منهم » ؟! .. وقصد مكة معتمرًا ، فمنعه ابن الزبير من دخولها ، فرجع إلى الطائف ، حتى قتل ابن الزبير، فذهب إلى مكة حاجًا ، ومنها عاد إلى المدينة فتوفي فيها ، ودفن بالبقيع .

ومع شجاعته الفائقة ، وعلمه الواسع ، وورعه الذي جعله قدوة النساك .. فلقد كان إنسانًا في خاصة نفسه وفي أهله ومع ذويه ؛ فهو يخضب شعره بالحناء ..

وعندما سئل : لم يخضب ، وكان أبوه لا يخضب .

قال : أتشبب به للنساء ؟! ..

وعندما رؤيت آثار الحناء بيده ، وسئل عنها ، قال : كنت أخضب أمي ! ..

بل لقد بلغت إنسانيته في بيته - وهو البطل العالم الورع - أنه كان يضفر ذوائب أمه ويمشط لها شعرها ؟! .. فكان إنسانًا راقيًا ، بالمعنى الإسلامي ، في كل الميادين ! .

ومن كلماته : « اصبر وما صبرك إلا بالله . وما هو بعظيم من لا يصبر على ما لا يجد من الصبر عليه بدًا حتى يجعل الله له منه مخرجًا » ؟!

* * *

(٤) الجَعْد بن دِرْهَم

[١٠٥ هـ = ٧٢٤ م]

هو مولى سويد بن غفلة ، يعد من جيل التابعين ، سكن في الجزيرة الفراتية ، شمالي العراق .. وعندما كان واليها مروان بن محمد - قبل خلافته في الدولة الأموية - على عهد هشام بن عبد الملك [٧١ - ١٢٥ هـ = ٦٩٠ - ٧٤٣ م] تتلمذ مروان وتأدب على الجعد بن درهم - فكان يلقب بـ « الجعدي » ..

وينسب إلى الجعد بن درهم أنه من أوائل من تكلم في « خلق القرآن » وفي « نفي الصفات » عن الذات الإلهية - وهو مذهب يرى فيه أصحابه « تنزيهًا » للذات الإلهية عن إثبات صفات قديمة لها قد تؤدي إلى شبهة تعدد القدماء ، وهو باب للشرك أُدخلت فيه النصرانية ، فأغلقوه ، وحذَّروا من فتحه .. بينما يرى فيه آخرون - وهم جمهور أهل السنة - « تعطيلاً » لمدلولات صفات الذات الإلهية ، يتجاوز حدود « التنزيه » ..

ولقد أظهر الجعد آراءه هذه في دمشق [١٠٤ هـ = ٧٢٣م] فطلبه هشام بن عبد الملك ، فخرج إلى الكوفة ، فبعث هشام إلى واليه على العراق « خالد القسري » - وكان جبارًا - أن يقتل الجعد ، « فضحى » به يوم عيد الأضحى ، مبررًا قتله بأن إنكاره للصفات - ومنها صفة « الكلام » - يعني أن الله لم يكلم موسى ولا إبراهيم .. فقال للناس ، في نهاية خطبته للعيد :

« انصرفوا ، وضحوا ، تقبل الله منكم ، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم ، فإنه يقول : ما كلَّم الله موسى ، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً ، تعالى الله عما يقول الجعد علوًا كبيرًا » .. ثم نزل فذبحه ؟! ..

وقيل : إن ميمون بن مهران الرقي [٣٧ - ١١٧ هـ = ٦٥٧ - ٧٣٥م] - وهو من العُبّاد والفقهاء والقضاة والمحدِّثين والمجاهدين - قد شهد على الجعد بالزندقة ، فاستند هشام بن عبد الملك إلى شهادته في الحكم عليه بالقتل ..

وفي تاريخ مقتله خلاف .. فالبعض يجعله [١١٨ هـ = ٧٣٦ م] .

* * *

(٥) غَيلان الدِّمشقي

[١٠٦ هـ = ٧٢٤ م]

هو غيلان بن مسلم - وقيل : ابن مروان .. أو : ابن يونس .. أصله مصرى .. وكان أبوه من موالي عثمان بن عفان .. درس الفقه على الحسن البصري [٢١ - ١١٠ هـ = ٦٤٢ - ٧٢٨ م] .. واشتهر في الشام كصاحب فرقة من فرق المتكلمين المسلمين تسمى « الغيلانية » - نسبة إليه - تقول بأن الإنسان حر مختار في أفعاله .. وكان غيلان وفرقته من أوائل الذين أظهروا هذا المذهب ، وعارضوا الجبر والجبرية في عاصمة الدولة الأموية - دمشق ..

وكان الجبر والجبرية المذهب الذي يشجعه خلفاء بني أمية ؛ لأنه يعفيهم أمام الناس من المسئولية عن المتغيرات التي أحدثوها في نظام الحكم الإسلامي .. فكان غيلان من قادة المعارضة السياسية والفكرية للأمويين ..

ويعد غيلان من أعلام الوعاظ والخطباء والكتاب البلغاء ، يضعه العلماء والمؤرخون في طبقة ابن المقفع وسهل بن هارون وعبد الحميد الكاتب .. وله رسائل - ضاعت - يقول عنها ابن النديم إنها بلغت ألفي صفحة .

ولقد استعان عمر بن عبد العزيز بغيلان الدمشقي إبان خلافته ، وعهد إليه ببيع المظالم التي صادرها عمر من أمراء بني

أمية .. فلما تولى الخلافة - بعد عمر - هشام بن عبد الملك ، انتقم من غيلان ، فاعتقله وقتله ، وصلبه على أحد أبواب دمشق ! .. وفرح خصومه - من أركان الدولة الأموية - بمقتله ، وقالوا : « إن قتله أفضل من قتل ألفين من الروم ! » .. أما أستاذه « الحسن بن محمد ابن الحنفية » ، فكان قد تنبأ له بهذا المصير .. عندما أشار إليه فقال : « أترون هذا ؟! .. إنه حجة الله على أهل الشام - [بني أمية] - .. ولكن الفتى مقتول !! » ..

وكان رأي غيلان في الإمامة والخلافة أنها تصلح في كل من يجمع شروطها ، حتى ولو لم يكن من قبيلة قريش - مخالفًا بذلك بني أمية والشيعة على حد سواء - « فكل من كان قائمًا بالكتاب والسنة فهو مستحق لها ، ولا تثبت إلا بإجماع الأمة » .. ولقد كان بهذا الرأي - ضرورة إجماع الأمة - طاعنًا في شرعية الخلفاء الأمويين [1] ؟! ..

* * *

(١) [مسلمون ثوار] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

(٦) الحَسَن البَصْري

[٢١ - ١١٠ هـ = ٦٤٢ - ٧٢٨ م]

هو أبو سعيد ، الحسن بن يسار البصري [٢١ - ١١٠ هـ = ٦٤٢ - ٧٢٨ م] .. واحد من أبرز العلماء الأعلام ، والمفكرين المصلحين ، والساسة الزهاد في جيل التابعين .. وهو أبرز علماء عصره على الإطلاق ..

ولد بالمدينة المنورة .. وكان أبوه - يسار - من سبي - رقيق - « ميسان » - وهي بلدة بين البصرة وواسط - .. وكانت أمه - خيرة - مولاة لأم سلمة = زوج رسول الله ﷺ ، ورضي الله عنها .. ومما يروى عن طفولته : رضاعته من أم سلمة زوج الرسول ، أثناء غياب أمه عنه في فترة الرضاع ! ..

ولقد نشأ الحسن البصري ، بالمدينة ، في كنف الإمام علي ابن أبي طالب ، كرم الله وجهه .. وتولى كتابة ولاية خراسان ، أثناء ولاية الربيع بن زياد عليها ، في خلافة معاوية بن أبي سفيان [٤١ - ٦٠ هـ = ٦٦١ - ٦٨٠ م] ..

وفي البصرة أقام الحسن ، وإليها نسب .. وفي مسجدها غدت مدرسته أشهر مدارس ذلك العصر ؛ فلقد تتلمذ عليه فيها أئمة عصره ، حتى ليمكن القول : إنه قد خرج من تحت عباءته أبرز علماء ذلك التاريخ ! ..

ولم يكن الحسن البصري - كما تقدم - عربي الأصل ..

ومع ذلك فلقد بلغ في علوم العربية والإسلام الحد الذي أصبح فيه الانتساب إليه وإلى مدرسته إجازة الاعتماد للعلماء ! ..

وكان من جيل التابعين - وليس من جيل الصحابة - ومع ذلك فلقد روي أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، عندما سمعته يرتل القرآن أنها قالت : « من هذا الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء ؟! » ..

وفيه قال حجة الإسلام الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ - ١١١١ م] : « كان الحسن البصري أشبه كلامًا بكلام الأنبياء ، وأقربهم هديًا من الصحابة ، وكان غاية في الفصاحة ، تتصبب الحكمة من فيه ! » ..

ولم يكن ، فقط ، واحدًا من ثقاة المحدِّثين والرواة لحديث رسول الله ﷺ ، وإنما كان إمامًا ورأسًا لأول مدرسة لرواة ورواية التاريخ العربي الإسلامي تبلورت في تاريخنا الحضاري .. فالناظرون في المصادر الأولى لتاريخنا الإسلامي ، يرون - عند التأمل - أن الحسن البصري وتلامذته هم رواة أول مدرسة روت أحداث هذا التاريخ ..

وكانت أحداث التاريخ السياسي الإسلامي ، بما فيه من صراعات على الخلافة والإمارة منذ خلافة الراشد الثالث عثمان ابن عفان [٢٣ - ٣٥ هـ = ٦٤٤ - ٦٥٦ م] في مقدمة الأحداث التي حظيت من هذه المدرسة التاريخية بالرواية والتحقيق والنقد والتقويم .. وكانت حروب تلك الحقبة تسمى -

في المصطلح العربي - بـ « الدماء » .. وكانت ثوارتها تسمى بـ « الفتن » ! .. ولريادة الحسن البصري وإمامته في هذا الميدان .. ولإحاطته بتاريخ « الحروب » و « الثورات » ، تحدث عنه المؤرخون فقالوا : إنه كان عالماً في « الفتن » و « الدماء » .. أي عالماً في تاريخ الثورات والحروب ؟! ..

وكان الحسن البصري إمامًا من أئمة المعارضة للانقلاب الذي أحدثه بنو أمية في فلسفة الحكم الإسلامي ونظام الخلافة الإسلامية ، عندما جعلوا الوراثة والاستبداد بها البديل عن الشورى والاختيار الحر من قبل الأمة للخلفاء .. ولهذا فلم يؤيد من خلفاء تلك الدولة الأموية سوى خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز [٦٢ - ١٠١ هـ = ٦٨١ - ٧٢٠ م] إذ تولى قضاء البصرة في عهده ، وكان له ناصحًا وعليه مشيرًا ، يكتب له الرسائل ، ابتداء أو جوابًا ، قبل وبعد تولي عمر بن عبد العزيز لإمارة المؤمنين .. والمراسلات بينهما نموذج من نماذج فكر السياسة والإدارة والإصلاح لواقع الأمة في ذلك التاريخ ..

لكن معارضة الحسن البصري للدولة الأموية لم تصل إلى درجة الثورة عليها وحمل السلاح ضدها .. لا لأنه كان ضد الثورة عليها ، وإنما لأنه كان - كمؤرخ - يدرك ما جرته الثورات الفاشلة من مآسي وآلام على الثوار - الذين كان كثير منهم من تلامذته - بل وعلى عامة الناس .. فكان يشترط لتأييد الثورة وللانخراط فيها أن تجتمع للثوار أسباب « التمكن » ، أي

غلبة الظن في النصر ، أو ما يرجح الانتصار على ولاة الدولة وجيوشها ! ..

ولقد تعرض الحسن البصري ، بسبب موقفه هذا ، لمضايقات عديدة من الثوار على بني أمية ، لفرط حرصهم على كلمة تأييد منه لهباتهم وانتفاضاتهم التي توالت في ذلك التاريخ ، وذلك إيمانًا منهم أن تأييده لهم سيكون حافزًا للعامة والخاصة على الانخراط في الثورة ، وعاملًا من عوامل الضغط على المترددين في التأييد لها والانخراط فيها ! ..

ومع ذلك ، فلم يسلم الحسن البصري من أذى بني أمية واضطهاد ولاتهم على العراق .. وخاصة أذى الحجاج بن يوسف الثقفي [٤٠ - ٩٥ هـ = ٦٦٠ - ٧١٤ م] .. فقطعوا عنه العطاء - [المعاش] - .. وأحاطوه بالعيون والجواسيس .. بل لقد اضطر إلى الهرب من ملاحقتهم عندما هموا بسجنه ، حتى ماتت ابنته وهو هارب ، فلم يستطع الصلاة عليها ، ولم يحضر مواراتها في التراب ! ..

ولكن هذا الاضطهاد لم يمنعه من إعلان نقده وإدانته للانقلاب الأموي ، ولمظالم الدولة الأموية وجور ولاتها .. فكان يدين انقلاب معاوية بن أبي سفيان على شورى الخلافة الراشدة ... وكان يسب الحجاج بن يوسف علنًا وعلى رؤوس الأشهاد .. ومن كلماته فيه : « يا أخبث الأخبثين وأفسق الفاسقين .. أما أهل السماء فمقتوك ، وأما أهل

الأرض فغزوك ! .. » .

وعندما كان نفر من الفقهاء ، المتزلفين للخلفاء والولاة ، ينهون الناس عن ذم الحكام ، بدعوى أن هذا الذم « غيبة » ينهى عنها الإسلام ، كان الحسن البصري يفتي : « ليس للفاسق المُعلِن غيبة ! .. ولا لأهل الأهواء والبدع غيبة ! .. ولا للسلطان الجائر غيبة ؟! .. » .. فأعمالهم ملك للرأي العام ، يحثها الناس ويصدرون فيها الأحكام ! ..

وعندما كان فقهاء السلاطين هؤلاء يجتهدون لإلهاء الناس بالفروع عن الجوهر والأصول وعن سياسة الأمة وشئون حكمها ، فيجعلون من « الفقه » علمًا يقف فقط عند الجزئيات ، بل والنوادر والغرائب من هذه الجزئيات .. كان الحسن البصري يفضح هذه الاتجاهات .. ولقد جاءه يومًا واحد من بطانة الحكام يسأله عن « طهارة » أو « نجاسة » دم البراغيث ! .. فأجابه متعجبًا : « يا عجبًا ممن يلغ في دماء المسلمين كأنه كلب ، ثم يسأل عن دم البراغيث ؟! .. » .

وعندما أخذت الدولة الأموية تبرر مظالمها وتحويلها الخلافة من « الشورى الراشدة » إلى « الملك العضود » ، تبرر ذلك بفلسفة « الجبر والجبرية » ، ونشأت لذلك في الفكر الإسلامي بدعة « الجبر » .. وساندتها فرقة « المرجئة » ، التي تدعو إلى عدم الخوض في تقويم أحداث الحكم والسياسة ورموزهما ، وإرجاء ذلك إلى الله ﷻ يوم القيامة .. عندما أخذ هذا

« الفكر » يبرر لذلك « الواقع » .. كان الحسن البصري طليعة الذين تصدوا لمناهضة الفكر الجبري .. فكانت مدرسته الفكرية ، التي اشتهرت بمدرسة « أهل العدل والتوحيد » .. هي أولى المدارس التي بلورت في تاريخنا الحضاري ، فلسفة الإسلام في « الحرية والاختيار » .. بل لقد حفظ لنا التاريخ أول نصٍّ كُتِبَ في هذا الفكر ، فإذا هو رسالة الحسن البصري إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان [٢٦ - ٨٦ هـ = ٦٤٦- ٧٠٥ م] التي يؤصل فيها فلسفة الحرية والاختيار ، مفندًا وناقضًا فلسفة « الجبر .. والإرجاء » .. فكان إمامًا في فلسفة .. السياسة .. كما كان إمامًا في التاريخ السياسي ، سار على هديه الكثيرون .. بل لقد تنازعته كثير من الفرق الإسلامية ، كل منها تعده من أئمتها والمتقدمين فيها ! [١] ..

* * *

(١) « طبقات ابن سعد » طبعة دار التحرير - القاهرة - « مسلمون ثوار » للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م « رسائل العدل والتوحيد » دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م .

(٧) زَيد بن عليّ

[٧٩ - ١٢٢ هـ = ٦٩٨ - ٧٤٠ م]

هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب [٧٩ - ١٢٢ هـ = ٦٩٨ - ٧٤٠ م] .. واحد من أئمة ثوار آل البيت على حكم بني أمية .. والإمام الذي تنسب إليه فرقة « الزيدية » ..

ولد ونشأ في المدينة المنورة .. وكان العقدان اللذان سبقا مولده قد شهدا تصاعد القمع الأموي لمعارضة آل البيت وثوراتهم ، ولكل ألوان المعارضة والثورات ..

- فمأساة الحسين بن علي ، في كربلاء قد وقعت [٦١ هـ = ٦٨٠ م] .

- واقتحام جيش يزيد بن معاوية [٢٥ - ٦٤ هـ = ٦٤٥ - ٦٨٣ م] للمدينة المنورة - بقيادة مسلم بن عقبة - واستباحته لها ولأهلها ثلاثة أيام .. قد حدث [٢٧ ذي الحجة ٦٣ هـ = ٢٧ أغسطس ٦٨٣م] ..

- وقمع ثورة التوابين - الشيعية - التي قادها سليمان بن صرد [٢٨ ق.هـ - ٦٥ هـ = ٥٩٥ - ٦٨٤ م] ثأرًا لمقتل الحسين ، قد حدث [٦٥ هـ = ٦٨٤ م] ..

- والإجهاز على الثورة الشيعية التي قادها المختار الثقفي [١ - ٦٧ هـ = ٦٢٢ - ٦٨٧ م] .. في الكوفة ، حدث

[٦٧هـ = ٦٨٧ م] ..

● واقتحام المسجد الحرام ، بالبلد الحرام ، وهدم الكعبة بالمنجنيق ، وإنهاء ثورة عبد الله بن الزبير [١ - ٧٣ هـ = ٦٢٢ - ٦٩٢ م] وقتله وصلبه ، قد حدث [٧٣ هـ = ٦٩٢م] ..

وعقب هذه الأحداث الدامية ، وفي ظلالها ولد ونشأ زيد ابن علي ! ..

* * *

وفي المدينة حصّل زيد : العلم .. وتميز بالزهد .. وتطلعت نفسه إلى الثورة على بني أمية ! ..

أخذ العلم عن علماء المدينة ، وفي مقدمتهم والده ، الإمام زين العابدين علي بن الحسين .. وأخوه الباقر محمد بن علي .. وتبحر زيد في القرآن وعلومه ، حتى لقد تحدث عن ذلك فقال : « لقد قرأت القرآن ، وأتقنت الفرائض ، وأحكمت السنة ، والآداب ، وعرفت التأويل ، كما عرفت التنزيل ، وفهمت الناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، والخاص والعام ، وما تحتاج إليه الأمة في دينها مما لابد منه ، ولا غنى عنه . وإني لعلى بينة من ربي ! » .

بل لقد أصبح زيد في العلم ، إمامًا تعلم على يديه العلماء .. فأخذ عنه العلم ابن أخيه جعفر الصادق .. ومحمد بن شهاب الزهري .. وشعبة بن الحجاج .. وينسب إليه في تراثنا العلمي

أثران عملاقان : « مجموع الفقه » ، الذي يعده البعض أعلى في الترتيب من « موطأ » الإمام مالك بن أنس [٩٣ - ٧٩ هـ = ٧١٣ - ٧٩٥ م] .. و « المجموع الحديثي » ، الذي يعد أقدم مدونات الحديث النبوي الشريف .. كما تجلت في مؤلفه « كتاب الصفوة » نزعته إلى التوفيق بين فرق الأمة ، التي أتاح تنافرها لبني الأمية الاستئثار بالدولة والسلطان ! ..

ومع العلم الغزير ، تميز زيد بالزهد والتقوى .. حتى لقد وصف بأنه « حليف القرآن » ! .. الذي لم يهتك لله محرمًا منذ عرف يمينه من شماله .. إذا رأيته رأيت أسارير النور في وجهه ! .. الذي ازدانت جبهته بأثر خفيف من السجود ! .. أما ذكره لله : فلقد كان يجذبه بعيدًا عن ما سوى الله ، فيغشى عليه ، حتى ليقول القائل الذي يشاهده : ما يرجع الى الدنيا أبدًا ؟! .. » .

ومع العلم .. والزهد والتقوى .. برع زيد في الخطابة .. حتى لقد كانوا يقارنون بينه وبين جده علي بن أبي طالب ، في هز أعواد المنابر ، وامتلاك مجامع القلوب ! ..

* * *

وكانت المآسي التي نزلت بآل البيت عقب الثورات الفاشلة قد أشاعت جو المأساة والترقب ، والحذر من الثورة لدى غالبيتهم العظمى .. وزاد من جو الهزيمة هذا غروب شمس الأمل الذي تمثل في عمر بن عبد العزيز [٦١ - ١٠١ هـ = ٦٨١ -

٧٢٠م] - الذي عقد المصالحة مع آل البيت .. ومنع لعن الإمام علي بن أبي طالب من فوق المنابر ! .. وأعاد إليهم أعطياتهم من بيت المال .. فلقد غربت شمس هذا الأمل بموته .. وبرزت معالم الردة على عهد عدله في عهد هشام بن عبد الملك [١٠٥ - ١٢٥ هـ = ٧٢٤ - ٧٤٣ م] ، الذي طال عهده .. وطال اضطهاده لكل الفرق والتيارات التي هادنها وصالحها عمر بن عبد العزيز .. ومنهم آل البيت ! ..

ولقد عبر جعفر الصادق [٨٠ - ١٤٨ هـ = ٦٩٩ - ٧٦٥م] عن الدعوة التي تحذر آل البيت وشيعتهم من الثورة على بني أمية ، بكلماته التي قال فيها : « إن بني أمية يتطاولون على الناس حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها ! .. وهم يستشعرون بغض أهل البيت ، ولا يجوز أن يخرج - [يثور] - واحد من أهل البيت حتى يأذن الله بزوال ملكهم ! .. » .

لكن زيد بن علي ، في هذه القضية ، قد مثل طليعة جيل من شباب آل البيت ، تمرد على هذا الاتجاه ، الذي قبع في بيته ، وأرخى عليه ستره ، في انتظار زوال ملك الأمويين ! .. فلقد كان يتحرق شوقًا للثورة على بني أمية .. وكثيرًا ما سمعه الناس يتمثل بهذه الأبيات :

ومن يطلب المال المُمَنَّع بالقنا	يعش ماجدًا أو تخترمه المخارم
متى تجمع القلب الذكي وصارمًا	وأنفًا حميًا تجتنبك المظالم
وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم	فهل أنا في ذا يالَ همدان ظالم؟!

وكان مذهب المعتزلة يدعو إلى تغيير نظم الجور والضعف والفساد ، سلمًا إن أمكن ، وبالسيف عند التمكن .. ويرى أنه « لا يحل لمسلم أن يخلي أئمة الضلالة وولاة الجور إذا وجد أعوانًا ، وغلب في ظنه أنه يتمكن من منعهم من الجور ! .. » .. فالتقى زيد بن علي ومن معه من الشباب الثائر في آل البيت بمذهب الاعتزال .. وأخذ فكره عن قائده واصل بن عطاء [٨٠ - ١٣١ هـ = ٧٠٠ - ٧٤٨ م] .. وأصبح يعيب على جعفر الصادق - وتياره وشيعته - ما اعتبره روح الانهزام والدعة والاستسلام .. ويردد : « ليس الإمام منّا من أرخى عليه ستره ! .. وإنما الإمام من شهر سيفه ؟! .. وإنه لم يكره قوم قط حر السيف إلا ذلوا ؟! .. » .

لقد تقدم على طريق الإمامة .. طريق الثورة ! ..

* * *

وتداعت الأحداث .. وشاعت بين الناس انتقادات زيد بن علي لمظالم هشام بن عبد الملك .. ودعوته للثورة عليه .. حتى لقد قال يومًا : « لو لم أكن إلا أنا وابني لخرجت [ثرت] عليه ؟! .. » فلما راجعه داود بن عمر في هذا الاتجاه .. قال له : « يا ابن عم ! كم تصبر على هشام ؟! .. » .

ولقد ذهب زيد بن علي للقاء الخليفة ، بالرصافة ، ليشكو إليه جور أمير المدينة .. فدار بينهما حوار جاف وغاضب وعنيف .. انتهى بأن طلب هشام إلى زيد الخروج من حضرته ،

قائلًا له في غضب :

– اخرج !

فأجابه زيد :

– أخرج ، ولا تراني إلا حيث تكره !

فغادر قصر الخليفة ، وهو يتمثل بقول الشاعر :

شرده الخوف وأزرى به ‏ ‏ كذاك من يكره حر الجلاد
منخرق الكفين يشكو الوجى ‏ ‏ تنكثه أطراف مرو حداد
قد كان في الموت له راحة ‏ ‏ والموت حتم في رقاب العباد
إن يُحدث الله له دولة ‏ ‏ يترك آثار العدا كالرماد

لقد خرج متجهًا إلى أنصاره في الكوفة .. ساعيًا إلى الثورة ، التي تقيم الدولة التي « تترك آثار العدا كالرماد ؟! » ..

* * *

وفي الكوفة أخذ زيد يعد للثورة .. فأخذ يؤلف بين أحزاب المعارضة ، المتنافرة ليوحدها ضد بني أمية ، قائلًا : « ليس الإخوان في الدين من تبرأ بعضهم من بعض ، وقتل بعضهم بعضًا ! » ..

وأخذ يرسل الرسل إلى المدن الأخرى ، يجمعون له البيعة والتأييد .. ومع هؤلاء الرسل والدعاة كتاب منه يتحدث فيه عن أهداف ثورته : .. التصدي لجور بني أمية .. والتذكير بما

أوجب الله على الناس في مثل تلك الحال .. والتنبيه على أن الخروج [الثورة] إنما هو لله .

ولقد استجاب لدعوته وبيعته خلق كثير .. ومدن كثيرة .. فأهل الحجاز .. والمدائن .. والبصرة .. وواسط .. والموصل .. وخراسان .. والري .. وجرجان - فضلًا عن الكوفة - استجابوا لدعوته ، وبيعته .. حتى لقد ضم ديوان جيشه أسماء خمسة عشر ألفًا من المقاتلين ..

وغير الجمهور .. أيد ثورته كوكبة من الأئمة والفقهاء والعلماء .. منهم الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان [٨٠ - ١٥٠ هـ = ٦٩٩ - ٧٦٧ م] ، الذي أيد الثورة ، وبايع زيدًا ، وأسهم في تجهيز جيش الثورة بعشرة آلاف درهم ! .. وقال للناس : لقد ضاهى خروج زيد خروج رسول الله ﷺ يوم بدر؟! ..

كما انضم إلى ثورته وأيدها : زبيد الأيامي ، من عباد الكوفة ونساكها ومحدثيها .. وهلال بن حباب ، قاضي المدائن ، وهو من المحدثين - .. ويحيى بن دينار الواسطي ، من المحدثين .. وهشام بن البريد ، من المحدثين بالكوفة .. ومسعر ابن كدام ، من المحدثين .. وعبد الله بن شبرمة ، من الفقهاء والقضاة والمحدثين .. وقيس بن الربيع ، من كبار المحدثين .. ومنصور بن المعتمر ، من المحدثين الزهاد .. وعثمان بن عمير أبو اليقظان ، من المحدثين .. ومحمد بن عبد الملك بن أبي

ليلى ، من فقهاء العراق .. ومعاوية بن أبي إسحاق ، من كبار المحدثين .. وسعد بن خثيم ، من رواة الحديث .. ومن كبار الفقهاء : سفيان الثوري ، والحجاج بن دينار .. وغيرهم كثيرون .. وكل المعتزلة .. وعلى رأسهم واصل بن عطاء .. وعمرو بن عبيد .. وغيرهم كثيرون ..

بل لقد شارك في الدعوة إلى ثورة زيد .. وفي أعمالها .. عدد من النساء الداعيات ! ..

وكانت صيغة البيعة التي بايع الثوار عليها زيد بن علي ، بمثابة « العقد الثوري » ، التي يمثل برنامج الثورة ومقاصد الثوار.. وفيه :

أ – الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ب – والجهاد ضد السلطة الظالمة وأعوانها .

ج – ونصرة المستضعفين في الأرض ..

د – وإنصاف المحرومين الذين أجحف بهم الظلم الأموي .

هـ – والعودة إلى نهج الإسلام في التسوية بين الناس في قسمة الفيء .

و – وإغلاق المعسكرات النائية – « المجامر » – التي جعلت الدولة منها منافي للمناوئين ! .

ز – ونصرة آل بيت الرسول ﷺ ..

أما نص البيعة فإنه يقول : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسوية ، ورد الظالمين ، وإقفال المجمّر ، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا ! » .

* * *

واتفق رأي زيد وأنصاره على إعلان الخروج والثورة (أول ليلة من صفر سنة ١٢٢ هـ = ٦ يناير سنة ٧٣٩ م) .. لكن الدولة الأموية تحركت لتجهض الثورة ، ولتفرق صفوف الذين تهيأوا للقيام بها .

● لقد هددت الأشراف والأغنياء بمصادرة الثروات .. فانصرف منهم الكثيرون عن الثورة ، بعد أن بايعوا لإمامها وقائدها ! .

● وهددت العامة بالوعيد .. والسوط .. والسيف .. فتخاذل منهم كثيرون ! .

وتحالف مع الدولة - ضد زيد وثورته - ذلك التخذيل والخذلان اللذين أتيا من صفوف المعارضة ، فشيعة جعفر الصادق لم تعجبهم موالاة زيد بن علي للخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر .. فطلبوا منه البراءة منهما .. فلما أبى رفضوه .. فسماهم « الرافضة » - فاشتهروا بهذه التسمية منذ ذلك

التاريخ ! .

والذين يدعون لبني العباس ، طلب منهم إمامهم محمد بن علي [٦٢ - ١٢٥ هـ = ٦٨١ - ٧٤٣ م] الانصراف عن تأييد ثورة زيد .. فطلب دعاته من أنصارهم خذلان الثورة ، قائلين لهم : « الزموا بيوتكم ، وتجنبوا أصحاب زيد ومخالطتهم ! .. » .

وأمام هذا التطور ، الذي صرف الكثيرين عن الثورة التي تحددت ساعتها .. تذكر زيد بن علي صنيع الكوفة مع جده الحسين ! .. فقال ، والألم يعصر نفسه : « فعلوها !! حسبي الله ! » .. ثم التفت إلى صاحبه نصر بن خزيمة متسائلًا : « يا نصر ، أتخاف أن يكونوا فعلوها حسينية ؟! .. » .

ولم يكن باستطاعته أن يتراجع .. أو أن يهرب من ميدان المواجهة .. فتعجل موعد الخروج بإعلان الثورة قبل أسبوع من موعدها الأصلي ، كي لا يهزم وهو في موقف الانتظار وموقع الدفاع ! ..

ودار القتال الشرس والعنيف أيامًا ثلاثة ، بين الثوار الذين لم يتبق منهم سوى خمسمائة ، وبين جيش بني أمية الذي بلغ تعداده اثني عشر ألفًا ؟! ..

فلما أصاب سهمٌ الجبهةَ اليسري لقائد الثورة .. فنفذ السهم إلى الدماغ .. رجع .. ورجع أصحابه حاملين إياه ! .. وفي

منزل أحدهم أحضروا له طبيبًا .. فأنبأه أن نزع السهم يعني موته .. فقال : الموت أيسر عليَّ مما أنا فيه ! .. فانتزع منه السهم ، ففاضت روحه إلى الله ! .

ولم يكن بنو أمية قد علموا بعد بإصابته ولا بوفاته .. فتشاور الثوار في مكان دفنه .. فاقترح البعض - حتى لا يمثل الأمويون بجثته - إسلامها إلى مياه الفرات ! .. واقترح البعض حز رأسه ، وإلقاء جسده بين أجساد القتلى ! .. لكن ابنه يحيى [٩٨ - ١٢٥ هـ = ٧١٦ - ٧٤٣ م] أبى إلا دفنه سرًّا ، فحمل إلى « العباسة » ، فدفن ليلًا هناك .. وأجروا على مكان دفنه ماء للتمويه ! .

لكن عبدًا سنديًا رآهم وهم يدفنونه .. فلما أصبح الصباح أخبر أعوان الوالي بموضع القبر ، فذهبوا إليه ونبشوه ، وأخرجوا جثمان زيد وحملوه على بعير ، مشدودًا بالحبال ، وألقوا به عند باب قصر الوالي .. وهناك احتزوا رأسه ، وبعثوا به إلى الخليفة بالشام ، فنصب على باب دمشق .. ثم إلى المدينة ، فنصب عند قبر الرسول ﷺ ، يومًا وليلة ؟! .. ثم حمل إلى مصر ، فنصب بالجامع .. إلى أن سرقه بعض الناس فدفنوه ! .. أما جسده ، فقد صلب « بالكناسة » - بالكوفة - فظل مصلوبًا عريانًا ، أربع سنوات .. فلما استأنف ابنه يحيى الثورة - ببلاد الجوزجان - طلب الوليد بن يزيد [٨٨ - ١٢٦ هـ = ٧٠٧ - ٧٤٤ م] من عامله على العراق إنزال جثمان زيد بن علي من

على الصليب ، وإحراقه .. فأحرقه ، وذرى رماده في نهر الفرات ! ..

لكن ثورات أنصاره وأبنائه تواصلت على امتداد قرون عدة من التاريخ [1] ! ..

* * *

(١) [تيارات الفكر الإسلامي] للدكتور محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .

(٨) الجَهْم بن صَفوان

[١٢٨ هـ = ٧٤٥ م]

هو أبو محرز ، جهم بن صفوان السمرقندي ، من موالي بني راسب . رأس فرقة كلامية هي فرقة « الجهمية » – التي نسبت إليه – وخلاصة مقالتهم : أن الإيمان هو المعرفة بالله ورسله ، وما جاء من عنده ، وعقد القلب على هذه المعرفة .. ولا يضر هذا الإيمان ما يعلن صاحبه ، حتى لو أعلن الكفر وعبد الأوثان ! .. والكفر هو الجهل بالله ورسله وما جاء من عنده .

وكان الجهم منزهًا ، ينفي التشبيه عن الذات الإلهية – ووافقته المعتزلة في ذلك بينما خالفه أهل السنة – لأنهم رأوا في المبالغة في التنزيه « تعطيلاً » ينفي مضامين الصفات عن الذات الإلهية .

أما في مبحث « القَدَر » : فكان الجهم – والجهمية – جبرية خُلَّص .. أي يمثلون الغلو الجبري ، بنفي القدرة عن الإنسان : فهو – عندهم – بمنزلة الجماد ، ليست له لا قوة مؤثرة ولا كاسبة .. وإنما هو بمثابة الريشة المعلقة في الهواء – ولقد خالفه في هذا الرأي المعتزلة – أهل التفويض – وفرق أهل السنة التي توسطت بين الجبر الخالص وبين التفويض .

ولمذهب الجهم : أن الإيمان معرفة قلبية ، رفض « الشروط »

التي اشترطها ولاة بني أمية للاعتراف بإيمان الترك الذين دخلوا في الإسلام حديثًا - من أهل ما وراء النهر - من مثل شروط : الاختتان - وإقامة فرائض الدين .. وحسن الإسلام .. وقراءة سورة من القرآن - والتي بدونها لا يسقطون عنهم الجزية .. وشارك في ثورة الحارث بن سريج [١٢٨ هـ = ٧٤٦ م] - عظيم الأزد - التي اندلعت ضد ولاة هشام بن عبد الملك [٧١ - ١٢٥ هـ = ٦٩٠ - ٧٤٣ م] بخراسان ، في بلاد الفارياب وبلخ والجوزجان والطالقان ومرو الروذ [١١٦ هـ = ٧٣٤ م] .. وكان الجهم الرجل الثاني في هذه الثورة ، والقاضي في جيشها .. فلما فشلت الثورة ، قتله والي خراسان نصر بن سيار فيمن قتل من زعمائها ؟

* * *

(٩) عَمْرو بن عُبَيد

[٨٠ - ١٤٤ هـ = ٦٩٩ - ٧٦١ م]

هو أبو عثمان ، عمرو بن عبيد بن باب [٨٠ - ١٤٤هـ = ٦٩٩ - ٧٦١م] .. كان أبوه عبيد بن باب واحدًا من الموالي .. موالي بنى العدوية ، من قبيلة تميم .. إذ كان جده من سبي الفتوحات الإسلامية لمقاطعة كابل ، من بلاد الأفغان ..

ولقد ولد عمرو بن عبيد في « البصرة » ، حيث كان والده يحترف صناعة النسيج .. ثم مهنة التجارة .. ثم عمل جنديًا في شرطة الحجاج بن يوسف الثقفي [٤٠ - ٩٥ هـ = ٦٦٠ - ٧١٤ م] ..

وشاء الله أن يكون عمرو بن عبيد نموذجًا للزهد والصلاح والتقوى على حين كان أبوه واحدًا من جنود الشرطة المتعسفة للحجاج الطاغية .. حتى ليروى أنه كان إذا مر على الناس بصحبة أبيه أشار الناس إلى الأب والابن فقالوا : « هذا شر الناس ، أبو خير الناس » ! ..

وفي البصرة - وكانت منارة العلم في عصره - طلب عمرو ابن عبيد العلم ، حتى أصبح في مدرسة الحسن البصري [٢١ - ١١٠ هـ = ٦٤٢ - ٧٢٨ م] علمًا من أعلام العقلانية الإسلامية والفلسفة الإلهية ، والسياسة الإسلامية ، وقطبًا من أقطاب « أهل العدل والتوحيد » ..

فهو واحد من الذين رفضوا الانقلاب الأموي على فلسفة الشورى الإسلامية .. ووقفوا في صفوف المعارضة للدولة الأموية .. وواحد من أعلام تيار « العدل والتوحيد » ، الذين رفضوا فلسفة « الجبر » التي استخدمت غطاء لتبرير التحولات الأموية في فلسفة الحكم وفي علاقة الحاكم بالمحكوم بميداني السياسة والأموال .. وهو علم من أعلام العلماء الذين شاركوا في الحياة السياسية ، منحازًا إلى الثورة ، وتجريد السيف لتغيير نظم الجور والضعف والفساد .. وكانت له إسهامات في الثورة التي أطاحت بالدولة الأموية .. وجهود في الاتجاه الذي أراد إعادة الخلافة الإسلامية شورى ، كما كانت على عهد الراشدين وعمر بن عبد العزيز [٦١ - ١٠٢ هـ = ٦٨١ - ٧٢٠ م] .. فأيد انقلاب عمر بن عبد العزيز ضد مظالم بني أمية وبني مروان .. وأيد ثورة يزيد بن الوليد [٨٦ - ١٢٦هـ = ٧٠٥ - ٧٤٤ م] ضد الوليد بن يزيد [٨٨ - ١٢٦ هـ = ٧٠٥ - ٧٤٤ م] في دمشق [١٢٦ هـ = ٧٤٤م] .. ووقف من استيلاء الفرع العباسي على السلطة والدولة - بتأييد الجند الخراساني - موقف الرفض والمعارضة .. وكان قلبه مع ثورة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن [٩٣ - ١٤٥ هـ = ٧١٢ - ٧٦٢ م] ضد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور [٩٥ - ١٥٨ هـ = ٧١٤ - ٧٧٥ م] .. وكذلك ثورة أخيه إبراهيم بن الحسن ، التي قامت في البصرة وما حولها بعد استشهاد النفس الزكية بالمدينة ..

ثم كانت له في الثورة نظرية تدعو إلى « التمكن » .. أي ضرورة الإعداد لها ، ورفض القيام بها حتى تتوافر للثوار الإمكانات التي تجعل النصر مضمونًا أو على الأقل احتمالاً يغلب على الظن ! ..

ومع كل ذلك وقبله .. فعمرو بن عبيد كان إمامًا في فرقة المعتزلة ، التي انشقت على مدرسة الحسن البصري .. لخلاف سياسي تعلق بتقويم الدولة الأموية وأنصارها ، عندما احتدم الخلاف بين علماء الأمة في الحكم على مرتكبي الذنوب الكبائر ، المصرين عليها ، غير التائبين منها – وكان المراد تلك الكبائر المتمثلة في تحويل الخلافة عن الشورى إلى الوراثة والملك العضود .. وتحويل النظام الاجتماعي عن عدالة الإسلام وإيثاره إلى الاستبداد بالمال والأثرة فيه ..

فقال الخوارج : إنهم كافرون .. وقال المرجئة : إنهم مؤمنون .. وقال أصحاب الحسن البصري : إنهم منافقون .. وقال المعتزلة : إنهم فاسقون ، في منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان ، مخلدون في النار بدرك دون درك الكافرين ! ..

وكان عمرو بن عبيد الإمام الثاني في فرقة المعتزلة على حياة قائدها واصل بن عطاء [٨٠ – ١٣١ هـ = ٦٩٩ – ٧٤٨ م] .. وإمامها الأول بعد انتقال واصل إلى جوار الله ..

ولقد كانت إعادة الخلافة الإسلامية إلى منهاجها الراشد ، وجعل الشورى والبيعة الحرة والاختيار الصحيح هي معاييرها

وسبل تعيين من يتولاها .. كانت تلك هي حجر زاوية الفكر الدستوري للمعتزلة .. ومعيار الاتفاق أو الاختلاف بينهم وبين غيرهم من التيارات في الفكر والنشاط السياسي ..

وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، بعهد من سليمان ابن عبد الملك ، وليس بالشورى .. ثم أحدث الانقلاب الذي أحدثه ضد مظالم بني أمية .. وسَالَمَ الفرق المعارضة والثائرة على الدولة .. وأخذ يتوجه إلى إعادة الخلافة شورى ، كما كانت في العهد الراشد .. أيده المعتزلة .. ويومئذ سئل عمرو ابن عبيد عن « دستورية » التأييد لخليفة تولى الخلافة بعهد ممن لا يملك وليس بالشورى الحرة والبيعة والاختيار ؟! .. فأفتى بأن عمر بن عبد العزيز ، وإن يكن قد تولى الخلافة دون شورى الناس ، إلا أن عدله والانقلاب الذي أحدثه قد جعله كمن تولاها بشوراهم فهو قد استحقها « برضاهم » .. فقام هذا الرضى مقام الشورى التي تكون في الابتداء ! .. وعبارته في هذه « الفتوى الدستورية » تقول : « لقد أخذ عمر بن عبد العزيز الخلافة بغير حقها ، ولا باستحقاق لها ، ولكنه استحقها بالعدل حين أخذها ! » .. فهو لم يصبح إمامًا بالتفويض والبيعة المتقدمة من قادة الأمة ، ولكنه أصبح إمامًا بالرضا المتجدد من أهل الفضل والحل والعقد الذين ناصروه وأثنوا على ما أحدث في الدولة والمجتمع من تحولات ! .

وبعد ربع قرن من انقضاء عهد عمر بن عبد العزيز –

والانقلاب الأموي على نهجه في الحكم - قاد المعتزلة ثورة أحلت أميرًا أمويًا ، كان على مذهبهم ، هو يزيد بن الوليد ، محل الخليفة الأموي الماجن الوليد بن يزيد .. واتجه يزيد بن الوليد ذات الاتجاه الذي كان لعمر بن عبد العزيز - العدل بين الناس في الثروات والأموال .. وإعادة الخلافة شورى بين الناس.. وكان عمرو بن عبيد بالبصرة - في العراق - فدعا الناس إلى النهوض إلى دمشق لتأييد الثورة والثوار .. وقال لهم : « تهيأوا حتى نخرج إلى هذا الرجل [يزيد بن الوليد] فنعينه على أمره » ! .

وعندما سئل عن « التجربة الثورية » - القصيرة العمر - التي تمثلت في ثورة وخلافة يزيد بن الوليد ، قال عن التحولات التي أحدثها في العدل الاجتماعي .. وفي التصدي لأمراء بني أمية .. وفي النظام الدستوري للخلافة .. قال عن يزيد بن الوليد وإنجازاته : « إنه الكامل ! عمل بالعدل ! وبدأ بنفسه ، وقتل ابن عمه [الوليد بن يزيد] في طاعة الله ، وصار نكالاً على أهل بيته ، ونقص من أعطياتهم ما زادته الجبابرة ، وجعل في عهده [بيعته] شرطًا ، ولم يجعله جزمًا » !

أي أنه :

- أقام العدل .. وطبقه .. وبدأ بنفسه في التطبيق لأحكامه ! .
- وقاد الثورة ضد أمراء بيته الأموي .. وقتل خليفتهم : ابن عمه ..

- واقتص للناس من بني أمية .

- وأعاد توزيع الثروات بالعدل ، وأنقص الأعطيات التي زادها الجبابرة من خلفاء بني أمية للجند ، ولبطانة الملك وأنصاره .

- وعندما بايعه الناس بالخلافة ، جعل عهد بيعته واستمرارها مشروطًا بطاعته لله ، وعدله في المجتمع ، وقيامه بالعدل بين الناس ، ولم يجعلها بيعة جازمة مؤبدة كما كان يفعل سابقوه ! .

* * *

وعندما أخذت الدولة الأموية تترنح تحت ضربات الثورات وحركات المعارضة ، التي تعددت اتجاهاتها وأطرافها .. من الخوارج .. إلى الهاشميين .. إلى العباسيين .. إلى المعتزلة .. إلى الشعوبية .. بادر المعتزلة بقيادة عمرو بن عبيد ، فدعوا إلى مؤتمر عقد بمكة ، تشاور فيه أبرز أئمة وقادة المعارضة للدولة الأموية والثائرين عليها .. وفيه اتفقوا بالشورى على إعادة الخلافة الإسلامية شورية كما كانت في العهد الراشد .. وانعقد أمر المؤتمرين على البيعة لواحد من علماء آل البيت ، الذين سبقت لهم الثورة خلف زيد بن علي بن الحسين [٧٩ - ١٢٢ هـ = ٦٩٨ - ٧٤٠ م] .. وهو - في ذات الوقت - على مذهب المعتزلة في القول بالعدل والتوحيد .. فبايعوا للنفس الزكية ،

محمد بن عبد الله بن الحسن ، بالخلافة بعد القضاء على دولة الأمويين .. وكان بين حضور مؤتمر مكة هذا ، الذين بايعوا للنفس الزكية ، رؤوس البيت العباسي أبو العباس السفاح [١٠٤ - ١٣٦ هـ = ٧٢٢ - ٧٥٤ م] وأبو جعفر المنصور - وكانا على مذهب المعتزلة أيضًا .

فلما تطورت أحداث الثورة على بني أمية .. ومال الجند الخراساني ، بقيادة أبي مسلم الخراساني [١٣٧ هـ = ٧٥٤ م] وهم أهل التوجه الشعوبي - إلى عقد صفقة مع البيت العباسي ، لإبعاد الخلافة عن العلويين - ذوي التوجه العربي - .. وقامت الدولة العباسية ، في ظلال حراب الجند الخراساني والهيمنة الشعوبية .. وقف عمرو بن عبيد يقود المعتزلة في موقف المعارضة من هذه الدولة ، ومن الخليفة المنصور الذي كان بالأمس تلميذًا من تلامذة عمرو بن عبيد ! ..

وكان قلب عمرو بن عبيد مع ثورة النفس الزكية - بالمدينة - وثورة أخيه إبراهيم - في البصرة - ضد المنصور .. لكنه لم يعلن معهما الثورة .. ولم يدع إليها أنصاره ومريديه ؛ لأنها لم تمتلك شرط « التمكن » الذي كان يشترطه لتأييد الثورة والثوار ! ..

وعندما توجه واحد من علماء المعتزلة إلى عمرو بن عبيد بالنقد ؛ بل واتهمه بالجبن لأنه لم يعلن الثورة على المنصور .. حدثه عمرو عن أن الأمر ليس جبنًا ، ولا هو تخاذل عن السعي

لتحكيم كتاب الله وسنة نبيه في الناس .. وإنما هي الحسابات التي توازن بين القوة التي لدى جند الفريقين : الدولة ، والثوار .. وهي الحسابات التي تجعل القائد يتحمل آلام الصبر وكظم الغيظ مفضلاً إياها على المغامرة التي تقود إلى مزيد من الفشل والآلام ! ..

لقد دار الحوار العنيف بين الزعفراني وبين عمرو بن عبيد على هذا النحو :

- إني أخالك جبانًا ! ..

- ولم ؟!

- لأنك مُطاع ، ولا تناجز هذا الطاغية ! ..

- ويحك ! هل الجند أشد من جندهم ؟! .. ورجالي أشد من رجالهم ؟! .. أما رأيت صنيعهم بفلان ، وخذلانهم لفلان ؟! .. والله لوددت أن سيفين اختلفا في بطني حتى مبلغا منحري ، كلما انتهيا إلى ذلك أعيدا ، وأن الناس أقيموا على كتاب الله وسنة نبيه ! .. » .

* * *

ولما استدعى المنصور العباسي أستاذه القديم عمرو بن عبيد .. وطلب إليه أن يعينه هو والمعتزلة على شئون الحكم بالمشاركة والتأييد .. رفض عمرو .. وصارح المنصور باستحالة تأييد المعتزلة للدولة العباسية طالما ظلت هذه الدولة تحت هيمنة

الجند الخراساني وتيارهم الشعوبي ، المعادي للعرب وحدهم ظاهرًا ، والمعادي في حقيقة الأمر لدين الإسلام أيضًا ! ..

ولقد كان الحوار بين الخليفة المنصور وبين العالم الثائر الزاهد الفيلسوف قطعة من الأدب السياسي للمعارضة السياسية والفكرية التي سجلها لنا التاريخ .

– يا أبا عثمان ، ائتني بأصحابك استعن بهم .

– أظهر الحقَّ يتبعْكَ أهلُه ؟! ومُر عمالك بالعدل والإنصاف .

– إني لأكتب لهم ، فآمرهم بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله . فإذا لم يعملوا فما عسانا نفعل ؟! ..

– إنك لتكتب إليهم في حوائجك فينفذونها ، وتكتب إليهم في طاعة الله فلا ينفذون ؟! .

إنك لو لم ترض من عمالك إلا بالعدل لتقرب به إليك من لا نية له فيه ! .. إن الملوك بمنزلة السوق ، وإنما يجلب إلى السوق ما ينفق [يروج] فيها ! .. إن حاشيتك اتخذوك سلمًا لشهواتهم ، فأنت كالآخذ بالقرنين ، وغيرك يحلب ! .. إن هؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيئًا ! ..

– هذا خاتمي [ونزع المنصور خاتم الملك] خُذه ، وولِّ من شئت ، وائت بأصحابك أُولِهم ! .

– إن أصحابي لا يأتونك وهؤلاء الشياطين [الخراسانية الشعوبية] على بابك ، فإن هم أطاعوهم أغضبوا الله ، وإن

عصوهم أغروك وألبوك عليهم .. أدعنا بعدلك تُسخ أنفسنا بعونك ! .. ببابك ألف مظلمة ، اردد منها شيئًا نعلم أنك صادق ! .. » .

وعند هذا الحد من الحوار « العميق .. والراقي .. والعنيف .. ! » بين الأستاذ الزاهد العابد الناسك الثائر وبين تلميذه القديم ، الذي أصبح ملكًا يعادي رفاق جهاده القديم ، ويتعقبهم بالسجن والنِّطْع والسيف ومختلف صنوف العذاب .. عند هذا الحد أراد عمرو بن عبيد الانصراف .. فرغب المنصور إليه أن يقبل منه مالًا .. فدار بينهما فصل جديد في هذا الحوار .. بدأه المنصور بقوله :

- « قد أمرنا لك بعشرة آلاف ..

- لا حاجة لي فيها ! ..

- والله لتأخذنها ..

- لا والله لا آخذها ! .. » .

وكان المنصور قد عهد إلى ابنه « المهدى » بولاية العهد .. وكان حاضرًا في مجلس الحوار .. فاستعظم أن يرفض رجل عطاء أبيه الخليفة ، واستنكر أن يرد إنسان يمينًا حلفها أمير المؤمنين .. فتدخل في الحوار ، مخاطبًا عمرو بن عبيد ، ومستفهمًا في إنكار واستنكار :

- « يحلف أمير المؤمنين ، وتحلف أنت ؟! ..

- [فتساءل عمرو بن عبيد] : من هذا الفتى ؟! .

- هذا محمد ابني .. وهو المهدي ، وهو ولي عهدي .

- أما والله لقد ألبسته لباسًا ما هو من لباس الأبرار ! ولقد سميته باسم ما استحقه عملًا ! .

ولقد مهدت له أمرًا [ولاية العهد] أمتع ما يكون به ، أشغل ما يكون عنه ! .

ثم التفت عمرو إلى المهدى ، ولي العهد ، وقال : نعم ، يا ابن أخي ، إذا حلف أبوك أحنثه عمك ! لأن أباك أقوى على كفارات اليمين من عمك ! » .

ومرة ثانية أراد عمرو الانصراف .

ولكن المنصور أراد أن يسبر غوره ، ويعلم موقفه من الثورة التي يعد لها النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن .. فسأله :

- « بلغني أن محمد بن عبد الله بن الحسن كتب إليك كتابًا ؟! .

- قد جاءني كتاب يشبه أن يكون كتابه ! ..

- أجبته ؟! [أي هل استجبت لرأيه في الثورة ؟!] .

- ألست قد عرفت رأيي في السيف [الثورة] أيام كنت معنا ؟! .

- أفتحلف ؟! .

- إن كذبتك تقية لأحلفن لك تقية !! .

- إنك والله الصادق البار ! .. » .

وعند هذا الحد من الحوار ، بدت رغبة عمرو بن عبيد شديدة في الانصراف من حضرة المنصور .. فسأله المنصور :

- « فهل لك من حاجة ؟ .

- نعم ! .. لا تبعث إليّ حتى أجيئك ! .

- إذن لا تلقني أبدًا ؟! .

- هذه هي حاجتي ! ..» .

ونهض عمرو بن عبيد منصرفًا ، تشيعه نظرات الإعجاب من المنصور ، ونظرات العجب والدهشة من حاشيته .. فلما ودع المنصور أستاذه العظيم ، نظر إلى حاشيته وأنشد :

كلكم يمشي رويد كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد !

* * *

وإذا كان هذا الحوار فريدًا في أدب المعارضة السياسية والفكرية .. فإن تاريخ عمرو بن عبيد قد سجل لنا - زيادة على ما تفردت به حياته - تفرد مماته برثاء الخليفة المنصور له .. إذ لم يسجل التاريخ رثاء خليفة لواحد من رعيته غير رثاء المنصور لعمرو بن عبيد .

فلقد مات عمرو بن عبيد .. ودفن بـ « مران » .. على طريق مكة .. فلما وقف المنصور على قبره رثاه شعرًا ، فقال :

صلى الإله عليك من متوسد ... قبرًا مررت به على مران
قبرًا تضمن مؤمنًا متحنفًا ... صدق الإله ودان بالفرقان
فلو أن هذا الدهر أبقى صالحًا ... أبقى لنا حيًا أبا عثمان !

لقد عرفه الفلاسفة إمامًا لمدرسة العقلانية الإسلامية ، والمقدم في علمائنا المتكلمين .. وعرفته ثورات عصره إمامًا منخرطًا في أحداث ذلك العصر المشحون بالثورات والاضطرابات .. وكان في مسالك الزاهدين ذلك العابد الذي يدعو ربه :

« اللهم أغنني بالافتقار إليك ، ولا تفقرني بالاستغناء عنك ! .. اللهم أعني على الدنيا بالقناعة ، وعلى الدين بالعصمة ! .. » .

كما عرفه الطريق من البصرة إلى بيت الله الحرام بمكة حاجًا على قدميه أربعين مرة في أربعين عامًا ! .. وخلفه بعيره يقوده ، حاملًا عليه الفقراء والضعفاء ؟! .

وعرفته منابر الخطابة واحدًا من أئمة البلاغة ، في عصر ازدهار البلاغة العربية ! .

وعرفته دواوين الحكمة إمامًا في صفوة الحكماء .. وواحدًا من صائغي الكلمات الجامعة .

ولقد سمع يومًا جلبة وضوضاء فسأل عن السبب والمصدر :

– « ما هذا ؟!

– إنه سارق يقطعون يده ! ..

– لا إله إلا الله ! .. سارق السر يقطعه سارق العلانية ؟! .. » .

فذهبت حكمة من حكم السياسة والاجتماع في التاريخ !

ولعمرو بن عبيد كتب ورسائل .. منها « التفسير » و « الرد على القدرية » .. لكنها ضاعت فيما ضاع من التراث [1] .

* * *

(١) [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] للقاضي عبد الجبار بن أحمد . طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م [مسلمون ثوار] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

(١٠) النَّفس الزَّكية

[٩٣ - ١٤٥ هـ = ٧١٢ - ٧٦٢ م]

هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب . أحد علماء وثوار وأئمة آل البيت .

ولد بالمدينة ، وفيها نشأ ، ونهل من العلم حتى صار أغزر شباب آل البيت علمًا .. وجمع إلى العلم براعة في الخطابة .. وشجاعة وفروسية .. وسخاء وكرمًا .. مع صلاح وتقوى .. ولقد أعادت شمائله إلى شباب المدينة صورة « أسد الله .. وسيد الشهداء » حمزة بن عبد المطلب من جديد .. واشتهر لذلك باسم « النفس الزكية » .

ولقد انحاز النفس الزكية إلى صفوف المعارضة الثائرة على بني أمية ، فشارك مع المعتزلة في الثورة التي قادها - من الكوفة - زيد بن علي [٧٩ - ١٢٢ هـ = ٦٩٨ - ٧٤٠ م] .. وبعد هزيمتها ظل على ولائه للمعارضة الثائرة .. فلما تصاعدت وقائع ومعارك الثوار ضد الدولة الأموية ، ولاحت نذر انهيارها، عقد قادة الفرق والأحزاب الثائرة مؤتمرا بمكة المكرمة ، تدارسوا فيه مستقبل الخلافة ، واستقر الرأي على إعادتها إلى إطار الشورى والاختيار والبيعة ، وإنهاء مرحلة الانحراف بها إلى الوراثة والملك العضود ، وعقدوا البيعة للنفس الزكية إمامًا وخليفة للمسلمين ، يتولى السلطان عندما تجهز

الثورة على بقايا المقاومة الأموية ..

لكن الجند الخراسانيين ، بقيادة أبو مسلم الخراساني [١٣٧هـ = ٧٥٤ م] - وهم شعوبيون ؛ كارهون للعرب - دبروا أمرًا آخر ، فأفضت الأحداث بنقل الخلافة - عند انهيار الدولة الأموية - إلى الفرع العباسي في الثورة - الذي مثله أبو العباس السفاح [١٠٤ - ١٣٦ هـ = ٧٢٢ - ٧٥٤ م] بدلًا من الفرع العلوي ، الذي كان يمثله النفس الزكية ! .

وبعد أن استقر الملك للعباسيين .. ظل النفس الزكية على معارضته لهذا الانقلاب ، أعلن ثورته من المدينة ضد حكم أبو جعفر المنصور [٩٥ - ١٥٨ هـ = ٧١٤ - ٧٧٥ م] وكان معه المعتزلة والعلويون وكثيرون من الذين بقوا على ولائهم للبيعة التي عقدت له قبل الانقلاب الشعوبي الذي حولها إلى العباسيين .. ولقد أيد كثير من العلماء - ومنهم الإمام مالك بن أنس [٩٣ - ١٧٩ هـ = ٧١٢ - ٧٩٥ م] - ثورة النفس الزكية .. وأحل الإمام مالك أولئك الذين اضطروا إلى مبايعة خلفاء بني العباس من أيمانهم ، قائلًا « ببطلان بيعة المكره ويمين الإكراه ! » .. ولقي بسبب ذلك الأذى والاضطهاد ! ..

لكن الثورة التي قادها النفس الزكية ، والتي سيطرت على المدينة في رجب سنة ١٤٥ هـ - والتي أرسلت ولاتها إلى مكة والشام والبصرة ومصر وخراسان واليمن والجزيرة والري والمغرب - قد أجهزت عليها الجيوش العباسية في الرابع عشر

من رمضان - أي بعد شهرين ونصف من قيامها ! ..

لكنها تواصلت في البصرة بقيادة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن - أخو النفس الزكية [1]، ..

* * *

(١) [مقاتل الطالبيين] لأبي الفرج الأصفهاني - تحقيق : السيد صقر - طبعة دار المعرفة - بيروت [مسلمون ثوار] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشرق - القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

(١١) القاسم الرَّسِّي

[١٦٩ - ٢٤٦ هـ = ٧٨٥ - ٨٦٠ م]

هو أبو محمد ، القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب [١٦٩ - ٢٤٦ هـ = ٧٨٥ - ٨٦٠ م] .. الحسني ، العلوي ، الشهير بالرَّسِّي .

متكلم ، وفقيه ، وشاعر ، وإمام ثائر من أئمة الفرقة الزيدية .

كانت نشأته بالمدينة المنورة ، ومسكنه بجبال « قدس » بأطرافها .

والإمام الرسي هو شقيق الإمام الزيدي الثائر : محمد بن إبراهيم بن إسماعيل ، الشهير بابن طباطبا [١٩٩هـ = ٨١٥م] الذي خرج ثائرًا بالكوفة ، على عهد الخليفة العباسي المأمون [١٩٨ - ٢١٨ هـ = ٨١٣ - ٨٣٣ م] .. فلقد بايعه على الثورة خلفه ، أهل الكوفة في جمادى الأولى سنة [١٩٩ هـ = ديسمبر سنة ٨١٤ م - يناير سنة ٨١٥ م] ..

وبعد وفاة الإمام الزيدي ابن طباطبا نهض أخوه القاسم الرَّسِّي بأمر الدعوة الزيدية العلوية .. وتمت له البيعة بالإمامة ، والنهوض بأمر الثورة [سنة ٢٢٠ هـ = ٨٣٥ م] ..

ولقد سميت البيعة التي عقدت للقاسم الرسي « بالبيعة الجامعة » ، وذلك لاجتماع وجوه أهل البيت ، من نسل الإمام

علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - على البيعة له .. وكان ذلك على عهد الخليفة العباسي المعتصم [٢١٨ - ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ - ٨٤٢ م] .

وقبل عقد البيعة بالإمامة للقاسم الرسي وظهور أمره ، كان قد قضى سنوات مختفيًا عن أعين بني العباس ؛ يمارس الدعوة العلوية سرًّا ، للرضى من آل محمد ﷺ - أي يدعو للثورة خلف إمام علوي غير محدد الاسم ! - وهي طريقة اقتضتها سرية الدعوة ، وضرورة الحفاظ على حياة الإمام الذي يدعون إلى الثورة تحت راياته .. وخلال تلك الحقبة ، مكث القاسم الرسي مختفيًا بمصر عشر سنوات ؛ والمأمون العباسي يجدُّ في طلبه ، وعامله على مصر : عبد الله بن طاهر يوالي البحث عنه ! .

وعندما انتقل القاسم الرسي من مصر إلى الحجاز واليمن .. وأخذ أمره في الذيوع والانتشار ، دخلت الجيوش العباسية إلى أرض اليمن لمطاردته ، فاضطر إلى الاختفاء مرة ثانية ، وعاش بأحد أحياء البدو مستترًا حتى مات الخليفة المأمون ، فعاد إلى الظهور في عهد المعتصم ، وتمت له البيعة الجامعة [٢٢٠ هـ = ٨٣٥ م] .

وكانت كفة القوة أكثر رجحانًا لدى الدولة العباسية ، فلم يستطع القاسم الرسي الصمود في وجه جيوشها ، فانسحب من أرض اليمن ، واعتزل في أرض الحجاز ، حيث اشترى جبلًا أسود اللون ، اسمه جبل « الرس » - الذي نسبه إليه - على

مسافة ستة أميال من المدينة .. اشتراه بخمسين دينارًا .. وجعل منه حصنًا ، ومزرعة ، ودار هجرة لأنصاره ولأولاده وذويه .. وهناك عاش بقية عمره ، حتى مات فدفن فيه ! .

وفي كتب طبقات الزيدية ، التي تؤرخ لأئمتها وأعلامها ، يوصف القاسم الرسي بأنه « نجم آل رسول الله » ، وفقيههم ، وعالمهم المبرز في أصناف العلوم ، ومن يضرب به المثل في الزهد والعلم .. » .

أما مقامه بين أئمة الزيدية : فهو مقام الإمام المقدم بين أئمتها .. حتى لقد نسبت إليه إحدى الفرق التي تفرعت إليها الزيدية .. وهي فرقة « القاسمية » ! .

وكما كان الرسي إمامًا في الثورة والجهاد والخروج على الدولة العباسية .. كذلك كان إمامًا في الفلسفة وعلم الكلام الإسلامي .. وفقيهًا .. ومفسرًا للقرآن الكريم .. ومن بين كتبه ورسائله ، التي تقترب من الأربعين ، نجد للكتابات السياسية مكانًا ملحوظًا .

ومن هذه الكتب والرسائل التي كتبت في الإمامة وفي السياسة وفي شئون الجهاد ومجادلة الفرق الثائرة :

١ - كتاب « الإمامة » .

٢ - وكتاب « تثبيت الإمامة » .

٣ - وكتاب « الاحتجاج في الإمام » .

٤ - وكتاب « الهجرة للظالمين » .

٥ - وكتاب « القتل والقتال » .

٦ - وكتاب « الرد على الرافضة » .

٧ - وكتاب « الرد على الروافض من أصحاب الغلو » .

٨ - وكتاب « الكامل المنير في الرد على الخوارج » .

وكان الرسي - ككل أئمة الزيدية - على مذهب المعتزلة في الأصول .. مع خلاف جزئي بينهما في قضية الإمامة وحدها [1] ؟ .

* * *

(١) [رسائل العدل والتوحيد] - دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م .

(١٢) الكِندي الفيلسوف

[٢٦٠ هـ = ٨٧٣ م]

هو أبو يوسف : يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي . عربي من أبناء ملوك كندة . ولد بمدينة البصرة - وكانت حاضرة العلم - وبها نشأ ، ثم انتقل منها إلى بغداد .

وكانت الدولة الإسلامية - أواخر العهد الأموى وأوائل العهد العباسي - قد انفتحت على علوم القدماء ، أسلاف الشعوب التي فتح المسلمون بلادها ، من الفرس واليونان والهنود ، بادئة بعلوم الصنعة العملية ، ومثنية بعلوم الحكمة والفلسفة .. فجاء الكندي طليعة العرب الذين قدَّموا للأمة فلسفة هؤلاء القدماء وخاصة فلسفة أرسطو ، حكيم اليونان . ولريادته هذا الميدان ، ولكونه أول ثمرات هذا المزيج الذي جمع إلى فكر المسلمين حكمة اليونان وفلسفتهم ؛ اختص بلقب « فيلسوف العرب » ، باعتباره أول من ارتاد هذا الميدان - وكانت من قبله ، فلسفة الإسلام المتميزة النقية هي علم التوحيد - علم الكلام - .

ولم يحذق الكندي الفلسفة وحدها - وهي في ذلك التاريخ أم العلوم - وإنما حذق معها - إلى حد الشهرة - الطب ، والموسيقي ، والهندسة ، والفلك .

وفي هذه الفنون ألف الكندي وترجم - وإن كان البعض

ينكر حذقه للترجمة ، ويرى أنه وقف فيها عند إصلاح لغة ما ترجمه الآخرون .. ولقد بلغ تعداد آثاره الفكرية ما يزيد على ثلاثمائة كتاب ورسالة - ولقد ذكر له ابن النديم [٤٣٨ هـ = ١٠٤٧ م] في [الفهرست] أسماء مائتين وواحد وأربعين مؤلفًا - وهي عند ابن القفطي [٥٦٨ - ٦٤٦ هـ = ١١٧٢ - ١٢٤٨ م] ٢٢٨ - وعند ابن أبي أصيبعة [٥٩٦ - ٦٦٨هـ= ١٢٠٠ - ١٢٧٠م] ٢٨١ .

ومن هذه الكتب « رسالة في التنجيم » و « اختيارات الأيام » و « تحاويل السنين » و « إلهيات أرسطو » و« رسالة في الموسيقى » و « الأدوية المركبة » و « رسم المعمور » و « الترفق في العطر » و « السيوف وأجناسها » و « القول في النفس » و « المد والجزر » و « خمس رسائل : أولاها : في ماهية العقل » و « الشعاعات » و « الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد » و « رسائل الكندي » - نشرها الأستاذ الدكتور / محمد عبد الهادي أبو ريدة - في جزأين - وهذه العناوين تشهد على امتزاج الفكر اليوناني بالإسلامي في « مشروع الكندي » وإنجازه ، كما تشهد على موسوعيته التي استوعبت علوم وفنون عصره وتراث الإنسانية الذي كان معروفًا للأمة في ذلك التاريخ .

ولهذه الريادة التي مثلها الكندي في هذا الميدان الفكري الجديد - فلسفة القدماء - تفاوت حظه في التقديم والتأخير لدى خلفاء العصر الذي عاش فيه .. فكانت له منزلة عظيمة

عند الخليفة العباسي المأمون [١٧٠ - ٢١٨ هـ = ٧٨٦ - ٨٣٣ م] لحبه الفلسفة ، وتقديمه لأعلامها .. بينما امتحن في عهد المتوكل العباسي [٢٠٦ - ٢٤٧ هـ = ٨٢١ - ٨٦١م] الذي انقلب على التيار العقلاني ، وقدم أهل الحديث - فضُرب الكندي ، وأُخذت كتبه - بسبب وشايات الخصوم - فلما أشرقت شمس الحقيقة ؛ أعادوا إليه كتبه - وفيها مؤلفاته - مرة أخرى [1] ! ..

* * *

(١) [طبقات الأطباء والحكماء] لابن جلجل . تحقيق : فؤاد سيد . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م [الكندي : فيلسوف العرب] للدكتور أحمد فؤاد الأهواني - سلسلة أعلام العرب - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م [الأعلام] لخير الدين الزركلي - طبعة بيروت .

(١٣) عليُّ بن محمد

[٢٧٠ هـ = ٨٨٣ م]

هو علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .. وشهرته في التاريخ الإسلامي : « صاحب الزَّنج » ؛ لأنه قائد الثورة التي عرفت بهذا الوصف - « ثورة الزَّنج » لغلبة العبيد الزنوج على جمهور الذين شاركوا فيها .

ولد علي بن محمد ونشأ في « ورزنين » إلى الجنوب الشرقي من طهران ، بفارس .. في بيئة يتقاتل فيها أهل المذاهب السياسية المختلفة ، وفي عصر سيطر فيه الترك المماليك على الخلافة العباسية .. وكان العلويون في طليعة القوى التي بقيت على رفضها للدولة العباسية ، وعلى الثورة ضد ولاتها .

ولقد بدأ علي بن محمد الدعوة إلى الثورة ضد العباسيين بين عرب « هجر » في البحرين سنة ٢٤٩ هـ .. وبعد معارك وهزائم - نفَرت منه العرب - انتقل إلى البصرة .. فبغداد .. فالبصرة ، ليعلن ثورة أخرى سنة ٢٥٥ هـ .. وفي هذه المرحلة من ثورته انعطف نحو الزنوج الذين كانوا يعملون في نزح أملاح الأرض ، بنوا حي الفرات الجنوبية ، فثاروا على سادتهم ، وانضموا لثورته ، حتى غلبوا على جمهورها ، فسميت لذلك « ثورة الزَّنج » [١] .

ولقد مثلت هذه الثورة أقوى وأطول التحديات التي واجهت الدولة العباسية ؛ فهي قد أقامت دولة شملت أغلب سواد العراق ، وامتدت إلى فارس والخليج .. وبنى الثوار لدولتهم عاصمة - سموها « المختارة » - وسط القنوات وفروع الأنهار والأغوار والمستنقعات ، لحمايتها من الاقتحام ! .. كما مثلت هذه الثورة أطول الثورات عمرًا ضد العباسيين ؛ إذ استمرت أكثر من عشرين عامًا ! .

والمؤرخون يختلفون في مذهب قائد هذه الثورة .. فالطبري يرى أنه كان على مذهب « الخوارج الأزارقة » .. لكن ممارساتهم ، وبقايا خطب علي بن محمد ، وألوان أعلامهم وأزيائهم - البيضاء - ترشح أنهم كانوا « مُبَيِّضَة » .. أي علوية ، يسيرون على درب ثورات العلويين ، التي بدأت بثورة زيد بن علي [٧٩ - ١٢٢ هـ = ٦٩٨ - ٧٤٠ م] أحد أجداد علي بن محمد - فلقد كان « البياض » شعار ثورة النفس الزكية [٩٣ - ١٤٥ هـ = ٧١٢ - ٧٦٢ م] - وهو الذي سبق وقاتل في ثورة زيد بن علي - بينما كان « السواد » شعار بني العباس [1] ! ..

* * *

(١) [تاريخ الطبري] جـ ٩ - طبعة دار المعارف - القاهرة [مسلمون ثوار] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

(١٤) يحيى بن الحسين

[٢٤٥ - ٢٩٨ هـ = ٨٥٩ - ٩١١ م]

هو الإمام الهادي إلى الحق ، أبو الحسين ، يحيى بن الحسين ابن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب [٢٤٥ - ٢٩٨ هـ = ٨٥٩ - ٩١١ م] .

ولد بالمدينة المنورة [سنة ٢٤٥ هـ = ٨٥٩ م] .. وذلك قبل وفاة جده - القاسم بن إبراهيم الرسي - أول أئمة الزيدية الرسيِّين - بسنة واحدة .

وكان يسكن « الفرع » - من أرض الحجاز - من نواحي « الربذة » - على الطريق بين مكة والمدينة - كان يسكنها مع أبيه وأعمامه ..

ولقد نشأ يحيى بن الحسين فقيهًا عالمًا ورعًا .. مع امتيازه في الفروسية والشجاعة والبطولة .. حتى قيل إنه كان يطحن الحنطة بكفه إذا ضغط عليها ! ..

وفي سن الخامسة والثلاثين عقدت له البيعة بإمامة الزيدية [سنة ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م] .. وكانت الزيدية هي الفرقة العلوية ، المنافسة لبني العباس ، وصاحبة الثورات المتعددة منذ إمامها الأول زيد بن علي بن الحسين [٧٩ - ١٢٢ هـ = ٦٩٨ - ٧٤٠ م] الذي ثار بالكوفة على عهد الخليفة الأموي

هشام بن عبد الملك [٧١ - ١٢٥ هـ = ٦٩٠ - ٧٤٣ م] ..

وكانت البيعة ليحيى بن الحسين على عهد الخليفة العباسي المعتضد [٢٤٢ - ٢٨٩ هـ = ٨٥٧ - ٩٠٢ م] .. وبعد محاولة غير ناجحة قام بها يحيى بن الحسين لإقامة دولة زيدية بأرض اليمن ، عاد مرة ثانية إلى الحجاز .. ثم عاد فكرر المحاولة مرة أخرى ، بعد أن دعاه أهل اليمن إليهم ، وراسله أحد ملوكها ، وهو أبو العتاهية الهمداني .. فذهب الإمام يحيى إلى اليمن ، ودخل إلى مدينة صعدة في (شهر صفر سنة ٢٨٤هـ = مارس سنة ٨٩٧ م) حيث نجح في إقامة دولة زيدية مستقرة باليمن لأول مرة في تاريخ الدول والثورات الزيدية .. فلقد بايعه أبو العتاهية الهمداني .. وقام بتأليف وإصلاح العلاقات بين العديد من القبائل التي بايعته بالإمامة .. مثل : قبائل خولان - التي أنهى فتنتهم .. وبني الحارث بن كعب .. وبني عبد المدان .

ثم قام بفتح بلاد « نجران » ، وأقام بها مدة .. وخاض المعارك العديدة ضد ولاة بني العباس ، وأحرز عليهم الانتصارات .. فلقد كان الإمام يحيى بن الحسين - إلى جانب إمامته في العلم - وخاصة علم الكلام - إمامًا في الشجاعة وفنون القتال .. وكانت مقدرته الحربية متميزة باهتمامه بالجوانب العملية ؛ إذ كان يشارك بنفسه في المعارك الحربية .. مطبقًا المبدأ الزيدي في الإمامة وشروط الإمام وصفاته .. إذ الإمام عندهم ليس الذي تصله الإمامة بالوصية والوراثة ، وإنما هو

الذي يجرد السيف مقاتلًا ولاة الجور والضعف والفساد ! .

ولقد غزا القرامطة في عهده بلاد اليمن ، واحتلوا صنعاء .. وكان يقود جيشهم علي بن الفضل - وأصله عامل تجار من أهل الكوفة ! .. ودارت معارك كثيرة بين يحيى بن الحسين وبين الجيش القرمطي ، حتى لقد أحصيت له ضدهم ثلاث وسبعون معركة ؟! .

وعندما اشتد بأس القرامطة ، خلال هذا الصراع ، وخافهم الناس ، جمع الإمام يحيى أنصاره ، وكانوا ألف رجل ، وخطب فيهم قائلًا : « أتفزعون وأنتم ألفا رجل ؟! .. أنتم ألف ، وأنا أقوم مقام ألف ! .. » .. ثم انتخب منهم ثلاثمائة رجل ، سلحهم بأسلحة الباقين ، وشن بهم هجوما ليليًا على جيش القرامطة ، وفي غفلة منهم ، فحقق النصر الذي أجلاهم به عن صنعاء ! .

ولقد امتدت حدود دولته إلى ما وراء اليمن ، حتى لقد خطب خطباء مكة فدعوا له على منابرها سبع سنوات .. وضربت السكة - [النقود] - باسمه .. فكان المؤسس الحقيقي لدولة الإمامة الزيدية باليمن ، والتي حكمها أئمة أغلبهم من نسله .. فاستمر حكمها حتى ثورة اليمن في جماد الأول سنة ١٣٨٢هـ = سبتمبر سنة ١٩٦٢ م .

ولم تكن الحياة الفكرية للإمام يحيى بن الحسين بأقل خصوبة من حياته السياسية والحربية .. بل لقد سبقت إمامته

الفكرية إمامته السياسية .. فقبل حروبه باليمن ودولته فيها اشتهر بنشاطه الفكري ومؤلفاته العلمية في بلاد « الديلم » و« آمل » و « العراق » .. وكان الفكر السياسي والتأليف في الإمامة ميدانًا من الميادين الفكرية التي قدم فيها العديد من الكتب والرسائل .. فله في هذا الفن :

١ - [كتاب فيه معرفة اللّه .. وإثبات النبوة والإمامة ..] .

٢ - و [جواب مسألة النبوة والإمامة] .

٣ - و [تثبيت إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب] .

٤ - و [كتاب في تثبيت الإمامة] .

٥ - و [عهد أهل الذمة] .

هذا غير كتبه ورسائله في [تفسير القرآن العظيم] وفي مسائل علم الكلام وأصول الدين ، الذي كان فيه - ككل الزيدية - على مذهب المعتزلة .. وهي كتب ورسائل يقترب عددها من الخمسين .

• • •

وفي الثالثة والخمسين من عمره ، توفي الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بمدينة « صعدة » اليمنية في العشرين من (شهر ذي الحجة سنة ٢٩٨ هـ = أغسطس سنة ٩١١ م) .

- وقيل : إنه قد مات مسمومًا - وقبره ومشهده بمسجده

الجامع مشهور حتى الآن .

ولقد كان الإمام يحيى في الفقه على مذهب الإمام زيد بن علي .. وله في الفقه كتاب [الوافي في فقه الهادوية الزيدية] .. وهو مجموع فتاواه ، وفتاوى جده القاسم الرسي - جمعها أبو الحسن علي بن بلال الآملي الزيدي - .. ولأهمية جهوده العلمية في هذا الميدان ، سمي المذهب الفقهي الذي ساد دوائر الزيدية باليمن ، منذ عهده وحتى الآن ، بمذهب الهادوية الزيدية [1] ! .

* * *

(١) [رسائل العدل والتوحيد] دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م .

(١٥) الصَّاحِب ابن عَبَّاد

[٣٢٦ - ٣٨٥ هـ = ٩٣٨ - ٩٩٥ م]

هو الصاحب ابن عَبَّاد [٣٢٦ - ٣٨٥ هـ = ٩٣٨ - ٩٩٥م] أبو القاسم ، الطالقاني ، إسماعيل بن عباد بن العباس .. والطالقاني - نسبة إلى « الطالقان » - التي ولد فيها في (ذي القعدة سنة ٣٢٦ هـ = سبتمبر سنة ٩٣٨م) .

ولقد كان والده وزيرًا في الدولة البويهية [٣٢٠ - ٤٤٧ هـ = ٩٣٢ - ١٠٥٥ م] ذات المذهبية الشيعية .. المعتدلة في تشيعها .. فلقد كانت قريبة من تشيع الزيدية - وزيرًا لأميرها ركن الدولة .

ولقد نشأ الصاحب في صحبة الأمير البويهي مؤيد الدولة .. ومن هذه الصحبة اشتهر بلقب « الصاحب » ، فغلب عليه .. حتى لقد لقب به الوزراء من بعده ! .

وكان الصاحب ابن عباد من نوابغ الأدباء والبلغاء في عصره .. كما كان له إلمام بعلم الكلام ، وخاصة على مذهب أهل العدل والتوحيد .. أخذ علوم الأدب واللغة عن أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي - صاحب كتاب « المجمل في اللغة » .

كما أخذ عن أبي الفضل ابن العميد .. وغيرهما من أئمة الأدب واللغة .. وكانت له صحبة مع إمام المعتزلة في عصره : قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني [٤١٥ هـ = ١٠٢٤ م] الذي تولى - في عهده - منصب قاضي القضاة -

الموازي لمنصب « وزير العدل » في عصرنا .

وكما اشتهر الصاحب في الأدب والعلم .. كذلك اشتهر كواحد من أبرز الذين تولوا منصب الوزارة .. فلقد تولى الوزارة للأمير البويهي مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي [٣٦٦ - ٣٧٣هـ = ٩٧٦ - ٩٨٣ م] فلما توفي ، وخلفه أخوه فخر الدولة [٣٧٣ - ٣٧٨ هـ = ٩٨٣ - ٩٨٨ م] استعفى الصاحب من الوزارة .. لكن فخر الدولة أبى أن يعفيه واستبقاه في الوزارة ، قائلاً له : إن لك في هذه الدولة من إرث الوزارة ما لنا فيها من إرث الإمارة ، فسبيل كل منا أن يحتفظ بحقه ؟! .

ولقد كانت إدارته لشئون الدولة موضع إعجاب أمراء وملوك عصره ، حتى لقد كتب إليه ملك خراسان وما وراء النهر نوح بن منصور يعرض عليه أن يلي الوزارة له .. فاعتذر - في أدب - بتعذر انتقاله من مدينة « الري » ؛ لأن مكتبته تحتاج إلى أربعمائة جمل ليحملوا ما بها من الكتب ! .. وذلك فضلاً عن كثرة حاجياته .. وتعداد حاشيته ! .

وكان الصاحب مهابًا لدى الأمراء الذين وَزَرَ لهم .. حتى لقد كان إذا استأذن في الدخول على الأمير فخر الدولة ، وهو في « مجلس الأنس » ، غادره ليلقاه في « مجلس الحشمة » . ولما مازحه فخر الدولة مرة ، غضب الصاحب ، وقال له : بنا من الجد ما لا نفرغ معه إلى الهزل ! .. ونهض فغادر المجلس ..

فما زال فخر الدولة يراسله ويسترضيه حتى عاد وصفا الجو بينهما ! .

وفي سنة (٣٧٧هـ = ٩٨٧ - ٩٨٨م) قاد الصاحب ابن عباد حملة حربية على إقليم طبرستان ، فاستولى عليها ، وضمها إلى الدولة البويهية ، وقام بتنظيم شئونها .

ولقد نافست شهرته في الجود والكرم شهرته في الأدب والوزارة .. فكان مجلس أدبه وعطائه النموذج الذي يحاكي - في عصره - نموذج مجلس هارون الرشيد [١٧٠ - ١٩٣هـ = ٧٨٦ - ٨٠٩ م] ..

ومن الآثار اللغوية والأدبية التي أبدعها الصاحب ابن عباد : كتاب « المحيط » في اللغة .. الذي رتبه على حروف المعجم - وهو في سبع مجلدات - .. وله كتاب « الكافي » - في الرسائل - .. وكتاب « الأعياد وفضائل النيروز » .. وكتاب « الكشف عن مساوئ شعر المتنبي » .. وكتاب « الإقناع في العروض وتخريج القوافي » .. ورسالة في « عنوان المعارف وذكر الخلائف » .. وله رسائل جمعت في كتاب « المختار من رسائل الوزير ابن عباد » .. كما كان له شعر رقيق جمع في ديوان .

أما في السياسة : ، فإن من كتاباته فيها : كتاب « الوزراء » .. وكتاب « الإمامة » ..

وله في علم الكلام : كتاب « الإبانة عن مذهب أهل

العدل » .. وكتاب « أسماء اللّه تعالى وصفاته » .

ولقد توفي الصاحب ابن عباد - بالري - [في صفر سنة ٣٨٥هـ = مارس سنة ٩٩٥م] .. ونقل جثمانه إلى مدينة أصفهان ، حيث دفن في قبة بمكان يعرف بباب دريه [١] ؟! ..

* * *

(١) [رسائل الصاحب ابن عباد] - تحقيق : عبد الوهاب عزام ، د. شوقي ضيف - طبعة القاهرة سنة ١٣٣٦ هـ [دائرة معارف البستاني] - تحرير المعلم بطرس البستاني . طبعة مصورة - طهران .

(١٦) الباقِلّاني

[٣٣٨ - ٤٠٣ هـ = ٩٥٠ - ١٠١٣ م]

هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر . ولد بالبصرة ، وعاش في بغداد ، وبلغ من العلم أن كان رأس علماء الأشعرية في عصره ، والمبرز في علم الكلام .. وأحد أعلام الفقه المالكي ..

والباقلاني - مع الجويني [٤١٩ - ٤٧٨ هـ = ١٠٢٨ - ١٠٨٥ م] والغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ - ١١١١ م] - هم أبرز من طوّر ونشر المذهب الأشعري - والباقلاني أخذ المذهب عن تلاميذ مؤسسه أبو الحسن الأشعري [٢٦٠ - ٣٢٤هـ = ٨٧٤ - ٩٣٦م] - .. ولقد قال عنه ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] : إنه خير متكلمي الأشاعرة ، لا يدانيه سابق ولا لاحق .

وفي انتصار الباقلاني للمذهب الأشعري يتجلى الاحتكام إلى المنطق ، والجدل النظري ، والأدلة والبراهين العقلية ، أكثر مما نجد الوقوف عند النصوص وحدها .. كما نجد عنده جديدًا في مذهب الأشعري في « الكسب » ، فهو يجعل « لقدرة الإنسان الحادثة تأثيرًا في وجود الفعل الإنساني ، وفي وقوعه على هيئة مخصوصة دون سواها من الهيئات » .

ولقد سَفَر على الباقلاني لسلطان الدولة البويهية عضد

الدولة ، إلى بلاط ملك الروم ، وهناك - في القسطنطينية - كانت له مناظرات مع علماء النصرانية شهدها الملك .

ومن بين آثاره الفكرية - التي بلغت اثنين وخمسين كتابًا - بقي ستة كتب .. منها : « التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة » و « إعجاز القرآن » و « الانتصار للقرآن » [1] ! .

* * *

(١) [التمهيد] للباقلاني - دراسة وتحقيق : محمود محمد الخضيري ، د .محمد عبد الهادي أبو ريدة - طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧ م [تيارات الفكر الإسلامي] للدكتورة محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩١م .

(١٧) القاضي عبد الجبّار

[٤١٥ هـ = ١٠٢٤ م]

هو قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد بن خليل بن عبد الله الهمذاني الأسد آبادي .

ولد بمدينة أسد آباد ، الفارسية ، حوالي العقد الثالث من القرن الرابع الهجري .. وفيها وفي « قزوين » بدأ تلقي دروسه الأولى في الفقه والأصول والكلام والحديث على أبرز علمائها .. ثم رحل إلى همذان .. وإلى أصفهان ، فأخذ عن أعلام العلم فيها .. وكان أشعريًا في المذهب الكلامي ، شافعيًا في المذهب الفقهي ..

وفي [٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م] غادر القاضي عبد الجبار أصفهان إلى البصرة - وكانت مركز الفكر المعتزلي - فتتلمذ على شيخ المعتزلة فيها أبو إسحاق إبراهيم بن عياش ، فتحول إلى مذهب المعتزلة .. ومن البصرة سافر إلى بغداد ، فواصل دراسة الاعتزال على الشيخ أبو عبد الله بن الحسين بن علي البصري [٣٦٩ هـ = ٩٧٩ م] حتى أصبح من علماء المعتزلة وأعلامها .

وفي أوائل [٣٦٩ هـ - ٩٧٩ م] غادر القاضي بغداد إلى مدينة « رامهرمز » - بنواحي خوزستان - وكانت من معاقل المعتزلة - وفيها شرع يلقي دروسه بأحد مساجدها ، وهناك

أملى كتابه الجامع « المغني في أبواب التوحيد والعدل » الذي يعد أكبر موسوعات الفكر الاعتزالي على الإطلاق .

وإلى « الري » عاصمة الدولة البويهية دعاه الصاحب ابن عباد [٣٢٦ - ٣٨٥هـ = ٩٣٨ - ٩٥٥ م] - أبرز وزراء الدولة البويهية - حيث تولى منصب قاضي القضاة - وزير العدل - فيها .. وواصل هناك حياة التدريس والتأليف والإملاء .. مع رحلات للعلم والتعليم والحج والقضاء ، كان يعود بعدها إلى الري .

ولقد مثل القاضي عبد الجبار صحوة الفكر الاعتزالي ، بعد المحنة التي أصابته في عهد المتوكل العباسي [٢٠٦ - ٢٤٧هـ = ٨٢١ - ٨٦١ م] .. وتعد كتبه ورسائله - التي قاربت السبعين - ومنها « المغني » الذي يقع في عشرين جزءًا ، أبرز ما بقي في المكتبة الإسلامية من تراث المعتزلة .

وإلى جانب تآليفه وأماليه ، فلقد نبغ على يديه كوكبة من العلماء الأعلام ، الذين واصلوا الحفظ والتطوير والنشر للفكر الاعتزالي ، الأمر الذي جعل من القاضي عبد الجبار « مدرسة » وليس مجرد عالم من أكابر العلماء [١] ؟ .

* * *

(١) [قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني] للدكتور عبد الكريم عثمان - طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م [رسائل العدل والتوحيد] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٧م .

(١٨) الشريف المُرْتَضَى

[٣٥٥ - ٤٣٦ هـ = ٩٦٦ - ١٠٤٤ م]

هو علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم الموسوي . ولد وعاش وتوفي ببغداد .. وكان من أعلام أئمة الشيعة الاثنى عشرية في عصره ، ومن العلماء الأفذاذ في الكلام، والأصول ، والفقه ، والنحو ، والتفسير ، والأدب والشعر .. وكان مع أخيه الشريف الرَّضي [٣٥٩ - ٤٠٦هـ = ٩٧٠ - ١٠١٥ م] أبرز علماء العراق في ذلك العصر .

ورغم الوسط الشيعي الإمامي الذي نشأ فيه المُرْتَضَى ، فلقد أخذ العلم عن علماء غير شيعة ، ومن أساتذته قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني [٤١٥هـ = ١٠٢٤م] أخذ عنه أصول الاعتزال ، وظل خلافهما حول « الإمامة » قائمًا ، جسده كتاب « الشافي في الإمامة » الذي رد به التلميذ - المُرْتَضَى - على أستاذه - عبد الجبار - في هذا الموضوع ! .

ولقد بلغت إمامته للشيعة الاثنى عشرية ، في عصره ، الدرجة التي تولى فيها « نقابتهم » نقابة الطالبيين ..

أما آثاره الفكرية ، في العلوم والفنون التي برع فيها ، فلقد قاربت التسعين .. منها : « الأمالي » - وهو عمل موسوعي - و « الذخيرة » - في الأصول - و « الانتصار » - في الفقه الشيعي - و « إنقاذ البشر من الجبر والقدر » - في الحرية

والاختيار - و « ديوان شعر » - ضم من شعره أكثر من عشرة آلاف بيت [1] ..

* * *

(١) [رسائل العدل والتوحيد] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٧ م .

(١٩) البيروني

[٣٦٢ - ٤٤٠ هـ = ٩٧٣ - ١٠٤٨ م]

هو أبو الريحان ، محمد بن أحمد البيروني .

ولد في « بيرون » - من أعمال خوارزم - ببلاد فارس - من أصول فارسية - ومكث بها نحوًا من عشرين عامًا ؛ دارسًا ومتعلمًا لعلوم العربية وآدابها وللفقه والعلم والفلسفة .. ثم طوف في بلاد فارس وأفغانستان والعراق والشام طلبًا للتضلع في العلوم والفنون .. واتصل ببلاط سلاطين وملوك وولاة الدولة السامانية والغزنوية ، فأحله علمه فيها مكانًا مرموقًا .

ولقد نبغ البيروني في الفلسفة - واشتغل بالتوفيق بين الفلسفة والدين - ونبغ في التاريخ ، حتى عده علماء الشرق والغرب أعظم وأدق من أرخ لحضارات الأمم والشعوب الشرقية .. وبلغ في الرياضيات وفي الفلك المرتبة التي مثلت قمة عصره ، وجعلت منه التمهيد للدراسات الفلكية الحديثة ، وله في الفلك والرياضة وحدهما أربعون كتابًا ورسالة .

ومن الأفكار والنظرات والنظريات التي ارتاد ميدانها : قوله بإمكان ربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض .. وأن الصوت أسرع من الضوء .. وله معادلة لاستخراج مقدار محيط الكرة الأرضية ، سماها العلماء الغربيون : « قاعدة البيروني » وعدوها من الأعمال العلمية الهامة .

وفي جولات البيروني بأقاليم دار الإسلام لقي ابن سينا [٣٧٠ - ٤٢٨ هـ = ٩٨٠ - ١٠٣٧ م] وكانت بينهما مناظرات ومراسلات .. وبعد عودته من الهند استقر في بلاط الدولة الغزنوية ، في صدارة العلماء .

ومع الأصول العرقية الفارسية للبيروني ، وحذقه للفارسية ، فلقد وضع مؤلفاته بالعربية .. بل لقد بلغ اعتزازه بالعربية وولاؤه لها إلى الحد الذي قال فيه : لأن أُهجا بالعربية أحب إلى من أن أُمدح بغيرها ! .

وفي ظل حكم الدولة الغزنوية ، ذهب البيروني إلى الهند ، وتعلم لغتها السنسكريتية ، وعاش مع تراثها الحضاري وفكرها الفلسفي وعادات شعوبها وتقاليدها ومذاهبها الدينية سنوات ، فكان بمثابة بعثة علمية كاملة .. ثم سطر معارفه عن هذه الحضارة في مؤلفات لا تزال حتى الآن على النطاق العالمي ، أوفى وادق المصادر في حضارة الهند وأديانها ومذاهبها وفلسفاتها - وخاصة كتبه : « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » و « تاريخ الأمم الشرقية » و « تاريخ الهند » .

ولقد ذكر ياقوت الحموي [٥٧٤ - ٦٢٦ هـ = ١١٧٨ - ١٢٢٩ م] في « معجم الأدباء » أنه رأى - في مرو - فهرسًا لمؤلفات البيروني ، يشغل ستين ورقة - قد كتبت « بالخط الكثيف » - الصغير : ! .. ومن هذه الكتب : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » و « الاستيعاب في صنعة الاسطرلاب »

و « الجماهر في معرفة الجواهر » – وهو الذي أهداه إلى الملك المعظم أبي الفتح مودود – و « القانون المسعودي » في الهيئة والنجوم – أي الفلك – والجغرافية – أهداه إلى السلطان الغزنوي مسعود بن محمود بن سبكتكين – صاحب « غزنة » سنة (٤٢١هـ) .. ولما أراد السلطان مكافأته عليه ، بعث إليه بثلاثة جمال محملة بنقود الفضة ، اعتذر البيروني عن عدم قبولها ، وقال : إنه إنما يخدم العلم للعلم لا للمال ! .

ومن كتبه كذلك : « الإرشاد » في أحكام النجوم ، و « تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن » و « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » – في الفلك – و « استخراج الأوتار » – في الهندسة – و « كتاب الصيدلة » و « رسالة في الصلة بين أحجام المعادن والجواهر » ورسالة « في النسب بين الفلزات والجواهر في الحجم » .

ولقد ترجمت الكثير من مؤلفات البيروني إلى كثير من لغات الحضارة الغربية ، وعده علماؤها واحدًا من أكبر العقول العلمية في تراث الإنسانية بإطلاق .. وكانت لمؤلفاته آثار عظيمة في النهضة الغربية وفي العلم الحديث [١] .

* * *

(١) [معجم أعلام الفكر الإنساني] للدكتور إبراهيم مدكور . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م ، و [الأعلام] لخير الدين الزركلي ، طبعة بيروت ، و [دائرة المعارف الإسلامية] .

(٢٠) الماوَرْدي

[٣٦٤ - ٤٥٠ هـ = ٩٧٤ - ١٠٥٨ م]

هو أبو الحسن ، علي بن محمد بن حبيب .

ولد بالبصرة ، ودرس على مشاهير علمائها الفقه والحديث والكلام والتفسير وغيرها من علوم الشريعة وعلوم العربية .. ثم انتقل إلى بغداد ، فواصل التلقي عن علمائها ، حتى بلغ مرتبة التدريس والتأليف والإمامة في كثير من العلوم .

وتولى الماوردي في الدولة العباسية منصب القضاء .. وتنقل وتدرج في ولاية القضاء حتى بلغ مرتبة « أقضى القضاة » - وهو الذي يلي منصب « قاضي القضاة » - المماثل لوزير العدل في زماننا .

ومن البناء الفكري الذي تركه لنا الماوردي تتأكد إمامته العلمية ، لا في عصره وحده ، بل وعلى امتداد تاريخنا الحضاري .. فمن بين الاثني عشر كتابًا التي بقيت لنا من آثاره ، تمثل موسوعته في الفقه « الحاوي الكبير » وهي تقع في أكثر من ثلاثين جزءًا - ديوانًا في فقه المذهب الشافعي .. كما يمثل كتابه الصغير « أدب الدنيا والدين » كتابًا في الحكمة والأدب نادر المثال .

أما تراثه في القضاء : ومنه كتابه الفذ « أدب القاضي » ؛ فهو ذخيرة في تقاليد القضاء ، وفي تقنين فقه المعاملات .. وله في التفسير ، والنبوات ، والنحو آثار فكرية متميزة ..

أما تراثه في السياسة ، وفي الولايات والأحكام السلطانية : فعلامة بارزة على درب تطور هذا العلم في تراثنا الإسلامي .. فكتابه « الأحكام السلطانية والولايات الدينية » بداية لتميز هذا المبحث عن مباحث علم الكلام ، وفيه تقنين للتجربة الإسلامية في الأحكام السلطانية حتى عصر الماوردي .. وهو مع كتبه « نصيحة الملوك » و « تسهيل النظر » و « قوانين الوزارة وسياسة الملك » ذخيرة في الفكر السياسي الإسلامي ، النظري منه والتطبيقي .

وعلى الرغم من صغر حجم كتابه « أدب الدنيا والدين » إلا أنه واحد من « كتب الفكر » التي حوت « مذهب » صاحبه في « الإصلاح » .

ففيه يعلمنا الماوردي : أن الإنسان كائن اجتماعي .. وأن السلطة في الاجتماع الإنساني مدنية .. وأن للإصلاح ست قواعد ، هي : الدين المتبع .. والسلطان القاهر .. والعدل الشامل .. والأمن العام .. والخصب الدّار .. والأمل الفسيح ..

ولقد قدم لقواعد الإصلاح هذه التفاصيل التي جعلتها مذهبًا متكاملًا ومنهاجًا شاملًا في الإصلاح الاجتماعي [1] .

* * *

---

(١) [أدب الدنيا والدين] للماوردي – طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م . [مسلمون ثوار] للدكتور محمد عمارة – طبعة دار الشروق – القاهرة سنة ١٩٨٨م..

(٢١) أبو يَعْلى الفَرّاء

[٣٨٠ – ٤٥٨ هـ = ٩٩٠ – ١٠٦٦ م]

هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء .

ولد ببغداد ، وبها نشأ وتفقه .. واتصل بالخلفاء العباسيين وولي قضاء بغداد والحريم وحران وحلوان ، على عهد الخليفة القائم بأمر الله [٤٢٢ – ٤٦٧ هـ = ١٠٣١ – ١٠٧٥ م] .

وكان أبو يعلى إمام الحنابلة في عصره ، نبغ في الأصول ، والفقه ، والقرآن وعلومه ، والتاريخ ، وأصول الديانات ، والمذاهب والفرق ، وعلم الكلام .

وكان تقيًا يأخذ نفسه بما يعتقد ، فامتنع – رغم خدمته للدولة العباسية وخلفائها – عن المشاركة في المواكب والاستقبالات وغشيان مجالس الخلفاء والولاة ، وقبل منه الخلفاء ذلك .

وكان معاصرًا للماوردي [٣٦٤ – ٤٥٠ هـ = ٩٧٤ – ١٠٥٨ م] الذي كان شافعي المذهب الفقهي .. ومعتزليًا في الأصول – ويرجح البعض أن كتاب الفراء « الأحكام السلطانية » هو ذات كتاب الماوردي – الذي يحمل ذات العنوان – وأن الفراء قد « تبناه » مع إضافات وتعديلات طفيفة ! .

ومن آثاره الفكرية : « الكفاية في أصول الفقه » و « أحكام

القرآن » و « أربع مقدمات في أصول الديانات » و « تبرئة معاوية » و « المجرد » – في الفقه الحنبلي – وردود على الأشعرية والكرامية والسالمية والمجسمة ، وغيرها من الفرق [1] ! ..

* * *

(١) [تاريخ بغداد] للخطيب البغدادي – طبعة القاهرة الأولى .

(٢٢) إمام الحرَمَين الجُوَيني

[٤١٩ - ٤٧٨ هـ = ١٠٢٨ - ١٠٨٥ م]

هو إمام الحرمين ، أبو المعالي ، ركن الدين ، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني .

عربي النسب ، من قبيلة طيئ . ولد في « جوين » - التي ينسب إليها - وهي من نواحي نيسابور - ببلاد فارس . وكان أبوه واحدًا من علمائها .. وعلى يديه تلقى العلم .. كما درس على أبي القاسم الإسفراييني .. وعلى البيهقي أحمد بن الحسين .. وعلى شيخ القراء الخبازي أبو عبد الله محمد بن علي .. وغيرهم من أعلام عصره ..

ولقد أُجلس الجويني للتدريس وهو ابن عشرين عامًا ، وذلك لنبوغه المبكر .. وللعقلية الناقدة التي تميز بها .. وكانت نيسابور ، في الصدر الأول من الحياة العلمية للجويني مسرحًا للفتن والصراعات بين السنة والشيعة والمعتزلة .. الأمر الذي اضطر الجويني إلى أن يرحل عنها ضمن من رحل من علماء أهل السنة والجماعة - الأشاعرة - .. فذهب إلى بغداد .. ومنها إلى مكة المكرمة حيث جاور بها أربع سنوات ، ومنها ذهب إلى المدينة المنورة .. ولأنه درّس فيهما وأفتى اشتهر بلقب « إمام الحرمين » .. ولما هدأت الفتنة في نيسابور عاد إليها ، ودامت إقامته بها - باستثناء زيارة لأصبهان - .. وفي نيسابور بنى له الوزير نظام الملك [٤٠٨ - ٤٨٥ هـ = ١٠١٨ -

١٠٩٢ م] « المدرسة النظامية » الشهيرة ، فجلس للتدريس بها ، وعنه أخذ العلم فيها أكابر العلماء .. ومنهم أبو حامد الغزالي .

ولقد تبوأ الجويني مكان الإمامة العلمية في علم الكلام ، حتى كان أحد ثلاثة : مع الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ، ١٠٥٨ - ١١١١ م] والباقلاني [٤٥٣ هـ = ١٠١٣ م] - طوروا المذهب الأشعري ، بعد مرحلة تأسيس الأشعري [٢٦٠ - ٣٢٤ هـ = ٨٧٤ - ٩٣٦ م] لقواعده .. وفي أصول الفقه .. وفي فقه المذهب الشافعي .. كما كان له خوض في علوم الصوفية ومجاهداتهم ..

ولقد زادت مؤلفاته على الأربعين .. منها في أصول الفقه : « البرهان » و « الورقات » و « التحفة » ..

وفي الفقه : « نهاية المطلب » و « مختصر النهاية » ..

وفي علم الكلام : « الإرشاد » و « الشامل » و « العقيدة النظامية » و « لمع الأدلة » ..

وفي الخلاف والجدل : « الأساليب » و « الكافية » و « الدرة المضية فيما وقع من خلاف بين الشافعية والحنفية » .

وفي التفسير : « تفسير القرآن الكريم » و

وفي الحديث : « الأربعون حديثًا المختارة » .

وله في الإمامة والولايات والسياسة : كتابه الفذ « غياث الأمم والتياث الظُّلَم » .

ورغم أن الحنابلة قد هاجموه ، متهمين إياه بالاشتغال

بالفلسفة ، ومدعين عليه دعاوى لو صحت لكانت كفرًا وإلحادًا .. إلا أن حياته العلمية وآثاره الفكرية شاهدتان على ورعه ووسطيته واعتداله ، كأحد أعلام الأشعرية الذين يمثلون جمهور أهل السنة والجماعة .

لكن الرجل كان - كتلميذه الغزالي - صاحب تجربة في معاناة الحيرة بين مسالك العلماء لتحصيل اليقين الإيماني ، الذي يبلغ في الرسوخ - عبر النظر والاجتهاد - يقين العجائز المقلدين ! .. ولقد عبر عن معاناته في رحلته الفكرية هذه بالعبارة - التي ينقلها عنه السبكي [٧٢٧ - ٧٧١هـ = ١٣٢٧ - ١٣٧٠م] في « طبقات الشافعية » - والتي يقول فيها : « لقد قرأت خمسين ألفًا في خمسين ألفًا ، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة وركبت البحر الخضم ، وغصت في الذي نهى الإسلام عنه ، كل ذلك في طلب الحق ، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد ، والآن قد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز » ! .

وعندما توفي الجويني ، كان له أربعمائة تلميذ يحضرون حلقة علمه في نيسابور ، فكسروا محابرهم وأقلامهم ، وأخذوا يطوفون الشوارع باكين .. واستمر حدادهم هذا وإضرابهم عن طلب العلم على سواه حولًا كاملًا [1] ! .

(١) [لمع الأدلة] للجويني ، تقديم وتحقيق : دكتوره فوقية حسين محمود ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م ، و [الغياثي - غياث الأمم في التياث الظلم] =

(٢٣) الشَّهرستاني

[٤٧٩ - ٥٤٨ هـ = ١٠٨٦ - ١١٥٣ م]

هو أبو الفتح ، محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني .

ولد في « شهرستان » - التي ينسب إليها - وهي من مدن فارس - بين نيسابور وخوارزم - ونشأ بها ، وتعلم ونبغ فيها .. ثم انتقل إلى بغداد سنة (٥١٠ هـ) ، فأقام بها ثلاث سنوات ، عاد بعدها ليستقر في شهرستان بقية حياته .

ولقد نبغ الشهرستاني في الفلسفة ، حتى عد من فلاسفة المسلمين .. وفي علم الكلام ، حتى عد من أئمة هذا العلم .. وكان فيه واحدًا من متكلمي الأشاعرة ، الذين يمثلون وسطية الأمة وجمهورها في مذاهب الكلام .. وكذلك اشتهر بالفقه ، على مذهب الشافعي ، فكان واحدًا من الفقهاء المبرزين .

ولأن الإسلام - ومن ثم فكره وحضارته - قد جعل من « التعددية » في الشرائع سنة من سنن الله في الاجتماع الديني ، الأمر الذي تجسد في تعددية الملل والنحل في الدولة الإسلامية ، تميزت الحياة الفكرية الإسلامية بفن التأليف في الملل والمذاهب

= للجويني - تحقيق وتقديم : د. عبد العظيم الديب . طبعة الدوحة سنة ١٤٠٠هـ و [طبقات الشافعية] لأبي بكر بن هداية الله الحسيني . تحقيق : عادل نويهض . طبعة بيروت سنة ١٩٧١م ، و [الأعلام] لخير الدين الزركلي . طبعة بيروت .

والنحل .. وكان الشهرستاني أبرز علماء الإسلام الذين ألفوا في هذا الفن ببلاد الشرق الإسلامي - كما كان ابن حزم الأندلسي [٣٨٤ - ٤٥٦ هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤ م] أبرز المؤلفين فيه ببلاد الغرب الإسلامي .. ويعد كتاب الشهرستاني « الملل والنحل » من أهم وأدق وأوفى المصادر الفكرية في هذا الميدان .

كما يعد كتابه « نهاية الأقدام في علم الكلام » تجسيدًا دقيقًا لمعنى عنوانه ! .. يشهد على علو كعبه بين المتكلمين المسلمين .

كذلك تشهد العناوين الأخرى لمؤلفات الشهرستاني على رسوخ قدمه كفيلسوف .. بل وعلى موسوعيته التي أحاطت بكثير من علوم عصره وفنون زمانه .. فمن هذه المؤلفات - غير « الملل والنحل » و « نهاية الإقدام في علم الكلام » - : « الإرشاد إلى عقائد العباد » و « تلخيص الأقسام إلى مذاهب الأنام » و « مصارعات الفلاسفة » و « تاريخ الحكماء » و « المبدأ والمعاد » و « تفسير سورة يوسف » - بأسلوب فلسفي و « المناهج » و « البينات » و « كتاب المضارعة » .

وعلى الرغم من إمامة الشهرستاني في الفلسفة وعلم الكلام ، إلا أنه ككثير من علماء الإسلام ، كانوا يوظفون الفلسفة في دعم اليقين الإيماني .. فالمطلب والمقصد كان اليقين ، الذي رأوا نموذجه في « إيمان العجائز » أو « دين العجائز » - حسب تعبير الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ =

١٠٥٨ - ١١١١ م] والشهرستاني - ! .. لقد أرادوا يقين إيمان العجائز ودينهم ، لا بواسطة « التقليد » ، وإنما بواسطة عقلانية الفلاسفة الإلهيين ومتكلمي المسلمين .. وعن هذه الحقيقة عبر الشهرستاني في مقدمته لكتابه « نهاية الإقدام في علم الكلام » -- بعد أن تمثل ببيتين من الشعر لابن سينا [٣٧٠ - ٤٢٨ هـ = ٩٨٠ - ١٠٣٧ م] يقول فيهما :

لقد طفت في تلك المعاهد كلها … وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعًا كف حائر … على ذقن أو قارعًا سِنَّ نادم !

بعد أن ذكر الشهرستاني بيتي ابن سينا المعبران عن حيرة الذين طلبوا اليقين في الفلسفة بدلًا من توظيف الفلسفة لدعم اليقين بالإيمان الديني .. قال : « ... فعليكم بدين العجائز ، فهو من أسنى الجوائز ، وإذا كان لا طريق إلى المطلوب من المعرفة إلا الاستشهاد بالأفعال ، ولا شهادة للفعل إلا حيث احتياج الفطرة واضطرار الخلقة ، فحيثما كان العجز أشد كان اليقين أوفر وآكد ... » ! .

إنها منزلة « معرفة الإنسان » من « علم الدَّيَّان » ! .. والموقف الموضوعي والمتواضع لأئمة فلاسفة الإسلام [١] ! ..

(١) [مفتاح السعادة ومصباح السيادة] لطاش كبرى زاده . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م ، و [نهاية الإقدام في علم الكلام] للشهرستاني . تحقيق : ألفريد جيوم ، و [الأعلام] لخير الدين الزركلي - طبعة بيروت .

(٢٤) البَيهقي

[٤٩٩ - ٥٦٥ هـ = ١١٠٦ - ١١٧٠ م]

هو أبو الحسن ، ظهير الدين ، ابن فندق : علي بن زيد بن محمد بن الحسين البيهقي .

ونسبته إلى « بيهق » - من أعمال نيسابور - ببلاد فارس - التي ينسب إليها أعلام آخرون ، منهم البيهقي المحدث [٣٨٤ - ٤٥٨ هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٦ م] والبيهقي الأديب [٤٧٠ - ٥٤٤ هـ = ١٠٧٧ - ١١٥٠م] .

ولقد ولد البيهقي الحكيم في قصبة السابزوار من نواحي بيهق - .. وفي بيهق درس علوم اللغة العربية ، والقرآن الكريم ، والمنطق .. ثم درس في مرو وفي الرى علوم الحساب والجبر والمقابلة .. ومنها عاد إلى نيسابور .. وأجاد - مع العربية - الفارسية والسريانية .

وإلى جانب علوم الحكمة والتاريخ برز في الحساب والفلك والرياضيات وفي الطب .. وكان كذلك شاعرًا مرموقًا .. لكن الاشتغال بالحكمة وعلومها كان أبرز ما اشتهر به وبرز فيه .

وفي تعداد آثاره الفكرية خلاف يسير .. فهي عند ياقوت الحموي [٥٧٤ - ٦٢٦ هـ = ١١٧٨ - ١٢٢٩ م] في « معجم الأدباء » ثلاثة وسبعون مصنفًا .. وعند العاملي [١٢٨٤ - ١٣٧١ هـ = ١٨٦٧ - ١٩٥٢ م] - في « أعيان

الشيعة » ثمانية وسبعون ..

ومن هذه المصنفات : « تتمة دمية القصر » و « مشارب التجارب وغرائب الغرائب » – في التاريخ ، و « تاريخ حكماء الإسلام » أو « تتمة حيوان الحكمة » و « تفاسير العقاقير » و « أمثلة الأعمال النجومية » و « أسرار الحكم » – في الحكمة – و « شرح نهج البلاغة » و « كتاب السموم » و « أحكام القرآن » و « تاريخ بيهق » و « إعجاز القرآن » و « المختصر من الفرائض » و « أصول الفقه » و « شرح مشكلات المقامات الحريرية » و « الأمانة في شرح الإشارات » و « شرح الحماسة » و « تعليقات فصول بقراط » .

وهي شاهدة على موسوعيته التي استوعبت علوم عصره .. من الحكمة .. إلى الطب .. إلى الأدب .. إلى الفقه .. إلى الأصول .. إلى التاريخ [1] ..

* * *

(١) [تاريخ الآداب العربية] لبروكلمان ، و [الأعلام] لخير الدين الزركلي ، طبعة بيروت ، و [دائرة المعارف الإسلامية] .

(٢٥) ابن رُشد

[٥٢٠ – ٥٩٥ هـ = ١١٢٦ – ١١٩٨ م]

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد ابن رشد [٥٢٠ – ٥٩٥ هـ = ١١٢٦ – ١١٩٨ م] .. واحد من أعظم فلاسفة الإسلام ، وأبرز المتكلمين المسلمين ، ومن كبار فقهاء المذهب المالكي ، الذين أحاطوا بالفقه المقارن لمذاهب الفقه الإسلامي .. وعلم من أعلام الطب – تأليفًا وممارسة – في الحضارة الإسلامية .. والقاضي الذي بلغ منصب قاضي قضاة « قرطبة » – وهو يماثل « وزير العدل » في عصرنا الحديث .

ولد ابن رشد – الذي يميزونه بـ « الحفيد » – في « قرطبة » ، ببلاد الأندلس ، لأسرة عريقة في العلم والفقه والقضاء والسياسة والإدارة ، ودرس الطب والفلسفة على أعلام عصره ، ومنهم : أبو جعفر هارون .. وأبو مروان بن جربول البلنسي .. وابن باجة .. وابن طفيل .

وتولى القضاء في « أشبيلية » سنة [٥٦٤ هـ = ١١٦٩م] .. ثم أصبح قاضي قضاة « قرطبة » سنة [٥٦٦ هـ = ١١٧١ م] ولقد شهدت حياة ابن رشد أواخر دولة المرابطين [٤٤٨ – ٥٤١ هـ = ١٠٥٦ – ١١٤٦ م] وأوائل عهد دولة الموحدين [٥٤١ – ٦٦٨ هـ = ١١٤٦ – ١٢٦٩ م] التي حكمت المغرب الكبير والأندلس .

وفي السادسة والثلاثين من عمره ، بدأ ابن رشد الكتابة والتأليف ، وقال الذين أرخوا لحياته : إنه لم يترك القراءة والكتابة - بقية عمره - إلا ليلتين اثنتين : ليلة زفافه وبنائه بزوجه ، وليلة وفاة أبيه ! .

وفي تاريخ الفلسفة ، اشتهر ابن رشد - على النطاق العالمي - بمشروعه لقراءة وفقه وشرح وضبط أعمال فيلسوف اليونان أرسطوطاليس [٣٨٤ = ٣٢٢ ق.م] .. ولقد بدأ ابن رشد هذا المشروع الفلسفي بمبادرة من الدولة ودعوة من السلطان «أبو يوسف يعقوب بن يوسف» [٥٥٥ - ٥٩٥هـ = ١١٦٠ - ١١٩٩ م] .. وبترشيح من الفيلسوف الطبيب ابن طفيل [٤٩٤ - ٥٨١ هـ = ١١٠٠ - ١١٨٥ م] .. فلقد كانت عبارات ترجمات أرسطو قلقة وغامضة .. فنهض ابن رشد بضبطها وشرحها ثلاثة أنواع من الشروح : المختصر .. والمتوسط .. والكبير .. حتى اشتهر عالميًا بالشارح الأكبر لأرسطو .. وكانت شروحه هذه هي الطريق الأوروبي لمعرفة الأوروبيين بتراث الأرسطية اليونانية .. ولما كان ابن رشد قد بدأ شروحه على أرسطو [٥٦٤هـ = ١١٦٩م] ، أي بعد أن تولى القضاء ، ونضج كمتكلم وفقيه ، فلقد ضمَّن شروحه لأرسطو الكثير من الانتقادات والعديد من الإضافات .

أما إبداعات ابن رشد في علم الكلام الإسلامي : فلقد تمثلت في آثاره الفكرية : «تهافت التهافت» - الذي رد به

هجوم أبي حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ - ١١١١ م] على الفلاسفة القدماء .. و « مناهج الأدلة في عقائد الملة » - الذي حاكم فيه مناهج المتكلمين - وخاصة الأشاعرة - إلى ما رآه العقلانية القرآنية الجامعة بين الحكمة والشريعة - و « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » و « ضميمة في العلم الإلهي » - وهما - على صغر حجمهما - نصان نفيسان من نصوص « المنهج » في تراث الإسلام .

وفي هذه الآثار الكلامية والفلسفية يجسد ابن رشد مذهبه في التوفيق بين الحكمة - الفلسفة - وبين الشريعة - الوحي والدين - .

أما في الفقه : فله كتابه المتميز « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » الذي لم يجعله مجرد كتاب في الفقه المالكي ، وإنما جعل منه ميدانًا لفلسفة الفقه ، وتقعيدًا لأسباب اختلاف الفقهاء - كل الفقهاء ، من كل المذاهب - فجاء - إلى جانب كونه كتابًا هامًّا في الفقه المالكي - دراسة في الفقه الإسلامي المقارن ، يمثل الأفق الأعلى للباحث المقتصد ، الذي تليه آفاق المجتهدين ! .

ولابن رشد في الطب - غير موسوعته الشهيرة « الكليات » - أكثر من عشرين كتابًا .. ولقد قال مؤرخوه عن قدمه الراسخة في ميدان الطب : إنه كان يُفْزَعُ إلى فتواه في الطب كما يُفْزَعُ إلى فتواه في الفقه ! .. وذلك فضلًا عن

الفلسفة .. وعلم الكلام ..

أما إبداعاته السياسية : فلقد جعلها إضافات وتعليقات في ثنايا شروحه لأعمال أرسطو .

ولقد ألمت بابن رشد - بعد أن علا شأنه في ميدان الفكر والقضاء ، وفي بلاط السلطان - كطبيب وحكيم - في [٥٩١هـ = ١١٩٥ م] محنة لم تدم طويلًا ، أبعد فيها إلى مدينة « أليسانة » - على مقربة من « قرطبة » .. مع عدد من المشتغلين بالفلسفة .. ويبدو أنها كانت إرضاء من السلطان - الذي كان محبًا للفلسفة - لبعض الفقهاء .. لكن المحنة لم تدم طويلًا ، فعاد ابن رشد إلى بلاط السلطان كما كان طبيبًا خاصًا ، وفيلسوفًا مكرمًا .

وكانت وفاة ابن رشد [٥٩٥هـ = ١١٩٨م] بمراكش ؛ من بلاد المغرب ، وحمل جثمانه إلى الأندلس فدفن هناك .. ولقد شاهد ابن عربي [٥٦٠ - ٦٣٨هـ = ١١٦٥ - ١٢٤٠م] جثمان ابن رشد محمولًا على بعير .. الجثمان في ناحية ، وفي الناحية الأخرى كتبه وآثاره الفكرية ؛ حيث ووري الجسد التراب ، ولتظل آثاره الفكرية حية وفاعلة حتى الآن ، وإلى أن يشاء الله ..

ويذكر « ابن الأبَّار » [٥٩٥ - ٦٥٨هـ = ١١٩٩ - ١٢٦٠م] - وهو المولود عام وفاة ابن رشد - يذكر في الترجمة له سطورًا تجسد مكانته العلمية والخلقية وتعبر عن

إجازاته ، يقول فيها : « إنه كانت الدراية أغلب عليه من الرواية ، درس الفقه والأصول وعلم الكلام ، وغير ذلك . ولم ينشأ في الأندلس مثله كمالاً وعلمًا وفضلاً . وكان على شرفه ، أشد الناس تواضعًا وأخفضهم جناحًا . عُني بالعلم من صغره إلى كبره ، حتى حُكي عنه أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه وليلة بنائه على أهله ! . وأنه سوَّد فيما صنَّف وقيَّد وألَّف وهذَّب واختصر نحوًا من عشرة آلاف ورقة . ومال إلى علوم الأوائل ، فكانت له فيها الإمامة دون أهل عصره . وكان يُفْزَع إلى فتواه في الطب كما يُفْزَع إلى فتواه في الفقه ، مع الحظ الوافر من الإعراب والآداب ، حتى حُكي عنه أبو القاسم ابن الطيلسان : أنه كان يحفظ شعري حبيب - [أي أبو تمام] - والمتنبي ، ويكثر التمثيل بهما في مجلسه ، ويورد ذلك أحسن الإيراد .. » .

* * *

وإذا كانت الملكة الفلسفية - ملكة « الدراية » - قد غلبت على ابن رشد ، حتى لقد فلسف مختلف الفنون التي كتب فيها .. فإن التوفيق بين الحكمة - الفلسفة - وبين الشريعة - الوحي والدين - هو مفتاح فهم مشروعه الفكري والروح السارية في كل كتاباته .. ولذلك وجدناه يتخذ لنفسه موقفًا تميَّز به - في مواقف كثيرة - عن كثير من الفلاسفة وكثير من علماء الكلام المسلمين ..

● **ففي قضية الحرية الإنسانية** - التي اشتهرت بقضية الجبر والاختيار - والتي حدث فيها استقطاب بين القائلين بالجبرية - الصريحة المطلقة .. أو المغلفة المخففة - وبين القائلين بالتفويض والحرية للإنسان في خلق أفعاله .. وقف ابن رشد مع الحرية ، التي هي إباحة في العمل أو الترك ، مؤسسة على الإرادة الإنسانية ، والقدرة والاستطاعة .. لكنه رأى هذه الحرية وهذه الإرادة والقدرة والاستطاعة نسبية ، وليست مطلقة ؛ لأنها محكومة بعوامل وملابسات وتدخلات ليست من صنع الإنسان .. فهي أشبه ما تكون بحرية الحركة داخل المنزل ، يتحرك فيه الإنسان بإرادته الحرة كما يشاء ، لكن في حدود الجدران والنوافذ والأبواب ، التي لم يصنعها هو ، والتي لا يملك تغييرها ! .. وبعبارة ابن رشد ، التي عبر فيها عن هذه الحرية النسبية : « .. فالله ﷻ قد خلق لنا قوى نقدر بها أن نكتسب أشياء هي أضداد . لكن لما كان الاكتساب لتلك الأشياء ليس يتم لنا إلا بمواتاة الأسباب التي سخرها الله لنا من خارج ، وزوال العوائق عنها ، كانت الأفعال المنسوبة إلينا تتم بالأمرين جميعًا : بإرادتنا وموافقة الأفعال التي من خارج لها ، وهي المعبر عنها بقَدَر الله . وهذه الأسباب التي سخرها الله من خارج ليست هي متممة للأفعال التي نروم فعلها أو عائقة عنها فقط ، بل هي السبب في أن نريد أحد المتقابلين .. وليس يُلْفَى هذا الارتباط بين أفعالنا والأسباب التي من خارج فقط ، بل وبينها وبين الأسباب التي خلقها الله تعالى في داخل أبداننا ..

والنظام المحدود الذي في الأسباب الداخلة والخارجة ، هو القضاء والقدر الذي كتبه الله على عباده ، وهو اللوح المحفوظ » .

فالإنسان حر الإرادة ، وقادر على الفعل والترك ، بناء على إرادته - التي هي شوق للفعل أو الترك - لكن في حدود الأسباب التي ليست من صنعه ، وإنما هي من خلق الله ، سواء أكانت خارجية أو داخلية هذه الأسباب المخلوقة لله ﷻ .. أي أنه حر ، لكن منزلة حريته هي وسط بين الجبر المطلق وبين التفويض بإطلاق .

● وعلى حين انقسم الفكر الفلسفي إزاء « العالم » بين فلاسفة قالوا بقدم العالم ، على نحو يصرح أو يوهم بأن لا خالق لهذا العالم .. وبين متكلمين قالوا بحدوث العالم وخلقه من عدم ، بمعنى أنه قد كان بعد أن لم يكن على أي نحو من الوجود .. رأينا ابن رشد - في توفيقه بين الحكمة والشريعة - يكشف عن دور الغموض في مفاهيم مصطلحات « القدم » و « الحدوث » في قيام هذا الاستقطاب بين الفلاسفة والمتكلمين .. ويقدم لنا - انطلاقًا من تحرير مضامين هذه المصطلحات - تصورًا متميزًا ، يرى العالم فيه ليس مُحْدَثًا بإطلاق - مثل الأجسام - ولا قديمًا بإطلاق - مثل الذات الإلهية - وإنما فيه شبه من المُحْدَث وشبه من القديم ، وما الخلاف حول قِدَمِه أو حدوثه إلا بسبب النظرة الآحادية إلى ما فيه من شبه بالقديم المطلق أو شبه بالمحدَث بإطلاق .

يحل ابن رشد هذه « المعضلة » عندما يقول : « ... وأما مسألة قِدَم العالم ، وحدوثه : فإن الاختلاف فيها بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد أن يكون راجعًا للاختلاف في التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء .

وذلك أنهم اتفقوا على أن هاهنا ثلاثة أصناف من الموجودات : طرفان ، وواسطة بين الطرفين ، فاتفقوا في تسمية الطرفين ، واختلفوا في الواسطة :

فأما الطرف : فهو موجود وُجد من شيء غيره ، وعن شيء ، أعني عن سبب فاعل ، ومن مادة ، والزمان متقدم عليه ، أعني على وجوده ، وهذه هي الأجسام التي يُدْرَك تكوُّنها بالحس مثل تكوُّن الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات ، وغير ذلك . فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع ، من القدماء والأشعريين ، على تسميتها مُحْدَثة .

وأما الطرف المقابل لهذا : فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا عن شيء ، ولا تقدمه زمان . وهذا أيضًا اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديمًا . وهذا الموجود مُدْرَك بالبرهان ، وهو الله ﷻ الذي هو فاعل الكل وموجده والحافظ له ﷻ قدره .

وأما الصنف من الموجود الذي بين هذين الطرفين : فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شيء ، أعني عن فاعل ، وهذا هو العالم بأسره .. فهذا الموجود

قد أخذ شبهًا من الوجود الكائن الحقيقي ، ومن الوجود القديم ، فمن غَلّب ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المُحْدَث ؛ سماه قديمًا ، ومن غَلَّبَ عليه ما فيه من شبه المُحْدَث ؛ أسماه مُحْدثًا ، وهو في الحقيقة ليس مُحْدثًا حقيقيًا ولا قديمًا حقيقيًا . فإن المُحْدَث الحقيقي فاسد ضرورة ، والقديم الحقيقي ليس له علة .. » .

فهنا في هذه « المعضلة » الفكرية - يقدم ابن رشد مذهبًا جديدًا ، يحل الإشكال ، ويدعو الفرقاء المتقابلين والمتعارضين إلى كلمة سواء .

● وفي الخلاف الشهير بين الفلاسفة الذين وقفوا بعلم الله ﷻ عند علمه لذاته ، فأخرجوا العلم بالجزئيات في الموجودات والعالم عن نطاق العلم الإلهي .. وبين المتكلمين الذين تصوروا العلم الإلهي شاملاً للكليات والجزئيات جميعًا .. لفت ابن رشد الأنظار إلى زاوية أخرى للقضية يمكن أن تمثل أرضًا مشتركة وموقفًا جامعًا للفريقين كليهما .. ذلك أن العلم الإلهي - سواء أكان بالكليات أو بالجزئيات - هو علم مغاير كل المغايرة للعلم الإنساني ، فليست هناك مقارنة يمكن تصورها بين العلمين - الإلهي والإنساني - ذلك أن العلم الإلهي هو السبب في وجود الموجودات ، بينما العلم الإنساني هو انعكاس لهذه الموجودات ومُسَبَّب عنها ، يتطور بتطورها ويتغير بتغيرها .. فالقضية منفكة ، والخلاف في غير

موضوع ! . « .. ذلك أن علمنا معلول للمعلوم به ، فهو مُحْدَث بحدوثه ، ومتغير بتغيره ، وعلم الله سبحانه بالوجود على مقابل هذا ، فإنه علة المعلوم ، الذي هو الموجود ، فمن شبَّه العلمين أحدهما بالآخر فقد جعل ذوات المتقابلات وخواصها واحدة ، وذلك غاية الجهل .. فالعلم القديم إنما يتعلق بالموجودات على صفة غير الصفة التي يتعلق بها العلم المُحْدَث ، لا أنه غير متعلق أصلاً ..» .

فالمقابلة - الشهيرة .. وموضوع الجدل والخلاف - بين العلم بالكليات والعلم بالجزئيات ، لا محل لها .. وإنما المقابلة الحقيقية هي بين العلم الإلهي ، الذي هو سبب وجود الموجودات - وهو علم كلي ومحيط - وبين العلم الإنساني - النسبي - والذي هو ناشئ عن الموجودات ، متغير بتغيرها ومتطور بتطورها .

هكذا مثَّل ابن رشد عبقرية إسلامية كبرى ، ومذهبًا إسلاميًا في التوفيق بين الحكمة والشريعة بين الفلاسفة والمتكلمين .. عندما تسلح بالعقلانية الإسلامية المؤمنة ، فأبصر بها الأرض المشتركة عند مختلف الفرقاء المختلفين .

* * *

ولأن ابن رشد قد اشتهر بشروحه على أرسطو .. هذه الشروح التي راجت في أوربا إبان نهضتها رواجًا كبيرًا فلقد احتمى باسمه - في ذلك التاريخ - تيار فكري نسب إليه ما لم

يقل به ولم يدعه في مؤلفاته الفلسفية والكلامية .. ولقد عرف هذا التيار بتيار « الرشديين اللاتين » .. لكن الذين درسوا ابن رشد ، ووقفوا على حقيقة فكرة الإسلامي ، حتى من المستشرقين الكبار ، قد أدركوا زيف نسبة هذه « الرشدية اللاتينية » إلى فيلسوف « الرشدية الإسلامية » .. فقال إرنست رينان [١٨٢٣ - ١٨٩٢م] وهو أبرز دارسي ابن رشد من فلاسفة الغرب المحدثين : « إن القدر قد جرى بأن يكون ابن رشد ذريعة لانطلاق أشد الأحقاد اختلاقًا ، وأشد ضروب الصراع العقلي عنفًا ، كما جرى بأن يكون اسمه علمًا يخفق على تلك الآراء التي لم يفكر فيها مطلقًا على وجه التأكيد » !

وفي هذا المعنى يقول المستشرق الإسباني « أسين بلاسيوس » [١٨٧١ - ١٩٤٤ م] : « إن من الواجب أن نشير إلى تلك الفكرة الوهمية التي كان جميع المؤرخين ضحية لها . وهي أنهم متى وجدوا جماعة من « المدرسيين » الذين نطلق عليهم في العصور الوسطى ، وفي عصر النهضة ، اسم « الرشديين » ، فإنهم لا يترددون أن يلقوا على رأس ابن رشد كل النظريات التي تتميز بها هذه الجماعة .. » ! .

ففلسفة ابن رشد يجب أن نلتمسها في إبداعاته ، أكثر مما نلتمسها في شروحه على أرسطو .. وأن نحذر تحميله مسئولية الآراء التي قال بها « الرشديون اللاتين » ؛ لأن فارقا كبيرا بين

هذه « الرشدية اللاتينية » المزعومة ، وبين « الرشدية الإسلامية » التي أبدعها هذا الفقيه المتكلم الفيلسوف ؟

* * *

(٢٦) ابن عَرَبي

[٥٦٠ - ٦٣٨ هـ = ١١٦٥ - ١٢٤٠ م]

هو محيي الدين بن العربي - الذي اشتهر في المشرق بـ « ابن عربي » أبو بكر ، الحاتمي ، الطائي ، الأندلسي : محمد ابن علي بن محمد بن العربي [٥٦٠ - ٦٣٨ هـ = ١١٦٥ - ١٢٤٠ م] .

أشهر أقطاب التصوف الفلسفي في تاريخ الحضارة الإسلامية ، بل ربما في تاريخ التصوف الإنساني على الإطلاق .. ولذلك كان لقب « الشيخ الأكبر » علمًا عليه لدى العلماء والدارسين من كل الاتجاهات .

ولد ابن عربي في « مرسية » ، ببلاد الأندلس - أسبانيا حاليًا - في (١٧ رمضان سنة ٥٦٠ هـ = ٢٨ يوليو سنة ١١٦٥م) ثم انتقل منها إلى مدينة أشبيلية الأندلسية في سنة (٥٦٨هـ = ١١٧٢م) أي وهو في الثامنة من عمره .. وفي أشبيلية استقر حوالي الثلاثين عامًا ، درس فيها علوم الفقه والحديث .. ودرس كذلك في مدينة « سبتة » المغربية .

ومن الأندلس والمغرب شد ابن عربي رحاله إلى بلاد المشرق .. فنزل بتونس سنة (٥٩٠هـ = سنة ١١٩٤م) وبعد أن أقام بها ثماني سنوات غادرها إلى المشرق سنة (٥٩٨هـ = ١٢٠٢ م) فتنقل بين عواصمه وحواضره ومدنه .. مصر ، ثم

مكة .. وبغداد - التي زارها أكثر من مرة سنة (٦٠١هـ = ١٢٠٥م) و سنة (٦٠٨هـ = ١٢١١م) .. ثم عاد إلى مكة سنة (٦١١هـ = ١٢١٤م) .. ثم زار حلب .. والموصل .. وآسيا الصغرى .. إلى أن استقر به المقام في دمشق ، التي توفي بها في (ربيع الثاني سنة ٦٣٨ هـ = أكتوبر سنة ١٢٤٠م) .. حيث دفن السفح جبل قايسون .

ولقد برز ابن عربي في العديد من العلوم ، حتى قيل إنه من أئمة المتكلمين في كل علم .. وعرف عنه في أصول الفقه الميل إلى المذهب الظاهري .. مع إبطاله للتقليد .. لكن شهرته العظمى وأغلب مؤلفاته كانت في التصوف .. وفي التصوف الفلسفي خاصة .. وفيه نحا المنحى الباطني والعرفاني على وجه الخصوص .

وإذا كان الحلاج [٣٠٩هـ = ٩٢٢م] قد سبق ابن عربي إلى القول « بوحدة الوجود » ، فلقد كان ابن عربي المهندس الأعظم لهذه النظرية في تاريخ التصوف على الإطلاق .. فالوجود عنده خال من الثنائية الحقيقية - ثنائية الحق - الخالق - والخلق - والمخلوقات - إذ الوجود الحقيقي هو للحق وحده ، وما المخلوقات جميعًا إلا مظاهر لتجليات الخلق فيها .. وسبل الإدراك في نظرية المعرفة عند ابن عربي - كما هي عند « الباطنية - الغنوصية » ليست « العقل » ولا « النقل » ولا هما معًا .. وإنما هي أولًا وبالدرجة الأولى : « الذوق » و « العرفان » .

ومن كلمات ابن عربي - في أشهر كتبه « الفتوحات المكية » - والتي تعبر عنه مذهبه في وحدة الوجود : « سبحان من خلق الأشياء وهو عينها » ؟! .

ولقد صاغ هذا المعنى شعرًا عندما قال في كتابه « فصوص الحكم » :

يا خالق الأشياء في نفسه أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهي كونه فيك ، فأنت الضيق الواسع !

وبسبب من غموض مضامين مصطلحاته على كثير من سامعيه وقارئيه ودارسيه .. وبسبب من صعوبة مباحثه على غير الخاصة ، بل وخاصة الخاصة ، اختلف دارسوه في مراده من نظرية « وحدة الوجود » .. فالذين فسروها بـ « الوحدة المادية » كفروه ؛ لأن معنى ذلك : هو اتحاد الذات الإلهية أو حلولها في المخلوقات .. والذين نفوا أن يكون مراده « الوحدة المادية » - ومنهم جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] - شبهوا هذه الوحدة بظهور الشمس مثلًا ، في المرآة .. فهي تتجلى فيها ، دون أن يكون هناك اتحاد بها أو حلول فيها ؟! .

ولم يكن هذا الغموض سببًا ، فقط في اختلاف دارسي ابن عربي حول عقيدته .. بل لقد أثار عليه الغضب والهياج من قبل كثير من معاصريه .. ولقد حدث له أثناء مروره بمصر ، في

رحلته من المغرب إلى المشرق ، أن هاج عليه الفقهاء ، بسبب ما صدر عنه من « شطحات » ، فقبض عليه وسجن ، وكاد أن يكون مصيره كمصير الحلاج - الذي أعدم من قبل في بغداد - لولا أن سعى في خلاصه والإفراج عنه أحد أبناء مدينة بجاية : علي بن فتح البجائي .. فترك مصر ، وغادرها إلى بلاد المشرق ! .

ولقد لعب الصراع بين « الفقهاء » وبين « الصوفية » - وهو واحد من الصراعات البارزة في تاريخنا الحضاري - لعب دوره في الاتهامات التي وجهت إلى ابن عربي وإلى فلسفته .. ورغم أن ابن عربي لم يكن مفكرًا سياسيًا ، إلا أن أسبابًا سياسية قد صاحبت هذا الصراع بين الصوفية والفقهاء ، فأثرت فيه .. فالفقهاء كانوا على مقربة من « الدولة » و « السلطة » ، بينما الصوفية كانوا أقرب إلى العامة - حتى لقد كانوا يسمون بـ « الفقراء » ! .. والتصوف الفلسفي - والباطني الغنوصي منه بالذات - كان على علاقة وثيقة بالفكر الفارسي القديم ، وبالفكر الشيعي من بعده ، وهو الذي تبنته حركات المعارضة ضد الدولة العربية منذ ظهور الإسلام .. فكانت هناك علامات استفهام كبيرة حول صدق ولاء هؤلاء المتصوفة للدولة العربية وللشريعة ، التي يحرسها الفقهاء ! ..

* * *

وفي حالة ابن عربي .. كان هناك سبب سياسي آخر ،

للشك في الثمرات التي تأتي بها أفكاره ونظرياته ! .. فالرجل قد عاصر الغزوة الصليبية على بلاد الإسلام - وعلى حين وجدنا مفكرًا مثل ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] - والذي عاش في ظل هذا الخطر - يدرك واجب المفكر التاريخي عندما تتعرض أمته لغزوة ذات أبعاد حضارية ، فيبحث عن « الفروق » التي تميز أمته عن الغزاة ، وليس عن « الأشباه والنظائر » التي تجمع أمته بهؤلاء الغزاة ، وذلك حفاظًا على التميز الحضاري ، الذي يشحن وجدان الأمة بعوامل المقاومة ، ويحول بينها وبين تقليد الغازي ، مخافة الذوبان الحضاري ! .. على حين وجدنا ابن تيمية ينهج هذا النهج ، حتى لقد سعى لبلورة منطق إسلامي ، مستند إلى العربية وإلى عقيدة التوحيد ، في مقابل منطق أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م] - المرتبط باليونانية وبالوثنية .. وحتى لقد جعل من هذا النهج عنوانًا لأحد كتبه : « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم » ! .. فإننا نجد ابن عربي ، في ظل الخطر الصليبي والتتري ، يسلك النهج المضاد على طول الطريق ! .

فهو لا يدعو فقط إلى منهج « الأشباه والنظائر » في مقارنة الحضارة الإسلامية بالحضارة الغربية الغازية .. وإنما يسلك في النظر إلى العقائد الدينية وإلى الشرائع الدينية ، المنهج الذي « يذيب كل الفروق » .. وبالقطع فإن الذي سيستفيد من ذلك ، في لحظات الصراع الحضاري ، هم الغزاة الأقوياء

المتنصرون ! .. فكأنه - على جبهة الفكر - إنما ينزع سلاح المقاومة الفكرية من أمته التي تتعرض للعدوان ! ..

وعلى الرغم من أن التاريخ يذكر أن ابن عربي قد كتب إلى الحكام السلاجقة يحثهم على مجاهدة الصليبيين .. إلا أن التأثيرات الفكرية لمنهجه في العقائد ، ذلك الذي يقول بوحدة كل العقائد وكل الشرائع الدينية ، عقائد وشرائع الغزاة والمغزوين ، إنما كان يفت في عضد الأمة التي تنظر إلى الغزاة باعتبارهم الكفار الضالين ! .

لقد كان يبشر بمنهج يعتقد بكل العقائد ، فيذيب تميز عقيدة الإسلام الحقة ، عن عقيدة الغزاة الباطلة ، في لحظة الصراع .. فيقول :

عقد الخلائق في الإله عقائدًا وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه !

وفي الوقت الذي كانت تحتشد فيه العامة لجهاد الصليبيين تحت رايات التوحيد .. وفي مواجهة رايات الوثنية التترية والتثليث الصليبي كان ابن عربي يدعي أن جميع المعبودات متساوية .. وحقة .. وأن كل الكتب السماوية - حتى المحرف منها - متساوية .. وحقة !! فيقول :

قد كنت قبل اليوم أُنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلًا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني !

* * *

إن غموض مباحث ابن عربي ، واستعصاءها على كثير من الخاصة .. قد كان سببًا وراء نفور الفقهاء منه وهياج العامة ضده .. ويكفي أن نتأمل كلمات شيخ الطائفة الصوفية الجنيد [٢٩٧ هـ = ٩١٠ م] التي يقول فيها : « لا يبلغ أحد درجة الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق ! » .. يكفي أن نتأمل هذه الكلمات لنعلم ردود فعل الجمهور تجاه نظريات مثل تلك التي قال بها ابن عربي .

ولكن الأمر المؤكد أن منهجه الذي ارتبط بالغنوصية الباطنية كان لابد وأن يحيطه بعلامات استفهام في حقبة من الصراع الحضاري والمسلح وقفت فيه الباطنية أحيانًا موقف الخيانة ، كما حدث عند اقتحام التتار لبغداد [٦٥٦هـ = ١٢٥٨ م] ..

كما أن هذا المنهج ، الذي ينحي « الفروق » بين فكرية الأمة - في العقيدة والشريعة - وبين فكرية الغزاة .. ما كان يمكن إلا أن يكون ذا مردود سياسي سلبي ، فهو أشبه ما يكون بنزع سلاح الأمة الفكري في خضم صراعها مع الأعداء ! .

ولقد بلغت مؤلفات ابن عربي الأربعمائة .. وبقي منها مائة وخمسون .. أهمها وأجمعها لنظرياته « الفتوحات المكية »

و « فصوص الحكم » .. وهو في أسلوبه « فنان » يبلغ الذروة في عوالم الخيال [1] .

* * *

(١) [الفتوحات المكية] لابن عربي – طبعة القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ، و [فصوص الحكم] لابن عربي – تحقيق ودراسة : الدكتور أبو العلا عفيفي ، طبعة القاهرة .

(٢٧) العِزُّ بن عبد السلام

[٥٧٧ - ٦٦٠ هـ = ١١٨١ - ١٢٦٢ م]

هو أبو محمد ، عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام ، الشهير بـ « سلطان العلماء » و « شيخ الإسلام » .

ولد بدمشق ، وامتدت حياته من عصر صلاح الدين الأيوبي إلى عصر الظاهر بيبرس - في الدولتين الأيوبية والمملوكية - وكان شافعي المذهب الفقهي ، وأشعري المذهب الكلامي .. ولقد أخذ الفقه والأصول والحديث وغيرها من علوم الشريعة والعربية عن أعلام عصره ، وأصبح فيها أبرز مجتهدي عصره ، وتتلمذ عليه من بلغ مرتبة « شيخ الإسلام » - ابن دقيق العيد - .

وكان العصر عصر الاحتلال الصليبي لإمارات عربية في الشام .. وصراعات بين الأمراء والأيوبيين ، انحاز فيها والي دمشق « الصالح إسماعيل » إلى الصليبيين ضد سلطان مصر « الصالح نجم الدين أيوب » ، فتصدى له العز من على منبر الجامع الأموي بدمشق ، وهيج الأمة ضد خيانته .. فعزل عن الإفتاء والتدريس والخطابة .. واعتقل .. حتى اضطر إلى الهجرة إلى مصر ، فتولى فيها التدريس بالمدرسة الصالحية ، وتولى منصب الإفتاء بمصر ؛ إذ تنازل له عنه الشيخ عبد العظيم المنذري قائلاً : « كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه » ! .. وتولى الخطابة

والإمامة بجامع عمرو بن العاص ، والإشراف على عمارة المساجد بالدولة ، وقاضي القضاة بمصر والوجه القبلي .

ومع عظمة سلطان هذه المناصب التي تولاها العز بن عبد السلام ، فإن قيادته للعلماء وللعامة كانت أعظم الوظائف التي تولاها في عصره .. فكان سلطانه « كسلطان للعلماء » أعلى من سلطان « سلاطين الدولة » .. وعندما كان يغضب من السلطان ، فيخرج من القاهرة مهاجرًا ، يخرج السلطان في أثره ليسترضيه .. ولقد أُثرت عنه وقفته في وجه جور الأمراء المماليك ، حتى أفتى ببيعهم - لأنهم رقيق لدى الدولة - ووضع أثمانهم في خزائنها ! .

ومع شدته على أمراء عصره ، كان شديدًا على نفسه في تطبيق معايير العدل ؛ فلقد أفتى مرة بشيء ، ثم ظهر له أنه قد أخطأ في فتياه ، فأخذ ينادي بنفسه على نفسه في مصر والقاهرة ، فيقول : من أفتى له العز بن عبد السلام بكذا فلا يعمل به ؛ فإنه قد أخطأ ! .

وله معارك فكرية ضد أهل الجمود والتقليد ، وأهل الشعوذة والخرافة ؛ لا تقل عن معاركه ضد أمراء الجور وظلم السلاطين .

وعلى جبهة الصراع ضد الغزوة الصليبية تواصلت جهوده في مصر ، بعد هجرته إليها من الشام .. وكانت لجهوده هذه أبلغ الأثر في التعبئة التي حققت الانتصارات في معارك « عين جالوت » [٦٥٨ هـ = ١٢٦٠م] و « دمياط » [٦١٥ هـ =

١٢١٨م] و « المنصورة » [٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م] ضد الصليبيين ..

أما آثاره العلمية والفكرية : فإنها خالدة كمعلم من معالم التراث الإسلامي في الفقه والأصول ، والفتيا والقرآن والحديث وعلومهما .. ولقد بقي لنا من هذه الآثار الفكرية ثمانية عشر كتابًا .

ولقد بلغ من هيبة سلاطين الدولة لسلطان العلماء - العز بن عبد السلام - ورهبتهم منه الحد الذي جعل السلطان الفارس الظاهر بيبرس يقول عندما رأى جنازة العز تسير من تحت أسوار القلعة : « اليوم استقر أمري في الملك ! » [1] ..

* * *

(١) [طبقات الشافعية] للسبكي - طبعة القاهرة - الأولى ، و [مسلمون ثوار] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

(٢٨) ابن تَيمية

[٦٦١ - ٧٢٨ هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م]

هو شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي .

ولد في حران ، ونشأ بدمشق ، وبها نبغ فكان أبرز المجتهدين في عصره ، وأكثر العلماء الذين أثارت اجتهاداتهم جدلاً ، حتى استدعي إلى مصر بسبب بعض فتاواه المثيرة للجدل ، وزار الإسكندرية ، ثم عاد إلى دمشق ، وسجن أكثر من مرة ، حتى مات معتقلاً بقلعة دمشق .

وكان ابن تيمية سلفيًا ، يسير في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ = ٧٨٠ - ٨٥٥ م] لكنه كان مجتهدًا وليس بالمقلد ، بل لقد مثل في الفكر السلفي نهضة أعطت السلفية جرعة من العقلانية بتآليفه في المسائل الفلسفية ، سواء منها ردوده على الفكر اليوناني والمتأثرين به ، أو في البدائل الإسلامية التي حاول صياغتها - كما في جهوده لصياغة منطق خاص بالتوحيد الإسلامي واللغة العربية ، لما رأى من الارتباط بين المنطق والعقيدة واللغة ، الأمر الذي دعاه إلى رفض منطق أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م] كمنطق للإسلام ولغته .

ومع عبقرية ابن تيمية وعلو كعبه في الاجتهاد ، فلقد كان

نموذجًا للعالم الموسوعي الذي بلغ مرتبة الاجتهاد في عدد من العلوم والفنون .. في الإلهيات ، والفقه ، والسياسة ، والمنطق ، والقرآن وعلومه ، والحديث وفنونه ، ومقارنة الديانات والحضارات .

وكان عصر ابن تيمية « عصر أزمة » ، تعرضت فيها الأمة إلى ضغوط خارجية تمثلت في تحديات الهجمة التترية التي هددت وجودها .. وإلى أزمة داخلية تمثلت في الجمود والتقليد اللذين سادا في ظل عسكرة الدولة والمجتمع تحت حكم المماليك .. فجاء ابن تيمية بمثابة المشروع الإصلاحي المتكامل .. فكان على جبهة التحديات الخارجية داعية الجهاد الذي لا يقف عند الإفتاء بالجهاد ؛ وإنما الذي خاض بنفسه معارك القتال ضد التتر ، وأسهم كسياسي في حل مشكلات الأسرى وضبط العلاقات بين المسلمين وأعدائهم بضوابط السياسة الشرعية .. وفي مواجهة التحديات الداخلية - التي كان فيها ويكرسها التحدي الخارجي - كان تجديد ابن تيمية واجتهاده أكثر المشاريع الإصلاحية الفكرية تكاملًا في عصره ، حتى لقد مثل مع تلامذته ، وخاصة العلامة ابن القيم [٦٩١- ٧٥١ هـ = ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م] أهم معلم من معالم تجديد الفكر الإسلامي في ذلك التاريخ .

وللارتباط الذي كان قائمًا بين التحديات العسكرية والحضارية الخارجية ، وبين التحديات الفكرية الداخلية ،

اتسمت اجتهادات ابن تيمية بلون من التشدد لا يمكن فهمه إلا في ضوء تلك التحديات .. فلقد وضعت الأزمة الأمة في موقف الدفاع ، فكان منهاج البحث عن « الفروق » التي تميزها عن « الآخر » - الممثل للتحدي - صليبيًا وتتريًا - هو المنهاج الحافظ للأمة هويتها .. ولم يكن منهاج « الأشباه والنظائر » ، الذي يركز على المشترك مع « الآخر » هو المناسب في ظل تصاعد التحديات .. ولذلك فإن ما يبدو أحيانًا في فكر ابن تيمية من سمات تشدد اقتضته حدة التحديات ، هو ميزة له جعلت منه صاحب مشروع للإصلاح الفكري والتجدد الحضاري ، مثل : استجابة إيجابية لتحديات عصره ؛ فهو مفكر وافر الحظ من الوعي الحضاري ، وليس مجرد فقيه من الفقهاء .. والناظر في كون العديد من كتبه إنما هي « معارك فكرية » مع الآخرين يلمس هذه الحقيقة ، التي يغفل عنها ناقدوه .

لقد كان يبصر بعبقرية الفيلسوف السياسي والمجتهد في الفكر أهمية ترتيب الأولويات في مواجهة التحديات - فجاهد مع « الدولة » المملوكية بسيفه ، ودعم سلطانها بفتاواه ، في ذات الوقت الذي اضطهدته فيه حتى لقد مات في سجونها ؛ وذلك إدراكًا منه لما هو الخطر الرئيسي والتحدي القاتل - التتر - الذي كان يهدد الوجود الإسلامي بالفناء ! .. وعلى هذا المنوال كانت مواقفه ومعاركه ضد خصومه الكثيرين .

ولقد ترك لنا ابن تيمية تراثًا فكريًا غنيًا جدد به الفقه ،

والعقلانية الإسلامية ، كما ترك مجلدات من الفتاوى التي مثلت مرآة العصر الذي عاش فيه .. ولا يزال من أكثر أصحاب المشاريع التجديدية التراثية تأثيرا في فكرنا الحديث والمعاصر ، بل وإثارة للجدل أيضًا [1] !.

* * *

(١) [ابن تيمية] للدكتور محمد يوسف موسى - طبعة أعلام العرب - القاهرة سنة ١٩٧٧ م ، و [ابن تيمية] للشيخ محمد أبو زهرة - طبعة دار الفكر العربي - القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

(٢٩) ابن الوزير

[٧٧٥ - ٨٤٠ هـ = ١٣٧٣ - ١٤٣٦ م]

هو أبو عبد الله ، عز الدين ، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المنصور - الشهير بابن الوزير ، اليمني [٧٧٥ - ٨٤٠ هـ = ١٣٧٣ - ١٤٣٦ م] - من آل الوزير - وهم بيت من أشهر بيوت العلم في اليمن .. يصل نسبه إلى الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسن [٢٤٥ - ٢٩٨ هـ = ٨٥٩ - ٩١١م] مؤسس الدولة الزيدية باليمن .. ولد بهجرة الظهران ، باليمن ، في (رجب سنه ٧٧٥هـ = ديسمبر سنة ١٣٧٣م) .

نشأ في محيط علمي .. وفى عصر تميزت فيه اليمن بكثرة العلماء الأعلام .. فأبوه صارم الدين ، إبراهيم بن على [٧٨٢هـ = ١٢٨٠م] من كبار علماء المذهب الزيدي .. وكذلك أخوه ، الذى تولى تعليمه ، الهادي بن إبراهيم [٨٨٢هـ = ١٤٧٧م] .

أما معاصروه ، فمنهم : الهادي بن يحيى .. والناصر بن أحمد بن المطهر .. ونفيس الدين بن سليمان العلوي .. والسيد الوزير بن المرتضى .. ومحمد بن علي .. كما كان معاصرًا لمقدمي علماء اليمن وفقهائها الإمام أحمد بن يحيى بن المرتضى [٧٦٣ - ٨٤٠هـ = ١٣٦٢ - ١٤٣٧م]

ولقد أتيحت لابن الوزير ، إبان تلقيه العلم وتكوينه الفكري

فرصة تركت آثارها في توجهه ومذهبه وموقعه الفكري .. فلقد درس على عديد من أبرز علماء عصره ، ذوى الاتجاهات المذهبية المتعددة ، وليس فقط على علماء المذهب الزيدي .. بل وليس فقط على العلماء اليمنيين ! .

فغير علماء الزيدية : درس بمكة على قاضي قضاة الشافعية بالحرم المكي محمد بن عبد الله بن أبي ظهيرة .. وعلى الشيخ محمد بن الخير القرشي ، الشافعي .. والشيخ محمد بن أحمد الطبري .. والشيخ أبو اليمن ، محمد بن أحمد بن ابراهيم ، الشافعي .. والشيخ ابن مسعود الأنصاري ، المالكي .. وغيرهم كثيرون ، درس عليهم علوم العربية ، والفقه ، والحديث ، وعلم الكلام ، وغيرها من العلوم .

ومنذ مطلع حياته العلمية برزت نزعته إلى الاستقلال الفكري ، والتحرر من التزمت المذهبي ، والنزوع إلى الاجتهاد والتجديد ، ورفض الجمود والتقليد .. وعندما اقترح عليه أستاذه ، قاضي قضاة الشافعية بالحرم المكي محمد بن عبد الله ابن أبي ظهيرة ، أن يقلد مذهب الإمام الشافعي محمد بن إدريس [١٥٠ - ٢٠٤ هـ = ٧٦٧ - ٨٢٠ م] كان جوابه : لو كان يجوز لي التقليد لم أعدل عن تقليد جدي الهادي يحيى بن الحسين ، والقاسم الرسي ؛ إذ هما أولى بالتقليد من غيرهما ! .

وعلى حين كانت توجهات علماء الزيدية تتراوح بين الالتزام

بالمذهب .. أو المزج بين فقه الزيدية وأصول المعتزلة الخمسة .. فإن ابن الوزير قد مثل توجهًا جديدًا ومتميزًا في هذه التوجهات ؛ إذ انفتح ابن الوزير على علماء السنة ومذاهبها ، وبخاصة أهل السلف منهم ورجالات الحديث ، وذلك دون أن يتخلى عن الإطار العام للزيدية ، فكأنه قد مثل خروجًا على المذهبية الضيقة ، ونحا نحو احتضان الحق من أي اتجاه مذهبي جاء .. وكان عنوان كتابه المتميز « إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق في أصول التوحيد » - وكذلك موضوعاته - تجسيدًا لهذا التوجه الهام والجديد ! .

وإذا كان ابن الوزير لم يفرد للفكر السياسي مكانًا خاصًا في مؤلفاته ، التي بلغت العشرين .. فإننا نجد من بين هذه المؤلفات ذلك الكتاب الذي انتقد فيه أساليب الفكر اليوناني في الوصول إلى الحقيقة ، وقارن بين هذه الأساليب اليونانية وبين الأساليب القرآنية في الاستدلال والاحتجاج .. وهو الكتاب الذي أسماه « ترجيح أساليب القرآن لأهل الإيمان على أساليب اليونان ، في أصول الأديان » .. ففي هذا الكتاب - الذي أضاف له تكملة - نجد عملًا فكريًا هو أشبه ما يكون بنقد « المشروع الفكري اليوناني » وتقديم « البديل القرآني » .. فهو في الفلسفة الحضارية ، وتحرير العقل المسلم من هيمنة الفكر اليوناني ، معلم من المعالم التي تستحق الانتباه .

لقد أبدع ابن الوزير أعمالًا فكرية ، تميزت بقدر ملحوظ من

الاجتهاد والتجديد .. وترك لنا آثارًا هامة في علم الكلام .. ومصطلح الحديث .. والتاريخ .. والنقد الأدبي .. والتفسير .. كما كان أديبًا وشاعرًا ، جُمع شعره في ديوان .. كما كتب في التصوف ، وكانت له فيه تجربة أواخر حياته .

وإذا كان قد رفض دعوة أستاذه قاضي قضاة الشافعية كي يقدر مذهب الإمام الشافعي ؛ فإنه قد رد على شيخه الزيدي السيد علي بن محمد بن أبي القاسم - الملقب بجمال الدين - عندما تحامل على أهل السنة .. رد عليه بكتاب من أهم كتبه « العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم » .. فكان نموذجًا لتحري الدقة والإنصاف ! .

وكانت وفاته يوم الثلاثاء [٢٤ محرم سنة ٨٤٠ هـ = أغسطس ١٤٣٦م] [1] .

* * *

(١) [الزيدية] للدكتور أحمد محمود صبحي - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م ؛ و [ابن الوزير اليمني ومنهجه الكلامي] لرزق الحجر - طبعة السعودية سنة ١٩٨٤م .

(٣٠) ابن المُرْتَضَى

[٧٦٣ - ٨٤٠ هـ = ١٣٦٢ - ١٤٣٧ م]

هو المهدي لدين الله ، أحمد بن يحيى المرتضى بن أحمد بن المرتضى بن المفضل بن منصور بن المفضل بن عبد الله بن علي ابن القاسم بن يحيى بن الناصر أحمد بن الهادي إلى الحق يحيى ابن الحسين [٧٦٣ - ٨٤٠ هـ = ١٣٦٢ - ١٤٣٧ م] ..

واحد من أئمة الدولة الزيدية باليمن - إذ تولاها لمدة عام - لكنه أبرز فقهاء المذهب الزيدي ؛ إذ يرجع الناس إلى كتبه في الفقه حتى هذه الأيام .

ولد في « ذمار » ، باليمن ، جنوبي صنعاء .. وقبل أن يبلغ الخامسة توفي والده ، فاحتضنته أخته دهماء [٨٢٧هـ = ١٤٢٤م] وكانت مبرزة في العلم الإسلامي - ولها شرح على أهم كتبه في الفقه « عيون الأزهار في فقه الأئمة الأطهار » .. ومؤلفات في الفقه والكلام والأصول ! ..

ولقد أخذ العلم عن علماء اليمن في عصره ، ومنهم أخوه : الهادي بن يحيى .. وخاله : علي بن محمد بن علي .. والقاضي محمد بن يحيى المرحجي - الذي أخذ عنه المنطق وأصول الفقه - والقاضي علي بن أبي الخير - الذي أخذ عنه أصول المعتزلة - .. وعلى بن صلاح .. وابن النساج .. والإمام الزيدي الناصر صلاح الدين .. وغيرهم من العلماء .

وعند موت الإمام الناصر صلاح الدين [٧٣٩ - ٧٩٣هـ = ١٣٣٨ - ١٣٩١ م] اختلف الناس فيمن يبايعون له بالإمامة .. فاختار العلماء ابن المرتضى فبايعوه بالإمامة سنة [٧٩٣هـ = ١٣٩١ م] .. بينما اختار الوزراء للإمامة المنصور علي بن صلاح الدين - ابن الإمام السابق - فبايعوه بها في ذات اليوم الذي بويع فيه ابن المرتضى ! .. واستمر النزاع بين الفريقين عامًا .. وفي سنة (٧٩٤هـ = سنة ١٠٨٠م) - تغلب المنصور علي بن صلاح الدين على المهدي لدين الله أحمد بن يحيى ، فعزله ، وأودعه سجن قصر صنعاء ، فظل سجينًا أربع سنوات .. حتى تشفع فيه نفر من العلماء ، منهم الهادي بن إبراهيم الوزير ، الذي كتب إلى الإمام المنصور قصيدة يتحدث فيها عن فضل ابن المرتضى ، وتشفع له ، فقال فيها :

فقلت له فداك أبي وأمي تلطف بالقرابة والرحامة

فإن السيد المهدي منكم بمنزلة تحق لها الفخامة !

فأفرج عنه .. ليعكف على التأليف والتصنيف والتدريس والحياة الفكرية بقية عمره .

ويبدو أن ابن المرتضى كان مؤهلًا للإنتاج العلمي أكثر مما كان طموحًا لممارسة الحكم والإمامة .. فحتى سنوات سجنه قد صرفها لتأليف أهم كتبه الفقهية « عيون الأزهار في فقه الأئمة الأطهار » .. ومن بين كتبه - التي تقترب من الأربعين كتابًا - وكثير منها في عدة مجلدات - يحظى الفقه وأصوله

بالنصيب الأوفر .. ثم علم الكلام .. مع نصيب للحديث .. والمنطق .. والنحو .. والتاريخ .. والزهد .

ولقد كان ابن المرتضى ، في الفقه زيديًا ، واصل مسيرة الفقه الزيدي ، التي بدأت بإمامهم الأول زيد بن علي بن الحسين [٧٩ - ١٢٢ هـ = ٦٩٨ - ٧٤٠ م] وبجده ، ومؤسس دولتهم باليمن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين [٢٤٥ - ٢٩٨ هـ = ٨٥٩ - ٩١١ م] .

أما في علم الكلام وأصول الدين : فلقد كان - كتيار عريض في الزيدية - على مذهب الاعتزال .. اللهم إلا في قضية الإمامة ، التي يتميز فيها الموقف الزيدي تميزًا محدودًا عن مذهب المعتزلة فيها ..

● فهو يتولى أبا بكر وعمر .. مع تفضيله عليًا على أبي بكر .

وقوله بجواز تقديم إمامه المفضول على الأفضل لاعتبارات سياسية وعملية ! .

وقوله بتأول الصحابة تأويلًا خاطئًا ، لا يقدح في إسلامهم ولا في فضلهم ! .. ويتوقف في عثمان بن عفان ، بعد الأحداث التي حدثت في السنوات الأخيرة من حكمه ! .

● وهو يحكم بالخطأ - القريب من الفسق - على من حارب علي بن أبي طالب في « موقعة الجمل » .. ويقول : إنهم قد تابوا بعدها ! ..

● ويقول بفسق معاوية بن أبي سفيان [٢٠ ق.هـ - ٦٠هـ = ٦٠٣ - ٦٨٠ م] ويتبرأ منه !.

● والنص على الأئمة عنده خاص بعلي والحسن والحسين.. وبعد ذلك لا نص ولا عصمة في الأئمة.

وفي تصنيف ابن المرتضى لتيارات الفكر ومدارسه ومذاهبه، بكتابه المتميز «الملل والنحل» وبشرحه «المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل».. ميز بين «الفرق الكفرية».. و«الفرق الكتابية».. و«الفرق الإسلامية».

والفرق الإسلامية عنده ست فرق: الشيعة - وفيها الإمامية.. والزيدية.. والباطنية.. والخوارج.. والمعتزلة.. والمرجئة - وألحق بها المجبرة.. والكلابية.. والأشعرية.. والكرامية -.. والعامة - أهل التقليد -.. والحشوية - أهل الجبر والتشبيه - ويلحق بهم: الحنابلة والظاهرية -..

وإلى جانب التأليف والتصنيف مارس ابن المرتضى التدريس، فكان يتنقل لذلك بين مختلف مدن اليمن.

أما الأصول الخمسة، التي هي جماع مذهبه، فلقد صاغها على هذا النحو:

١ - وجود القديم المحْدِث بلا معاني - [أي أصل: التوحيد] -.

٢ - والمنزلة بين المنزلتين [أي أن مرتكب الكبيرة: فاسق،

في منزلة وسط بين الكفر والإيمان] .

٣ - وأن فعل العبد غير مخلوق فيه [أي أن العبد حر مختار ، خالق لأفعاله] .

٤ - وتولي الصحابة ، والاختلاف في عثمان بعد الأحداث ، والبراءة من معاوية ومن عمرو بن العاص .

٥ - ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولقد توفي ابن المرتضى ببلدة الظفير ، بجبل حجة ، في غربي صنعاء .. ودفن هناك [1] ! .

* * *

(١) [الزيدية] للدكتور أحمد محمود صبحي ، طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م ، و [رسائل العدل والتوحيد] دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧م ، و [تيارات الفكر الإسلامي] للدكتور محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .

(٣١) ابن عبد الوهاب

[١١١٥ - ١٢٠٦ هـ = ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م]

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي ، شيخ الدعوة التجديدية السلفية ، الذي تنسب إليه [الوهابية] بشبه الجزيرة العربية ..

ولد ونشأ في « العيينة » - بنجد ، ورحل إلى الحجاز والبصرة .. وتعلم بالمدينة المنورة .. ثم استقر بنجد - في « حريملاء » حيث كان والده قاضيها - ومنها انتقل إلى مسقط رأسه « العيينة » داعيًا إلى مذهب السلف - مدرسة أهل الحديث - مركِّزًا دعوته على تطهير عقيدة التوحيد مما شابها من تصورات وبدع وأوهام .. وبعد حقبة من التعاون مع أمير « العيينة » - عثمان بن حمد بن معمر - تخلى الأمير عن دعوة الشيخ .. فغادرها إلى « الدرعية » حيث تحالف مع أميرها محمد بن سعود .. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الدعوة السلفية مذهب الدولة السعودية .. فوضع الأمير محمد بن سعود قوة إمارته في خدمة الدعوة ، وخاض المعارك ضد القبائل الرافضة لها ، وكان ابن عبد الوهاب رجل الدعوة ، بل وفي طليعة جيش الإمارة التي اتسعت حدودها فشملت شرق الجزيرة وأجزاء من اليمن ومكة والمدينة والحجاز ..

ولقد استمر أمراء آل سعود - عبد العزيز بن محمد ..

وسعود بن عبد العزيز - في دعم الشيخ ابن عبد الوهاب ، والعمل على نشر دعوته ، واتخاذها مذهب الإمارة .

ويعد ابن عبد الوهاب أهم من انتقل بالتجديد الإسلامي ، في العصر الحديث ، من إطار التجديد الفردي والمشروع الفكري إلى إطار « الدعوة » التي اتخذت لها « دولة » تحميها وتقاتل في سبيل نشرها ، الأمر الذي جعل لدعوته من التأثير والاستمرارية ما لم تحظ بهما دعوات تجديدية أخرى ربما كانت أرسخ منها قدمًا في فكر التجديد .

ولقد كان تجديد الشيخ ابن عبد الوهاب واجتهاده اختيارًا في إطار المذهب الحنبلي ، واستدعاء لنصوص ومقولات أعلامه - وخاصة منهم مؤسس المذهب الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١هـ = ٧٨٠ - ٨٥٥ م] وشيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] - أكثر مما كان « إبداعا » فكريًا مبتكرًا وجديدًا .. كان اجتهاد اختيارات في إطار المذهب ، استدعى النصوص والمقولات التي تنقي عقيدة التوحيد مما ران عليها وشابها من مظاهر الشرك والبدع والخرافات .. على النحو الذي ناسب بيئة نجد ومشكلاتها في ذلك التاريخ .

ولأن « الدولة » قد نصرت « الدعوة » ؛ فلقد امتد تأثيرها واستمر مكانًا وزمانًا .

ولقد ترك الشيخ ابن عبد الوهاب العديد من الكتب

والرسائل التي عالج فيها المشكلات التي اهتمت بها دعوته التجديدية الإصلاحية .. منها : « كتاب التوحيد » و « كشف الشبهات » و « تفسير سورة الفاتحة » و « أصول الإيمان » و « تفسير شهادة أن لا إله إلا الله » و « معرفة العبد ربه ودينه ونبيه » و « المسائل التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية » - وفيها أكثر من مائة مسألة - و « فضل الإسلام » و « نصيحة المسلمين » و « معنى الكلمة الطيبة » و « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » و « مجموعة خطب » و « مفيد المستفيد » و « رسالة في أن التقليد جائز لا واجب » و « كتاب الكبائر » .

وحتى عناوين هذه الرسائل تفصح عن مضامينها التي ركزت على تنقية عقيدة التوحيد ، والعودة فيها إلى التصور الإسلامي النقي الذي رسخته المدرسة السلفية في تراث الإسلام! [1] .

* * *

(١) [مجموعة التوحيد] رسائل للإمام محمد بن عبد الوهاب . طبعة المكتبة السلفية - القاهرة ، و [تيارات الفكر الإسلامي] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩١ م .

(٣٢) عُمر مَكْرَم

[١١٦٨ - ١٢٣٧ هـ = ١٧٥٥ - ١٨٢٢ م]

هو السيد ؛ عمر مكرم بن حسين ؛ السيوطي .. ولد بأسيوط ، في صعيد مصر ، ودرس في الأزهر .. وتولى نقابة الأشراف ؛ وكان أبرز القيادات الشعبية في عصره ..

ولقد بدأ اشتغاله بالعمل العام ، وإسهامه في حل مشكلات مصر - التى كانت ولاية عثمانية - قبل أن يتولى نقابة الأشراف ويشارك مع كبار شيوخ الأزهر وقضاة الشرع في قيادة الأمة إبان الحملة الفرنسية على مصر وبعدها .. فمنذ [١٢٠٥هـ = ١٧٩٠م] ظهر اسمه في تأريخ « الجبرتى » لأحداث الصراع على السلطة بين المماليك .. أى قبل توليه نقابة الأشراف [١٢٠٨ هـ = ١٧٩٣م] بثلاث سنوات ... وفى أواخر [١٢٠٩ هـ = ١٧٩٥م] قاد مع علماء الأزهر إضراب الاحتجاج على ظلم المماليك ، وهو الاضراب الذى انتهى بنزول المماليك على « العهد » الذى صاغه العلماء - « برفع المظالم ، ومراعاة العدل ، وإلغاء الضرائب المستحدثة ، وإرسال أموال الحرمين الشريفين إلى مستحقيها .. إلخ .. » - ميثاقًا دستوريًا وإعلانًا لحقوق الإنسان ! .

وللعلاقة بين نقابة الأشراف وبين التنظيمات الصوفية - التى يغلب على مريديها جمهور الفقراء - كانت قيادة عمر مكرم

لجمهور العامة أوضح ما تكون خلال أحداث الصراع بين الأمة والمماليك والسلطة العثمانية في ذلك التاريخ . على أن القيادة الشعبية لعمر مكرم قد برزت أكثر ما تكون إبان الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣ - ١٢١٦ هـ = ١٨٩٧ - ١٨٠١ م]

فلقد تميز موقفه من الاحتلال .. لقد قاد جمهور الأمة في مقاومة جيش بونابرت .. فلما انهزمت المقاومة انسحب إلى « يافا » ، مع قادة المقاومة .. ثم عاد - بعد ثمانية أشهر - إلى مصر ، بعد غزو بونابرت ليافا ، واعتزل الشيوخ الذين تعاونوا مع الاحتلال - وكان الفرنسيون قد نهبوا داره ، وصادروا أملاكه ، وفصلوه من نقابة الأشراف ! .

وظل عمر مكرم يراقب الأحداث ، إلى أن اندلعت ثورة القاهرة الأولى ، فقادها [١٢١٤ هـ = ١٨٠٠ م] ، وقاتلت العامة بقيادته جيش الجنرال « كليبر » سبعة وثلاثين يومًا .. فلما خذلت الجند العثمانيون الثوار ، وانهزمت ثورة القاهرة ، انسحب عمر مكرم من القاهرة مرة ثانية - وعاد الفرنسيون لنهب أملاكه ، ولفصله من نقابة الأشراف - وظل بعيدًا عن القاهرة حتى خرج الفرنسيون من مصر [١٢١٦هـ = ١٨٠١م] ..

وفي سنة (١٢٢٠هـ = ١٨٠٥م) قاد عمر مكرم ثورة العلماء ضد الوالي العثماني « خورشيد باشا » ، وأعلن الوثيقة الشرعية التي تقرر حق الأمة في عزل الولاة الظلمة ، بل والخلفاء والسلاطين إذا جاروا ، وحقها في اختيار الولاة

والأمراء .. والتي قال فيها : « إن ولاة الأمر هم : العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل .. ولقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة .. حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه ! » .

ولقد استجاب السلطان العثماني لمطالب ثورة العلماء هذه ، فعزل الوالي التركي ، وأقر اختيار العلماء لمحمد علي باشا واليًا على مصر ..

ولعدة سنوات من ولاية محمد علي حكم مصر ، ظلت قيادة عمر مكرم هي الأرجح لدى الجماهير ، حتى أن الوالي لم يكن يستطيع تنفيذ قانون أو جمع ضريبة أو نزع سلاح إلا إذا نادى منادي السيد عمر مكرم على الناس بتنفيذ هذا القانون! .. ولما كان محمد علي طموحًا إلى بناء « دولة » تفرض سلطانها على « الأمة » فلقد بدأ صفحة من الصراع ضد قيادة الأمة ، وخاصة السيد عمر مكرم .. ولقد نجح في شق صفوف العلماء ، بالترغيب والترهيب ، حتى استطاع نفيه من القاهرة إلى دمياط [١٢٢٤ هـ = ١٨٠٩ م] .. فمكث فيها ثلاث سنوات .. ثم انتقل إلى طنطا فأقام بها ست سنوات .. وبعد أن أذن له محمد علي في الحج إلى بيت اللّٰه الحرام ؛ عاد من الحجاز إلى القاهرة ، فاستقبلته جماهيرها استقبالًا عظيمًا .. ثم اعتكف عن لقاء الجمهور .

لكن محمد علي لم تغادره الوساوس والشكوك والمخاوف

من نفوذ عمر مكرم ، فطلب إليه - وعد فتنة من الفتن - مغادرة القاهرة إلى طنطا [١٢٣٧ هـ = ١٨٢٢ م] .. فلم يلبث بها طويلاً حتى انتقل إلى جوار ربه ، بعد حياة حافلة قاوم فيه قوى الظلم والجور والاستبداد ، الداخلية منها والخارجية على السواء [1] ؟! ..

* * *

(١) [تاريخ الجبرتي] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م ، و [مسلمون ثوار] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

(٣٣) رفاعة الطهطاوي

[١٢١٦ - ١٢٩٠هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣م]

هو رفاعة بن بدوي بن علي بن محمد بن علي بن رافع - الشهير بالطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣م] نسبة إلى مسقط رأسه ، مدينة « طهطا » في محافظة سوهاج ، بصعيد مصر .

بعد حفظه للقرآن الكريم ، غادر الصعيد إلى القاهرة ، فالتحق بالأزهر الشريف [١٢٣٢ هـ = ١٨١٧ م] ليتخرج منه بعد ست سنوات ، وليصبح أحد المدرسين فيه .

وكان الشيخ حسن العطار [١١٨٠ - ١٢٥١هـ = ١٧٦٦ - ١٨٣٥ م] أبرز شيوخ رفاعة الطهطاوي ، فوجهه إلى طريق التجديد والاجتهاد في طلب ودراسة العلوم غير التقليدية ، وغير المألوفة لدى الأزهريين في ذلك التاريخ .

وبعد عامين من التدريس بالأزهر ، انتقل الطهطاوي إلى وظيفة الوعظ والإمامة في الجيش - رشحه لذلك الشيخ العطار.. فلما طلب الوالي محمد علي باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] من شيخ الأزهر - حسن العطار - ترشيح أحد العلماء ليكون الإمام الديني للبعثة الدراسية المسافرة إلى باريس ، رشح العطار الشيخ رفاعة ، فسافر إلى باريس [١٢٤١هـ = ١٨٢٦ م] .. ولقد أوصاه

شيخه العطار بتدوين مشاهداته في بلاد الفرنسيس ، على النحو الذي صنعه الرحالة المسلمون القدماء - من أمثال ابن جبير .. وابن بطوطة ؛ لينتفع المسلمون بمطالعة هذه المشاهدات ..

لكن الطهطاوي كان طموحًا لما هو أكبر من الوظيفة التي اختير لها .. كان طموحًا لإمامة في العلم والمعارف تضاف إلى إمامته في الصلاة والوعظ للمبعوثين ، فبدأ تعلُّم الفرنسية منذ أن وطئت قدماه الباخرة التي سافر عليها من ميناء الإسكندرية .. وفي باريس طلب أن ينضم رسميًا إلى سلك المبعوثين الدارسين .. فكان هناك إمامًا في الدين ، وطالب بعثة تفوق على أقرانه من طلاب العلم الحديث ! .

ولقد أهلته إجادتُه اللغةَ العربية - مع الفرنسية - للنهوض بترجمة مختارات من فكر وعلوم الحضارة الفرنسية ، التي كان الشرق العربي والإسلامي غريبًا عنها ، ومتطلعًا إليها في ذلك التاريخ .. وكان كتاب الطهطاوي « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » - الذي كتبه بباريس كأطروحة للتخرج - هو أول عين شرقية تطل على الحضارة الغربية الناهضة في عصرنا الحديث .. كتبه الطهطاوي لا ليسلي ويمتع قومه بغرائب وعجائب الرحلات ، وإنما « ليوقظ أمة الإسلام » من رقادها الحضاري الطويل ! .

* * *

ولقد أعان التكوين الإسلامي للطهطاوي - كشيخ أزهري - على أن لا ينبهر ولا يندهش بكل ما رآه ، فرأينا ملكته النقدية وقدرته في مقارنة الفلسفات والأنساق الفكرية تميز - في فكر « الفرنجة » - بين العلوم الطبيعية وفنون التمدن والصناعات - والتي هي مشترك إنساني عام بين كل الحضارات والثقافات والديانات - وبين العلوم الإنسانية والدينية - علوم تثقيف وتهذيب النفس الإنسانية - والتي تتمايز فيها الحضارات والديانات .. فأدرك - في دراسته لفكر « الفرنجة » - الفروق بين ما سماه « علوم التمدن المدني .. العلوم الحِكْمِيّة .. اللازمة لتقدم الوطن » - وهي التي نحن أحوج ما نكون إليها .. والتي سبق وأخذها الغرب عن الحضارة الإسلامية - .. أدرك الفروق بين هذه العلوم الطبيعية والبحتة والمحايدة ، وبين « الفلسفة الوضعية المادية » ، التي كفرت حتى بالنصرانية ، واعتمدت فقط على العقل المجرد والنواميس الطبيعية في تحصيل المعارف والعلوم ، منكرة على عالم الغيب والوحي الإلهي أن يكونا من مصادر المعارف والعلوم .. فدعا الطهطاوي إلى التلمذ على أوربا في علوم التمدن المدني ، لتطوير وتحضُّر واقع أمتنا ، ورفض الفلسفات الوضعية والمادية الأوربية ، قائلاً عنها : « .. ولهم في الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية » .. فهو لم يرفضها لأنها نصرانية - وهو شيخ مسلم - وإنما رفضها لإدراكه مخالفتها لمطلق الدين ، أي دين ، وكل دين ! .. ولم يكن في هذا الرفض للفلسفة الوضعية رفض للعقل أو غض من شأن

النواميس والقوانين الطبيعية ، وإنما كان بسبب إهمالها للشرع والدين ، فنبه الطهطاوي على تميز فلسفة الإسلام عن تلك الفلسفة المادية ، بجعل الشرع مع العقل المعيار لحُسْن الأشياء أو قُبحها ، على حين اعتمدت تلك الفلسفة الوضعية العقل دون الدين .

وانطلاقًا من هذا الوعي الإسلامي بتمايز الحضارات ، والإدراك لميادين الاشتراك والتفاعل وميادين الخصوصية والتمايز، دعا الطهطاوي إلى الانفتاح على أوربا في علوم التمدن المدني ، فكتب يقول : « إن مخالطة الأغراب ، لا سيما إذا كانوا من أولي الألباب ، تجلب للأوطان المنافع العمومية . والبلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التي لا ينكر إنسان أنها تجلب الأُنس وتزين العمران . فهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف ، حتى أنهم دونوه وجعلوه علمًا » ! ..

وأبصر الطهطاوي تقدم فرنسا في الحرية .. ومؤسساتها الدستورية والنيابية والقانونية .. فنبه أمته إلى مكانة الحرية في التمدن والعمران ، وإلى مميزات النظم الدستورية المقيدة سلطات حكوماتها بالقانون .. لأن « الحرية [كما قال] هي الوسيلة العظمى في إسعاد أهالي الممالك .. فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى في راحة الأهالي وإسعادهم في بلادهم ، وكانت سببًا في حبهم لأوطانهم . ولقد تأسست الممالك : لحفظ حقوق الرعايا : والحرية ؛ وصيانة النفس ، والمال ، والعرض ، على موجب أحكام

شرعية ، وأصول مضبوطة مرعية . فالملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين » .

وفي ذات الوقت - الذي دعا فيه الطهطاوي الأمة للانفتاح على أوربا في هذه الميادين - انتقد ورفض الفلسفة الوضعية المادية ، التي أخرجت غالب الفرنجة عن نصرانيتهم .. فكتب يقول :

أيوجد مثل باريس ديار   شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح   أما هذا وحقكم عجيب !

فبلاد الإفرنج مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات ، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية .. إن أكثر أهل هذه البلاد إنما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا يتبع دينه ، ولا غيرة له عليه ، بل هو من الفرق المُحسِّنة والمُقبِّحة بالعقل .. أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون : إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب .. ولذلك فهو لا يصدِّق بشيء مما في كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية » .

وفي مواجهة هذه الفلسفة الوضعية ، التي رآها الطهطاوي كافرة بمطلق الدين ، وليس فقط بالإسلام ، قدم - في نظرة مقارنة عميقة - فلسفة الإسلام المتميزة بالجمع بين العقل والشرع ، فقال : « إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع .. ولا عبرة بالنفوس القاصرة ، الذين حكموا

عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسيناً وتقبيحاً ، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود ، بتعدي الحدود .. وليس لنا أن نعتمد على ما يُحسِّنه العقل أو يُقبِّحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه .. فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع ، لا بطرق العقول المجردة » ..

وكما رفض الطهطاوي وضعية الغرب في الفلسفة - تلك التي فصلت الشرع عن العقل - رفض هذه الوضعية كذلك في القانون - عندما استبعدت القيم والأخلاق والضوابط الدينية من القانون .. فأقامته على المنفعة الدنيوية وحدها - .. ولذلك دعا الطهطاوي إلى تقنين الشريعة الإسلامية ، وفقه معاملاتها ، لتكون لها الحاكمية في بلاد الإسلام ، بدلاً من « قانون نابليون » - الذي كان قد بدأ يتسرب إلى الشرق في ركاب التجار والاستعمار - فكتب يقول : « إن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلّت بالحقوق ، بتوفيقها على الوقت والحالة .. ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية .. إن بحر الشريعة الغراء ، على تفرع مشارعه ، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري ، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية ؛ لأنها أصل ، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع » ..

هكذا نظر الطهطاوي إلى الحضارة الأوربية ، نظرة العالِم

المسلم المدرك لمناطق الاشتراك ومناطق التمايز في علاقات الحضارات وتفاعل الثقافات .

* * *

● وفي المشروع الإصلاحي الذي بشر به الطهطاوي ، كان الرجل في طليعة الدعاة إلى إحياء الروح الوطنية ، وتوظيف عاطفتها الفطرية في التقدم والتمدن للوطن وأهله .. « فما أسعد الإنسان الذي يميل بطبعه لإبعاد الشر عن وطنه ، ولو بإضرار نفسه ! .. فصفة الوطنية لا تستدعي فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له على الوطن ، بل يجب عليه أيضًا ، أن يؤدي الحقوق التي للوطن عليه .. فإذا لم يوفق أحد من أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه المدنية التي يستحقها على وطنه ! .. والتقدم لا يتم بدون انجذاب قلوب الأهالي إلى الوفاء بحقوق هذا الوطن العظيم ! » ..

بل لقد كان الطهطاوي أول شاعر نظم العديد من الأناشيد الوطنية في عصرنا الحديث .. وفي أحدها يقول :

من أصل الفطرة للفِطِن   بعد المولى حب الوطن
هبةٌ مَنَّ الوهابُ بها   فالحمد لوهّاب المِنَن

● وكانت الوطنية - عند الطهطاوي - منطلقًا إلى دائرة أوسع منها ، هي دائرة العروبة ، القائمة على عروبة اللغة واللسان ، وذلك « لأن العرب هم خيار الناس ، ولسانهم

أفصح الألسن .. ولقد اشتهرت أمة العرب ، جاهلية وإسلامًا ، بالفضائل » ..

● بل لقد رأى كلًّا من الوطنية والعروبة في دائرة الانتماء لحضارة الإسلام .. حتى لقد نظر إلى حروب محمد علي باشا ضد الدولة العثمانية ، باعتبارها حركة إحياء وتجديد لشباب الدولة الإسلامية الجامعة .. « فهي - [برأيه] - لم تكن من محض العبث ، ولا من ذميم تعدي الحدود ، وإنما جل القصد منها : تنبيه أعضاء ملة وجنسية عظيمة ، تحسبهم أيقاظًا وهم رقود » ! ..

● وفي الفلسفة الاجتماعية الخاصة بالثروات والأموال ، رفض الطهطاوي الاشتراكية الخيالية (الطوباوية) الفرنسية - ذات النزعة الوضعية الإلحادية - كما بشر بها الفيلسوف الفرنسي « سان سيمون » [١٦٧٥ - ١٧٥٥ م] .. كما رفض مشاعية وشيوعية المزدكية الفارسية والقرامطة القدماء .. وفي ذات الوقت لم يحبذ الفردية الرأسمالية في صورتها الليبرالية الأوربية .. وإنما دعا إلى نظام اجتماعي متوازن لا يهمل معيار ملكية رأس المال أو الأرض الزراعية ، مع تغليب نصيب « العمل » على نصيب « الملكية » في عائد الأرض والصناعات والتجارات .. ذلك « أن منبع السعادة الأولى هو العمل والكد .. وإن أعظم حرية في المملكة المتمدنة هي : حرية الفلاحة ، والتجارة ، والصناعة .. والعدل أساس الجمعية

التأنسية - [المجتمع الإنساني] - والعمران والتمدن ، فهو أصل عمارة الممالك ، التي لا يتم حسن تدبيرها إلا به ، وجميع ما عدا العدل من الفضائل متفرع عنه ، وكالصفة من صفاته .. وحب النفس خصلة جامعة لجميع العيوب والذنوب ، مخلة بالجنس البشري ، إلا إذا صحبها حب مثل ذلك للإخوان وأهل الأوطان .. ومذهب المزدكية يدعو إلى تساوي الناس في الأموال ، وأن يشتركوا في النساء .. وهو قريب من مذهب القرامطة في أيام الخلفاء ؛ ومن مذهب سان سيمون الجديد بفرنسا .. فكل زمان عرضة لخروج أرباب الضلالات من شياطين الإنس ، على اختلاف الجنس » ! ..

● وفي الموقف من المرأة .. كان الطهطاوي طليعة الدعاة إلى تحريرها ، بالعلم والعمل ، وإلى مساواتها بالرجل مع مراعاة مقتضيات التمايز الفطري بين الأنوثة والذكورة .. ذلك « أن العاقل إذا أمعن النظر الدقيق في هيئة المرأة والرجل ، في أي وجه كان من الوجوه ، وفي أي نسبة من النسب ؛ لم يجد إلا فرقًا يسيرًا يظهر في الذكورة والأنوثة وما يتعلق بهما ؛ فالذكورة والأنوثة هي موضع التباين والتضاد .. وكلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم وظرافتهم ؛ فعدم توفية النساء حقوقهن فيما لهن الحرية فيه ، دليل على الطبيعة المتبربرة .. والعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال ، فهي مذمة عظيمة في

حق النساء » ! ..

● وكان الطهطاوي داعية إلى تعميم التعليم ، باعتباره ضرورة إنسانية كالخبز والماء ! .. وإلى تأسيس التمدن والتقدم على التربية ، التي تنمي الجسد والروح والأخلاق على السواء .. « فالأمة التي تتقدم فيها التربية ، بحسب مقتضيات أحوالها ، يتقدم فيها أيضًا التقدم والتمدن .. بخلاف الأمة القاصرة التربية ، فإن تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها .. فالتربية هي أساس الانتفاع بأبناء الوطن .. والتعليم الأولي ضروري لسائر الناس ، يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء .. والتعليم العالي فيه تمدين جمهور الأمة ، وترقيها في الحضارة والعمران » ..

* * *

وإذا كان الطهطاوي قد صاغ لأمته ملامح هذا المشروع النهضوي - للتقدم والتمدن - في مؤلفاته ومترجماته - التي قاربت الخمسين كتابًا ورسالة - والتي كان من أهمها « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » و « مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية » و « المرشد الأمين في تربية البنات والبنين » و « نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز » و « أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل » و « القول السديد في الاجتهاد والتقليد » و « التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية » و « مجموع في المذاهب الأربعة » و « أرجوزة في

التوحيد » .. إلخ .. إلخ .. - فإن الطهطاوي لم يكن مجرد رائد في الفكر ، اجتهد في صياغة معالم المشروع النهضوي لأمته .. وإنما كان - مع ذلك - « رجل دولة » ، جسد مشروعه الفكري من خلال ممارساته التطبيقية ، وبواسطة المؤسسات الجديدة التي أقامها أو عمل بها ، وأيضًا من خلال الرجال الذين صنعهم على عينه لنشر وتطبيق هذا المشروع .. فلقد عمل الطهطاوي - منذ عودته من باريس [١٢٤٧ هـ = ١٨٣١ م] في وظائف الترجمة .. والتعليم .. وأقام وأدار المدرسة الجامعة « مدرسة الألسن » .. وعمل بالصحافة - في « الوقائع المصرية » .. و « روضة المدارس » .. واختار للطباعة والنشر عيون التراث الإسلامي . كما انتقى للترجمة والنشر عيون الفكر الغربي .. ولم ينس أن يقيم للتعليم العالي قاعدة للتعليم الأولي والعام ، من خلال شبكة « الكتاتيب الحديثة » التي طاف أنحاء البلاد لإنشائها ، والإشراف عليها ، والتي كان ينتقي نجباء طلابها للتعليم المتوسط - التجهيزي - والعالي .. وإذا كنا نريد أن نستحضر طرفًا من عظمة الجهد الذي بذله الطهطاوي في هذا الميدان ، فيكفي أن نعلم أن الرجل قد كان يطوف أنحاء الوطن ، لا بالقطار أو السيارة ، فضلًا عن الطائرة ، وإنما على ظهر المراكب الشراعية في النيل وفروعه .. وهي مراكب لم تكن مخصصة للنزهة أو حتى الأسفار ، وإنما كانت تحمل المحاصيل الزراعية ، وجذوع الأشجار ، بل و « بلاليص » الجبن والعسل من الريف المنتج إلى

مدن الاستهلاك !! .. على هذه السفن طاف الطهطاوي أنحاء الوطن - الذي أحبه - لينشر فيه ، وليصنع على أرضه ولتقيم في قراه معالم المشروع الحضاري الذي بلوره من العلم الذي اكتسبه من الأزهر الشريف - منارة الإسلام - ومن « باريز » « إيوان وَتَخْت دولة الفرنسيس » ؟!

* * *

(٣٤) خَير الدين التُّونسي

[١٢٢٥ - ١٣٠٨ هـ = ١٨١٠ - ١٨٩٠ م]

هو خير الدين التونسي [١٢٢٥ - ١٣٠٨ هـ = ١٨١٠ - ١٨٩٠ م] المفكر .. والسياسي .. ورجل الدولة ..

ولد في إحدى القرى الصغيرة بجبال القوقاز ، بقبيلة « أباظة » الشركسية ، واختطفه تجار الرقيق صغيرًا ، وجاءت به قافلتهم إلى الآستانة ؛ عاصمة السلطنة العثمانية ، حيث بيع كما يباع الرقيق في سوق النخاسة ! .. ثم تناقلته الأيدي ، بالبيع والشراء رقيقًا ، إلى أن وصل إلى قصر حاكم تونس ، الباي أحمد باشا [١٢٥٢ - ١٢٧٢ هـ = ١٨٣٦ - ١٨٥٦م] ، فتعلم هناك القراءة والكتابة ، وفرائض الدين الإسلامي ، وفنون العسكرية ، والسياسة ، والتاريخ وأجاد اللغة الفرنسية ، إلى جانب العربية والتركية .. وتدرج مترقيًا - لألمعيته ونجابته ومثابرته وذكائه - في المناصب حتى أصبح « الوزير الأكبر » في البلاد ! .

وبفضل إصلاحاته في تونس أعلن دستور المملكة التونسية سنة [١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧م] .. فلما أبعد عن الوزارة سنة [١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م] ذهب إلى عاصمة السلطنة ، الآستانة ، وتولى الصدارة العظمى للسلطان عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] في سنة [١٢٩٥هـ =

١٨٧٨م] .. فلما أعياه الإصلاح استقال في العام التالي .. وأصبح عضوًا في مجلس الأعيان ، حتى وافته المنية هناك .

* * *

وفي تونس ، وأثناء أزمة من أزماته مع الباي محمد الصادق [١٢٧٥ - ١٢٩٩ هـ = ١٨٥٩ - ١٨٨٢ م] اعتزل خير الدين جميع مناصبه الحكومية لعدة سنوات [١٢٧٨ - ١٢٨٦ هـ = ١٨٦٢ - ١٨٦٩ م] واعتكف في بستان له - كما اعتزل ابن خلدون من قبل في إحدى قلاع تونس فكتب المقدمة والتاريخ - اعتزل خير الدين واعتكف في بستانه فكتب - على غرار ابن خلدون - كتاب « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » - الذي طبع ، بتونس ، للمرة الأولى [١٢٨٤ هـ = ١٨٦٨ م] .. والذي أودع مقدمته خلاصة آرائه في التمدن والإصلاح - تمامًا مثلما فعل ابن خلدون في المقدمة ! .

ولقد كان خير الدين ، بحكم عصره ، وموقعه - بعد رفاعة رافع الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣م] - أبرز من أطل على الحضارة الغربية ، وجاء مشروعه للإصلاح في ضوء علاقة العالم الإسلامي ، يومئذ بها .. فلقد كان تجاهل التأثير الأوربي في ذلك التاريخ وتلك الملابسات ضربًا من المحال .. ففرنسا كانت قد شرعت في احتلال الجزائر سنة [١٢٤٦هـ = ١٨٣٠م] وشرعت في مد نفوذها الاقتصادي إلى تونس ، بتقديم

القروض ، وأخذت تتدخل في شئونها المالية ، تمهيدًا للسيطرة ، فالاحتلال ! .

وكان الباي أحمد صاحب محاولات في الإصلاح ، يترسم فيها خطى محمد علي باشا الكبير [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] بمصر ، فأنشأ في « باردوا » بفرنسا ، سنة [١٢٥٦هـ = ١٨٤٠م] « مكتب العلوم الحربية » ، ليتعلم فيه الجنود التونسيون علوم الهندسة والمساحة والحساب ، وغيرها ، وعهد إلى خير الدين بالإشراف على هذا المكتب - [المدرسة] - الذي رأسه المستشرق الإيطالي « كاليغاريس » .. وهناك عايش خير الدين الحضارة الأوربية ولمس تأثيراتها ، ولقد اكتملت معرفته بها في سفاراته للباي لدى عديد من ممالك أوربا ، مثل : فرنسا والسويد وبروسيا وبلجيكا والدنمارك وهولندا .

ولقد تبلورت دعوة خير الدين إلى إصلاح أحوال المسلمين في ضرورة الأخذ عن الحضارة الغربية التنظيمات والتجارب والتراتيب الإدارية .. وضرورة التجديد والاجتهاد في الشريعة الإسلامية .. كي تواكب المصالح المتجددة للمسلمين .. فتحدث عن العلاقة بأوربا قائلًا : « إنه لن يتهيأ لنا أن نميز ما يليق بنا إلا بمعرفة أحوال من ليس من حزبنا ! .. فالدنيا بصورة بلدة متحدة ، تسكنها أمم متعددة ، حاجة بعضهم لبعض متأكدة ! .. » أما هذا الذي رآه لائقًا بالمسلمين ، لينهضوا به ،

من ثمرات الحضارة الغربية .. فإن في مقدمته :

١ - التنظيمات السياسية :

التي هي في الحقيقة السبب في تقدم الأوربيين في المعارف .. وهذه التنظيمات لابد أن تكون مؤسسة على العدل والحرية .. ولذلك أدان التونسي الاستبداد بالسلطة وحكم الفرد ، ودعا إلى إحياء هيئة « أهل الحل والعقد » الإسلامية .. وزكى في مذكراته - تكوين المجالس النيابية بالانتخاب العام .. وألح على ضرورة تقييد جهاز الدولة بالقوانين ، سواء منها تلك التي تنظم علاقة الرعية بالدولة ، أو العلاقة بين المواطنين .. وطالب بأن تكون مباشرة الحكم التنفيذي من اختصاص الوزراء لا الحاكم الأعلى ، وأن يكون الوزراء مسئولين أمام وكلاء الأمة ونوابها المنتخبين .. وقال : إن أوربا إذا كانت قد صنعت وأقامت هذه التنظيمات السياسية انطلاقًا من القوانين العقلية الطبيعية ، غير الإلهية ؛ فإن المسلمين أولى من الأوربيين بذلك ؛ لأن هذه التنظيمات مما يحقق غاية الشريعة الإسلامية ومقاصدها .

٢ - والحرية السياسية :

والغاية من التنظيمات السياسية عند خير الدين التونسي : هي تحقيق العمران للبلاد ، وأساس هذا العمران هو العدل ، أي الحرية السياسية للمواطنين .. كما أن اتساع نطاق المعارف في

المجتمع إنما يرجع كذلك إلى اتساع نطاق الحرية .. وإذا كانت الحرية الشخصية ضرورية ، ليتصرف الإنسان في ذاته وكسبه وهو آمن على نفسه وعرضه وماله ، مطمئن إلى تساويه مع أبناء جنسه ؛ فإن الحرية السياسية أدخل في الضرورة واللزوم ؛ لأنها هي التي تحقق اشتراك الرعية في توجيه سياسة الدولة ، كي تأتي على وفق المصلحة العامة للمجموع .. ويدخل في الحرية السياسية : حرية نشر الأفكار ، التي يسميها التونسي : « حرية المطبعة ! » حيث لا يمنع الإنسان من أن يكتب ويذيع ما يعتقده صوابًا ومصلحة ، أو يعرض ذلك على أجهزة الدولة ومجالسها حتى ولو تضمن ذلك الاعتراض على مناهجها ! .

٣ - والحرية الاقتصادية :

فلقد ارتبطت في فكر خير الدين الحرية السياسية بالحرية الاقتصادية .. كما ارتبط نمو المعارف بنمو الصنائع ، الأمر الذي يثمر زيادة الأنشطة الحرة في الميادين والاقتصادية .. فالرخاء لا يتحقق بالخصوبة وتوافر الإمكانات المادية وحدها ، وإنما بالحرية الاقتصادية التي تجعل أرباب النشاط الاقتصادي والاستثمار المالي آمنين على ثرواتهم وأموالهم .

٤ - والتقدم في المعارف والعلوم :

فلقد أراد خير الدين التونسي لدعوة الحرية التي بشر بها أن تكون متكاملة .. فأكد على أن نمو المعارف والعلوم إنما هو ثمرة

طبيعية للحرية السياسية ، التي تنمي حرية الفكر ؛ وللحرية الاقتصادية ، التي تفتق طاقات الإبداع بإبرازها الضرورات والاحتياجات .. وأن جميع ألوان الحرية هذه مؤسسة على وجود التنظيمات .

* * *

وإذا كان هذا هو موقفه من الثمرات الحضارية لأوربا الناهضة ، فلقد اختلف موقفه من « أوربا الاستعمار » ! .. فكان داعية إلى اليقظة لأطماع الدول الأوربية في أقاليم البلاد الإسلامية ، وإلى الحذر من الشراك التي ينصبونها كي تقع فيها .. فدعا إلى رفض الاقتراض من الأجانب ، وإلى أن تتجه الحكومة إلى الاقتراض الداخلي ، حتى ولو زاد سعر « الفائدة » ؛ لأن المموِّلين الوطنيين لن يمثلوا خطرًا استعماريًّا خارجيًّا ؛ كما أن أرباحهم لن تغادر السوق الوطني الداخلي .. ومن كلماته في هذا الموضوع : « إن من الأفضل أن ندفع غاليًا ثمن اقتراض نقترضه في بلدنا ، ونحافظ بذلك على حريتنا ، من أن نربح بعض الفوائد المادية على حساب استقلالنا ؟! » .

● والتصدي للجمود :

وكان طموح خير الدين التونسي أن ينهض فقهاء الإسلام بالاجتهاد والتجديد ؛ حتى تستطيع الشريعة الإسلامية أن تقدم الحلول للمشكلات الجديدة ، فلا يضطر المصلحون إلى الأخذ عن أوربا غير التنظيمات .. كان يريد « المحتوى الإسلامي »

لهذه الأوعية الأوربية .. ولذلك كان له جهاد على هذه الجبهة كبير ..

لقد ساءه أن يكون علماء الأمة جهلاء بأمراضها ، وبأدوية هذه الأمراض .. وأن يضيق الكثيرون منهم نطاق السياسة الشرعية ، فلا يرونها شرعية إلا إذا كانت لها نصوص في الكتاب والسنة ، فكتب ليذكرهم بمناهج العلماء السابقين الذين وسعوا هذا النطاق ، لتصبح السياسة الشرعية هي كل ما لا يخالف الكتاب والسنة وليس فقط ، ما له نص في الكتاب والسنة ..

لقد كانت عينه ، في النهضة الأوربية ، على الأوعية والأدوات ، وفي مقدمتها التنظيمات السياسية .. وعينه على التراث الإسلامي ؛ ليستجيب بالاجتهاد والتجديد إلى احتياجات العصر ومتطلبات مشكلاته ، فيقدم المضامين والحلول ، التي تتخذ من التنظيمات أدوات للحركة والنهضة والإحياء .. وفي ذلك يقول : « إن الأمة الإسلامية تقتدر أن تكتسب ، بما بقي لها من تمدنها الأصلي ، وبعاداتها التي لم تزل مأثورة عن أسلافها ، ما يستقيم به حالها ، ويتسع به في التمديد مجالها . ويكون سيرها في ذلك المجال أسرع من غيرها كائنًا من كان ، إذا أزكيت حريتها الكامنة بتنظيمات مضبوطة تسهل لها التدخل في أمور السياسة ! .. » .

فالعناصر الأصلية في التمدن الأصلي ، والحرية الكامنة التي

أقرتها وقررتها الشريعة الإسلامية ، مع التنظيمات التي لابد من أخذها عن أوربا ، كفيلة بجعل هذه الأمة تخطو على درب النهضة بأسرع مما صنع ويصنع الآخرون [1] ! .

* * *

(١) [أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك] خير الدين التونسي - المقدمة - دراسة وتحقيق دكتور منصف الشنوفي . طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م ، و [مسلمون ثوار] للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

(٣٥) جمال الدين الأفغاني

[١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ هـ]

هو محمد جمال الدين بن صفتر بن علي بن مير رضي الدين محمد الحسيني .

موقظ الشرق ، وفيلسوف الإسلام ، ورائد تيار الجامعة الإسلامية ، وأبرز قادة الحركة الإصلاحية الإسلامية ، ومن طلائع المجددين والمجتهدين في الفكر الإسلامي ، في عصرنا الحديث .

عربي الأصل ، هاشمي النسب ، حسيني - يرتفع نسبه إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ - ولد [١٢٥٤هـ = ١٨٣٨ م] ببلدة « أسعد آباد » ، في خطة « كنر » من أعمال « كابل » ، ببلاد الأفغان ، في أسرة ذات نفوذ سياسي وإداري في مقاطعتها .

وفي الثامنة من عمره ، انتقل - مع الأسرة - إلى العاصمة « كابل » ، عندما خشي أمير الأفغان « دوست محمد خان » نفوذ أسرته في منطقتها .. وفي « كابل » أشرف والده على تعليمه .. وقبل أن يبلغ العاشرة من عمره ، كان قد تعلم - بالمنزل - القراءة والكتابة ومبادئ اللغة العربية ، وحفظ القرآن الكريم .

وفي العاشرة من عمره ، رحل مع والده إلى إيران ، حيث

عمل والده مدرسًا في مدرسة « قزوين » وأصبح هو تلميذًا في هذه المدرسة ، التي أمضى فيها عامين ، لفت أثناءها الأنظار بذكائه واجتهاده ، وميوله المبكرة لدراسة العلوم ، واهتمامه بالفلك ، ورغبته في قراءة كتب الطب ، ومحاولته ممارسة التشريح ! .

ومن « أسد آباد » - حيث كانت تقيم أسرته - سافر جمال الدين سنة (١٨٤٩م) إلى « النجف » - بالعراق - فدرس بها خمس سنوات ، تعلم فيها علوم القرآن ، والحديث ، والكلام ، والفلسفة ، والمنطق ، وأصول الفقه ، والرياضة ، والفلك ، والطب والتشريح .

ومن « النجف » عاد لزيارة الأسرة في « أسعد آباد » سنة (١٨٥٤م) ، عازمًا على زيارة الهند ، ليتعلم فيها الرياضة الحديثة والعلوم الأوربية ، فسافر إلى « بومباي » ثم إلى « كلكتا » - حيث أقام بها أكثر من عام - ومن الهند سافر إلى « مكة » حاجًا سنة (١٨٥٧م) .. ثم عاد إلى العراق ، فإيران .. ولما طلبت منه أسرته الإقامة معها ، في « أسعد آباد » اعتذر قائلًا : « إنني كصقر محلق ، يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيقًا لطيرانه ! وإنني لأتعجب منكم إذ تريدون أن تحبسوني في هذا القفص الضيق الصغير » ! وبعد زيارة لطهران .. وخراسان .. توجه عائدًا إلى وطنه الأصلي أفغانستان .

وفي « كابل » بدأ جمال الدين الإسهام في النشاط العام ،

فكتب كتابه الأول « تتمة البيان في تاريخ الأفغان » - باللغة العربية - التي كان يجيدها ، هي والفارسية ، والأفغانية - والتي سيضيف إليها - فيما بعد - إجادة التركية ، والفرنسية ، مع إلمام بالإنجليزية ، والروسية ! .

وكان الاستعمار الإنجليزي - الذي كان يحتل الهند - قد بدأ تدخله في شئون أفغانستان ، مناصرًا الأمير « دوست محمد خان » ضد الأمير « محمد أعظم خان » ، فألقى جمال الدين بثقله في العمل السياسي والوطني ، مناصرًا حكومة الأمير الوطني محمد أعظم خان ، ومشاركًا في القتال الذي دار ضد الإنجليز سنة (١٨٦٢م) .. وارتقى في مناصب الحكومة الوطنية حتى أصبح الوزير الأول « رئيس الوزراء » - ! ..

فلما دارت الدائرة على الأمير الوطني « محمد أعظم خان » ، وهزم سنة ١٨٦٨ م .. عرف جمال الدين طريقه إلى الترحال من جديد .. لكن ترحاله ، منذ ذلك التاريخ وحتى وفاته ، كان في سبيل إيقاظ المسلمين ، ومحاربة الاستعمار الأوربي ، والإنجليزي منه على وجه الخصوص .. فلقد خرج من أفغانستان إلى الهند .. ثم مصر .. فالآستانة .. فالحجاز .. فالعراق .. فإيران .. فروسيا .. فلندن - وباريس .. داعيًا إلى الإحياء والتجديد للفكر الإسلامي ، وإلى إيقاظ الأمة الإسلامية من سباتها ، وفك قيود الجمود والتقليد ، والإقلاع من التخلف الموروث إلى النهوض الإسلامي ، لمواجهة الاستعمار الزاحف

على ديار الإسلام .. فكان - في سبيل ذلك - مزكيًا لمنهاج الشورى والحرية في إدارة شئون الأمة وتدبير سياسات حكوماتها ، وموقدًا للثورات في وجه الاستبداد الداخلي .

ومع إيمانه بدور العامة والجماهير في الثورة والإصلاح ، فلقد كان أبرز صناع النخبة والصفوة التي قادت حركة الجامعة الإسلامية على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام ، مجددة للفكر ، وقائدة لحركات التحرر الوطني ، وداعية إلى الإصلاح الاجتماعي ، ومفجرة للعديد من الثورات .. حتى لقد كانت صناعته الأولى هي تربية الرجال ! .

ولقد كانت السنوات التي عاشها الأفغاني في مصر [١٢٨٨ - ١٢٩٦ هـ = ١٨٧١ - ١٨٧٩ م] هي أخصب السنوات في تاريخ إنجازاته الفكرية والسياسية .. ففيها ربى نخبة من العقول التي جددت فكر الإسلام وحياة المسلمين - وفي مقدمتهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - وشرح من كتب الفلسفة والكلام والمنطق ما أعاد للحياة الفكرية قسمة العقلانية الإسلامية ، التي غابت عنها منذ عصر التراجع الحضاري للمسلمين .. ونشأت على يديه مدرسة في الصحافة الأهلية الحرة - غير الحكومية - صحف [مصر] و [التجارة] و [مرآة الشرق] - وتيار شعبي لمعارضة الاستبداد الداخلي ، وللثورة على النفوذ الأجنبي - الاقتصادي والسياسي

والعسكري - كما عرفت البلاد على يديه طلائع التنظيمات السياسية والإصلاحية - [الحزب الوطني الحر] - في تلك الفترة المبكرة من تاريخ نشأة الأحزاب ..

وبضغوط من الدول الاستعمارية - وخاصة إنجلترا ، التي كانت تحضِّر لاحتلال مصر - خضع الخديوي توفيق [١٢٦٨ - ١٣٠٩ هـ = ١٨٥٢ - ١٨٩٢ م] فنفى جمال الدين من مصر [١٢٩٦هـ = ١٨٧٩م] ، زاعمًا أن الأفغاني « يقود جماعة من ذوي الطيش ، مجتمعة على فساد الدين والدنيا !! » .. فذهب جمال الدين منفيًا إلى الهند - وهي مستعمرة إنجليزية - فمكث فيها شبه معتقل ، حتى تمت هزيمة الثورة العرابية ، واحتلال الإنجليز لمصر [١٢٩٩ هـ = ١٨٨٢م] .. وعندئذ سمح له الإنجليز بمغادرة الهند ، فسافر إلى باريس - العاصمة المنافسة لإنجلترا - وهناك لحق به الشيخ محمد عبده - وكان منفيًا ببيروت ، بعد هزيمة العرابيين ومحاكمتهم - ومن باريس أصدرا مجلة [العروة الوثقى] لتعبر عن فكر وسياسة التنظيم السري الذي أقامة الأفغاني ، لمواجهة الاستعمار الإنجليزي ، وإنهاض المسلمين .. وهو التنظيم الذي امتدت « عقوده - خلاياه » إلى أغلب بلاد المسلمين - وخاصة مصر والهند - والذي استقطب صفوة العلماء المجددين والأمراء والساسة المجاهدين - تنظيم [العروة الوثقى] - .. فكان هذا التنظيم ومجلته أهم مدارس الوطنية الإسلامية والبعث الحضاري الإسلامي ، التي تربى فيها

وتعلم منها واستضاء بمنهاجها دعاة اليقظة والتجديد والإصلاح والثورة على امتداد عالم الإسلام .

ولقد انتهى المطاف بالأفغاني - بعد أن زرع التجديد والإحياء والثورة في أرجاء العالم الإسلامي .. وبعد أن صنع على عينه جيلاً من القادة والعلماء والثوار والمجددين - انتهى به المطاف إلى « القفص الذهبي السلطاني » ! في الآستانة - لكنه ، وهو النسر المستعصي على قيود السلاطين ، وأسوار المدن ، وجغرافية الأوطان ، حاول تحرير إرادة السلطان عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] من قبضة حاشيته الغارقة في الرجعية والفساد .. وسعى إلى بعث الروح في حركة الجامعة الإسلامية ؛ لمناهضة الزحف الاستعماري على ولايات الدولة العثمانية .. وتطلع إلى سد ثغرة الشقاق المذهبي والسياسي بين إيران ودولة الخلافة الإسلامية ، لقطع الطريق على الاستعمار الذي يخترق الوجود الإسلامي من مثل هذه الثغرات ! .

وظل الأفغاني قائمًا بفريضة الجهاد على هذه الجبهات : التجديد الفكري .. واليقظة الإسلامية .. والتصدي للاستعمار .. وكسر قيود الاستبداد - حتى وافاه الأجل ، فلقي ربه - في الساعة السابعة والدقيقة الثالثة عشرة من صبيحة يوم الثلاثاء [٥ شوال سنة ١٣١٤هـ = ٩ مارس سنة ١٨٩٧م] ودفن في الآستانة .. ثم نقل جثمانه - بعد سنوات -

في موكب إسلامي مهيب – إلى بلاده الأفغان .

* * *

ولقد ترجم له ، وتحدث عنه أعرف الناس به ، وأقربهم إليه : الإمام محمد عبده ، فقال – ضمن ما قال – :

« هو السيد محمد جمال الدين ، ابن السيد صفتر . من بيت عظيم من بلاد الأفغان .. حنفيٌّ حنيفيٌّ . وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلدًا ، لكنه لم يفارق السُّنَّة الصحيحة ، مع ميل إلى مذهب السَّادة الصوفية .. يُمثِّل لناظره عربيًا محضًا من أهالي الحرمين ، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين سكنة الحجاز .

وكان مقصده السياسي ، مدة حياته : إنهاض دولة إسلامية من ضعفها ، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفيِّ مجده .

أما أخلاقه : فسلامة في القلب سائدة في صفاته ، وحلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب ! فبينما هو حليم أوَّاب إذا هو أسد وثَّاب ! . وهو كريم يبذل ما بيده ، قوي الاعتماد على الله ، لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر . عظيم الأمانة ، سهل لمن لاينه ، صعب على من خاشنه . طموح إلى مقصده السياسي .. إذا لاحت له بارقة منه

تعجُّل السير للوصول إليه - وكثيرًا ما كان التعجُّل علة الحرمان ! .

وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد من الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الأمور ، عزوف عن صغارها ، شجاع مقدام ، لا يهاب الموت ، كأنه لا يعرفه ! .

إلا أنه حديد المزاج - وكثيرًا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة ! .. إلا أنه صار في رسوّ الأطوار وثبات الأوتاد ! .

فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ ، لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزًّا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر .

ولو قلتُ : إن ما آتاه الله من قوة الذهن ، وسعة العقل ، ونفوذ البصيرة ، هو أقصى ما قُدِّر لغير الأنبياء ، لكنت غير مبالغ ! .. فكأنه حقيقة كلية ، تجلَّت في كل ذهن بما يلائمه ، أو قوة روحية ، قامت لكل نظر بشكل يُشاكله ! .

« لقد أُوتيتُ من لدنه حكمة أقلبُ بها القلوب وأعقلُ العقول ! .. وأعطاني حياة أشارك بها محمدًا وإبراهيم والأولياء والقديسين !! » .

* * *

وإذا كانت هذه الكلمات - للإمام محمد عبده - عن جمال الدين الأفغاني - هي سطور من الصفحات التي كتبها أخبرُ الناس بالأفغاني ، وأقربهم إليه ، وأعرفهم به ، وأنضج الثمرات لأطيب البذور التي غرسها هذا الفيلسوف العظيم ..

فلقد كانت رؤية الأفغاني لنفسه من البساطة بحيث تفتح البصائر على حقيقة الحياة التي عاشها والآثار التي تركها هذا الإنسان العظيم .. لقد رأى نفسه « درويشًا فقيرًا ، عابرًا في هذه الحياة ! » .. وكان يناجي نفسه فيقول : « أنت أيها الدرويش الفاني! مم تخشى ؟! .. اذهب وشأنك ، ولا تخف من السلطان ، ولا تخش الشيطان !! .. إنه سيان عندي طال العمر أو قصر .. فإن هدفي أن أبلغ الغاية ، وحينئذ أقول : فزتُ ورب الكعبة ! .. »[1] .

* * *

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ . وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩م ؛ و[الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م ؛ و [جمال الدين الأفغاني : موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام] تأليف الدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م و [جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض] تأليف الدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م .

(٣٦) عبد الرحمن الكواكبي

[١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ = ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م]

هو عبد الرحمن بن أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ = ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م] .. واحد من أبرز المجددين والمصلحين الإسلاميين في عصرنا الحديث .

ولد في حلب ، من أرض الشام ، في أسرة « شريفة » النسب ، ذات نفوذ علمي وإداري ، كانت تتوارث « نقابة الأشراف » في حلب الشهباء .

وفي تكوينه العلمي ، درس علوم العربية ، الموروثة والحديثة ، والعلوم الإسلامية ، وأجاد - مع العربية - التركية والفارسية .

وكانت حلب ، يومئذ ، ولاية عثمانية .. وكانت الدولة العثمانية تعيش عصر تراجعها الحضاري والعسكري والسياسي .. الأمر الذي ضيق فيها مساحة الحرية إلى حد كبير .. فنشأ الكواكبي وقد نذر نفسه للجهاد ضد الحكم العثماني ، يعمل على تحرير العرب منه ، ويبشر بإعادة الخلافة الإسلامية إلى الأمة العربية من جديد ! .

اشتغل بالصحافة وهو في الثانية والعشرين من عمره ، ثم أصدر بعد عامين صحيفة [الشهباء] أولى الصحف العربية بحلب ، وبعد إغلاقها من قبل الأتراك العثمانيين أصدر صحيفة

[الاعتدال] ، فلاقت نفس المصير ! ..

ولقد شغل الكواكبي عددًا من المناصب الإدارية والاقتصادية الهامة في ولاية حلب ، واحترف التجارة فترة من الزمن ، كما كان مرجعًا للمحاماة في القانون ! .. وعمل « عرضحالجيًا » ، يحرر ظلامات وشكايات المظلومين ضد الأتراك !؟ .

ولقد تصاعد عداء العثمانيين له ولنشاطه : فأدخلوه السجن ، متهمًا بمحاولة اغتيال الوالي التركي ، وحكم عليه بالإعدام من القضاء التركي بحلب ، ثم برأته محكمة « بيروت » .

ولما ضاقت به دنيا حلب ، وأغلقت أمامه سبل الإصلاح بها ، هاجر سرًا إلى مصر [١٣١٧ هـ = ١٨٩٩ م] ، وفي القاهرة نشر فصول كتابه المتميز [طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد] ، نشرها في صحيفة [المؤيد] دون توقيع .. وفيها طبع كتابه [أم القرى] - وهو مذاكرات اجتماعات جمعية « أم القرى » السرية ، التي ضمت ممثلين للولايات العربية العثمانية ، وللمسلمين في مختلف بلاد الإسلام ، وخارج بلاد الإسلام .. عندما اجتمعوا ، سرًا ، بمكة المكرمة ، فتدارسوا أسباب تخلف المسلمين ، والسبيل إلى نهضتهم .. نشر الكواكبي هذا الكتاب بمصر .. ونشر كذلك كتابه [طبائع الاستبداد] .. وبدلًا من أن يضع اسمه على غلافيهما ، ذكر أن المؤلف هو « الرحالة : ك » ! .. وذلك مخافة انتقام السلطان

العثماني عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] .

ومن مصر - حيث استقر الكواكبي ، وأجرت عليه حكومة الخديو عباس حلمي الثاني [١٢٩١ - ١٣٦٣ هـ = ١٨٧٤ - ١٩٤٤م] راتبا منتظمًا - قام برحلات ساح فيها بعدد من البلاد الإسلامية الآسيوية والأفريقية .

وعندما وافته المنية في [٧ ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ = ١٤ يونيو سنة ١٩٠٢م] صادر رجال السلطان عبد الحميد أوراقه الخاصة ، وأصول كتب كان قد كتبها ولم تنشر .. وراجت شائعات تقول أنه قد مات مسمومًا .. ودفن بالقاهرة .. وعلى قبره كتبت كلمة « الشهيد » ! .. وأبيات شعر لحافظ إبراهيم [١٢٨٧ - ١٣٥١ هـ = ١٨٧١ - ١٩٣٢ م] يقول فيها :

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى ... هنا خير مظلوم هنا خير كاتب

قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا ... عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

* * *

وكانت القضية الكبرى التي شغلت الكواكبي هي استقصاء أسباب تخلف المسلمين ، وبلورة دليل العمل لنهضتهم .. وفي هذا الإطار جاءت الأفكار والقضايا التي عرض لها ، والتي أودعها كتابيه الفريدين : [أم القرى] و [طبائع الاستبداد] ..

● ولقد احتلت الحرية - كنقيض للاستبداد - مكانًا

محوريًا في مشروعه الإصلاحي ؛ لأنه رأى في الاستبداد القيد الذي أعجز كل طاقات الأمة وملكاتها عن الحركة والنهوض .

فالاستبداد مفسد للدين ، الذي هو الطاقة المحركة لجمهور الأمة .. وهو مفسد له في جانب الأخلاق - الذي هو أخطر جوانبه - حتى ليكاد يحوله إلى مجرد عبادات وشعائر لا تقلق بال المستبدين ! .

والاستبداد مفسد للتربية .. باستبعاده السياسة وشئون الاجتماع البشرى من نطاق العلوم التي يربى الناشئة عليها ! .

وهو مفسد للعلوم .. عندما يستبعد علوم الحياة ، التي تفتق ملكات الإبداع والنقد والمقاومة من إطار العلوم التي تسمح النظم المستبدة بدراستها .. « فرائص المستبد ترتعد من علوم الحياة ، مثل : الحكمة النظرية ، والفلسفة العقلية ، وحقوق الأمم ، وسياسة المدنية ، والتاريخ المفصل ، والخطابة الأدبية .. إنه يخاف من العلوم التي توسع العقول ، وتعرف الإنسان ما هو الإنسان ، وما هي حقوقه ، وهل هو مغبون ، وكيف الطلب ، وكيف النوال ، وكيف الحفظ ؟! .. » .

وعلى حين - كما يقول الكواكبي - « يسعى العلماء في نشر العلم ، فإن المستبد يجتهد في إطفاء نوره » ! والاستبداد مفسد للاقتصاد ؛ لأنه يحول ثروة الأمة ، التي هي عطاء الله وفيضه في الطبيعة ؛ من دائرة « اشتراك الأمة فيها » إلى حيث تصبح احتكارًا لقلة من الأغنياء ، يصبحون أعوانًا للمستبد .. إذ

« الأغنياء ربائط المستبد ، يذلهم فيئنون ، ويستدرهم فيحنون ؛ ولهذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها .. » ! .

ولذلك جاءت دراسة الكواكبي عن الاستبداد فريدة في بابها .. وأصبح كتاب [طبائع الاستبداد] وحيدًا في موضوعه .. وشغلت هذه القضية مكان المحور في مشروعه الإصلاحي .. ومن كلماته الجامعة في الحرية والاستبداد : « إن الهرب من الموت موت ، وطلب الموت حياة ! .. وإن الخوف من التعب تعب ، والإقدام على التعب راحة ! .. والحرية هي شجرة الخلد ، وسقياها قطرات من الدم المفسوح .. والأسارة - [العبودية] - هي شجرة الزقوم ، وسقياها أنهر من دم المخاليق المخانيق ! .. والاستبداد لو كان رجلًا وأراد أن ينتسب لقال : أنا الشر ، وأبي الظلم ، وأمي الإساءة ، وأخي الغدر ، وأختي المسكنة ، وعمي الضر ، وخالي الذل ، وابني الفقر ، وبنتي البطالة ، وعشيرتي الجهالة ، ووطني الخراب ، أما ديني وشرفي وحياتي : فالمال ، المال ، المال ! .. » .

فالحرية أم الفضائل جميعًا .. والاستبداد رأس الرذائل بإطلاق ! .

● وفي تشخيص الكواكبي لأسباب تخلف المسلمين - الذي سماه « الفتور » الذي يحول بين الأمة وبين الحركة والنهضة .. رصد - وخاصة في كتابة [أم القرى] - كل الأمراض التي أصابت الحضارة الإسلامية ، الخطير منها

والصغير .. وسلط الضوء على الأسباب الأساسية للتخلف .. من مثل :

١ - عقيدة الجبر والزهد ، المفضية إلى لون من التصوف المعطل لطاقات الناس .. فالطرق الصوفية - وليس التصوف المهذب للنفس والمزكي لها - قد اجتذبت جماهير غفيرة ، أدارت ظهرها لأسباب التقدم وسننه وقوانينه ، وأخلدت إلى التواكل واستنامت للبدع والخرافات .

٢ - وانعدام التنظيمات والجمعيات ، التي تؤلف بين طاقات الناس ، وتضمن للأفكار ، بالشورى ، حصافة أكبر وحصانة تفوق الآراء المفردة .. كما تضمن للمشاريع الكبرى الدوام الذي يتجاوز عمر الأفراد وهمم الأفراد .. وبعبارة الكواكبي « فإن الجمعيات القانونية المنتظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمرًا طويلًا يفي بما لا يفي به عمر الواحد الفرد ، وتأتي بأعمالها كلها بعزائم صادقة لا يفسدها التردد . وهذا هو سر ما ورد في الأثر من أن يد الله مع الجماعة ! .. » .

وهو بذلك قد نبه على أهمية وضرورة التنظيمات السياسية والأحزاب والجمعيات كأدوات للنهضة ، وأدعية لتجميع وترشيد طاقات الأمة الإسلامية .

٣ - والإغراق في الشهوات الحسية ، على النحو الذي لا يميز بين رسالة الإنسان وغرائز الحيوان في هذه الحياة ! .

٤ - واختلال التوازن بين شئون الدنيا وشئون الآخرة في حياة عامة المسلمين ، على النحو الذي جعل « من دأب الشرقيين ألا يفكروا في مستقبل قريب ، كأن أكبر همهم منصرف إلى ما بعد الموت فقط ! » على حين أن الإسلام قد جعل الدنيا عنوانًا للآخرة .. ونبه على أن اختلال التوازن بينهما لابد وأن يفضي إلى خسران الصفقتين معًا ! .

لقد نبه الكواكبي على كثير من أمراض الفكر والسلوك المتوطنة في حياة العامة والخاصة .. وسلط كل الأضواء على أمراض الإدارة العثمانية .. أمراض الظلم الاجتماعي .. والاستبداد بالحكم .. والتحلل الإداري .. والفقر الحضاري .. وتقليد الأجنبي .. والاحتقار للعرب .. وجاهر بضرورة تحرير الأمة العربية من نير العثمانيين ، وإعادة الخلافة عربية ، وتجديد حياة المسلمين بتجديد الفكر الإسلامي الحديث الذي لابد وأن يستجيب لمشكلات العصر الذي يعيشون فيه .

ومن كلماته الجامعة في أسباب فتور الأمة الإسلامية ، تلك التي تقول : « من أسباب فتور المسلمين :

تحول نوع السياسة الإسلامية ، فلقد كانت نيابية اشتراكية أي « ديمقراطية » تمامًا ، فصارت ، بعد الراشدين ، ملكية مقيدة ، ثم صارت أشبه بالمطلقة ..

ولقد أثبت الحكماء أن المنشأ الأصلي لشقاء الإنسان هو وجود السلطة القانونية منحلة ، ولو قليلاً ؛ لفسادها ، أو لغلبة

سلطة شخصية أو أشخاصية عليها .

ومن أعظم أسباب فخر أمتنا : أن شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقًّا معلومًا للبائس والمحروم ، لكن حكوماتنا قد قلبت الموضوع ، فصارت تجبي الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء ، وتحابي بها المسرفين والسفهاء » ! .

لقد دعا إلى حكومة شورية خاضعة لرقابة الأمة : « فالحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها .. » .

وحاول الكواكبي تأليف الجمعيات التي تعمل في سبيل تطبيق المشروع الإصلاحي الذي بشر به ؛ لأنه لم يكن من أنصار الثورات العفوية والتمردات غير المدروسة .. وإنما أكد على « أنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ما يستبدل به الاستبداد ! .. » [1] .

* * *

(١) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م ؛ و [عبد الرحمن الكواكبي : شهيد الحرية ومجدد الإسلام] للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

(٣٧) محمد عَبده

[١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]

هو محمد عبده حسن خير الله . ولد بقرية « محلة نصر » مركز « شبراخيت » محافظة « البحيرة » لأسرة تعتز برجالها ، الذين قاوموا مظالم الولاة والحكام ، وضحوا في سبيل ذلك بالأرض والمال والرجال والاستقرار ! .

وبعد أن تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن بـ « كُتّاب » القرية ، أخذ طريقه إلى التعليم الأزهري بالمعهد « الأحمدي » بطنطا [١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م] لكن عقم أساليب التدريس صدته عن طلب العلم ، فعاد إلى القرية ، وتزوج ، ورغب في الاشتغال ، كإخوته ، في فلاحة الأرض ، لكن والده أصر على عودته إلى طلب العلم ، فهرب إلى أخوال أبيه في قرية « كنيسة أورين » ، وهناك لقيه الشيخ درويش خضر ، وكان صوفيًا - من الطريقة السنوسية - وعلى يديه فتح الله صدره لطلب العلم ، فغادر إلى طنطا .. ثم غادرها إلى الأزهر بالقاهرة ، حيث تحول مجرى حياته عندما تعرف في [١٣٨٨ هـ = ١٨٧١ م] على جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ = ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] وتتلمذ على يديه ، ولازم حلقات درسه ، حتى غدا أصدق أصدقائه ، وأبرز خلفائه في حركته الإصلاحية وتيار الجامعة الإسلامية .

وبعد أن تخرج محمد عبده من الأزهر [١٢٩٤ هـ = ١٨٧٧ م] عين مدرسًا للتاريخ بمدرسة دار العلوم العليا ، كما درَّس بمدرسة الألسن ، وشرح لطلابه مقدمة ابن خلدون ، وعلم الاجتماع والعمران .. وكان يكتب في الصحافة .. ويعمل بالسياسية ، مع أستاذه الأفغاني : من خلال « الحزب الوطني الحر » .

وعندما نفي الأفغاني من مصر [١٢٩٦ هـ = ١٨٧٩م] عزل محمد عبده من التدريس ، وحددت إقامته بقريته ، إلى أن استصدر له ناظر النظار رياض باشا [١٢٥٠ - ١٣٢٩هـ = ١٨٣٤ - ١٩١١م] عفوًا خديويًّا ، وعينه محررًا أول لصحيفة « الوقائع المصرية » فطورها ، وأنشأ بها قسمًا غير رسمي ، نشر فيه - هو وغيره - الكثير من المقالات الفكرية في مختلف الفنون .

ولم يكن محمد عبده من أنصار « الثورة » طريقًا للتغيير ، وإنما كان من أنصار الإصلاح التدريجي : وخاصة بواسطة التربية والتهذيب والتعليم ؛ وصولاً إلى تكوين النخبة التي تربي الأمة ، حتى تأتيها ثمرات الإصلاح ناضجة راسخة وبالتدريج .. لكن الحزب الجهادى - العسكري - الذى كان يقوده أحمد عرابي باشا [١٢٥٧ - ١٣٣٩ هـ = ١٨٤١- ١٩١١ م] قد دخل بمصر إلى طريق الثورة .. وبعد مظاهرة عابدين [٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م] التي جاءت لمصر

بالحكم النيابي والدستور ، والتي أعقبتها - أيضًا - تهديدات إنجليزية وفرنسية لاستقلال مصر ، انخرط محمد عبده وحزبه في خضم الثورة العرابية ، لكنه مثل في قيادتها جناح الاعتدال .. حتى إذا هزمت الثورة ، واحتل الإنجليز مصر في [سبتمبر سنة ١٨٨٢م] سجن وحوكم مع زعماء الثورة ، ونفي إلى خارج البلاد ثلاث سنوات ، امتدت إلى ست سنوات .. ولقد بدأ منفاه ببيروت .. ومنها لحق بالأفغاني في باريس ، حيث انخرط في العمل السياسي ، رئيسًا لتحرير مجلة « العروة الوثقى » ونائبًا للأفغاني في رئاسة التنظيم الذي تنطق باسمه هذه المجلة [جميعة العروة الوثقى] السرية ، وبهذه الصفة تنقل ، سرًا ، في كثير من البلاد راعيًا ومتابعًا « عقود التنظيم » - « خلاياه » .

وبعد توقف المجلة .. وانقضاء السنوات الثلاث المحكوم عليه بالنفي فيها .. تطرق اليأس من العمل السياسي المباشر إلى نفس محمد عبده ، وعاودته الرغبة في الإصلاح بمنهاج التربية والتعليم والتجديد الفكري وإصلاح مناهج التفكير لدى المسلمين ، ففارق أستاذه ، وعاد إلى بيروت معلمًا بالمدرسة السلطانية ، ومفسرًا للقرآن بالمسجد العمري ، ومؤلفًا ، ومحققًا لكتب التراث الإسلامي .. فبدأ المرحلة التي تفرغ فيها للاجتهاد والتجديد ، حتى غدا المهندس الأول لفكر هذه الحركة الإصلاحية .. فعلى حين اتفق والأفغاني في منهاج

التجديد الفكري ، ركز الأفغاني على العمل السياسي ، وتفرغ محمد عبده للتجديد الفكري والتربية والتعليم .

وفي [١٣٠٦ هـ = ١٨٨٩م] نجحت مساعي أصدقائه فعاد إلى مصر .. وإذا كان هو قد أدار ظهره للعمل السياسي المباشر ، فإن الخديوي توفيق [١٢٦٨ - ١٣٠٩ هـ = ١٨٥٢- ١٨٩٢ م] لم يقنع بذلك ، فأبعده عن مهنته المحببة : التدريس .. فاشتغل بالقضاء ، حتى أصبح مستشارًا بمحكمة الاستئناف سنة [١٨٩١م] وكان قد عين في « مجلس شورى القوانين » [١٣١٧ هـ = ١٨٩٩ م] . وشارك في تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية [١٣١٠ هـ = ١٨٩٢ م] ورأسها في [١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م] .. وأسس - لإحياء التراث - « جمعية إحياء الكتب العربية » [١٣١٨هـ = ١٩٠٠ م] .. وتولى منصب مفتي الديار المصرية [١٣١٧ هـ = ١٨٩٩ م] ..

ومن هذه المواقع والمناصب كرس جهوده للعمل الفكري .. فخاض المعارك الفكرية الكبرى مع « جابرييل هانوتو » [١٨٥٣ = ١٩٤٤م] دفاعًا عن الإسلام .. ومع « فرح أنطون » [١٨٦١ = ١٩٢٢م] دفاعًا عن الإسلام وحضارته .. ومن خلال مجلة [المنار] - التي أصدرها تلميذه رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م] بلغت دعوته في التجديد والإصلاح إلى كل أرجاء العالم

الإسلامي .. وكان تفسيره لما فسر من القرآن الكريم .. ورسالته التي جدد بها علم الكلام الإسلامي - [رسالة التوحيد] - .. مع معاركه الفكرية .. وفتاواه .. المعالم الفكرية لمشروع النهضة الإسلامية ، الذي تجاوز جمود أهل التقليد ، ورفض تبعية المنبهرين بالحضارة الغربية الغازية .. فمن موقع الوسطية الإسلامية ، صاغ الأستاذ الإمام للأمة معاصرة إسلامية متميزة ، هي الامتداد المتطور لأصالتها الإسلامية المتميزة .

وإلى جانب المشروع الفكري ، ركز - في الميدان العملي - على إصلاح المؤسسات الثلاث التي تقوم على صياغة العقل والوجدان الإسلامي : الأزهر .. والمساجد .. والمحاكم الشرعية .. ولقد حقق في هذا الميدان نجاحات لم تبلغ الحد الذي كان يريد ؟! .

وفي [أعماله الكاملة] - بمجلداتها الخمسة - تتمثل واحدة من أبرز ثمرات الفكر الإصلاحي في عصرنا الحديث [1] .

* * *

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٣م ، و [الإمام محمد عبده : مجدد الدنيا بتجديد الدين] للدكتور محمد عمارة . طبعة دار الشروق . القاهرة سنة ١٩٨٨م .

(٣٨) رشيد رضا

[١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م]

هو السيد محمد رشيد بن علي رضا - ولد بقرية « القلمون » - وإليها ينسب - « القلموني » - وهي في نواحي طرابلس الشام - بشمال لبنان - .. وأصل أسرته من بغداد .

وفي القرية حفظ القرآن الكريم ، ووجهته أسرته إلى العلم الديني .. فدرس بالمدرسة الوطنية الإسلامية - بطرابلس - ثم في بيروت .. وبعد دراسة علوم القرآن والحديث والفقه واللغة - على النمط الشبيه بالأزهر - نال شهادة [العالمية] من طرابلس الشام .

وفي المرحلة الأولى من تكوينه الفكري ، غلب عليه منهاج « المنقول » والمأثورات .. وتأثر كثيرًا بكتاب [إحياء العلوم] للغزالي ، فمال إلى الزهد والتصوف ، وانخرط - مريدًا - في « الطريقة النقشبندية » ، ومارس الوعظ والإرشاد في قريته والقرى المحيطة بها .. وعينه « متصرف » طرابلس - الذي أعجب بخطاباته - عضوًا في « شعبة المعارف » ..

وفي [١٣١٠ هـ = ١٨٩٢ م] حدث له تحول في توجهه الفكري ؛ إذ بينما هو يقلب في أوراق والده ، عثر على بعض أعداد مجلة [العروة الوثقى] التي أصدرها - من باريس -

جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] ومحمد عبده [١٢٦٦ - ١١٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] في سنة [١٨٨٤م] - فأحدث فكرها في عقله انقلابًا عميقًا وشاملاً - وبدأ بهذا الفكر مرحلة من حياته أصبح فيها - وعلى امتداد أكثر من أربعين عامًا - ترجمان فكر هذا التيار الإصلاحي في اليقظة الإسلامية الحديثة .. ولقد تحدث عن هذا التحول الذي أحدثته في فكره أعداد [العروة الوثقى] فقال : « .. لقد كان كل عدد منها كسلك من الكهرباء ، اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بي من طور إلى طور ومن حال إلى حال .. وتعلمت منها : أن الإسلام ليس روحانيًا أخرويًا فقط ، بل هو دين روحاني جسماني ، أخروي دنيوي ، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق ، ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل .. فتعلقت نفسي بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية والمحافظة على ملكهم ، ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات ، وجميع مقومات الحياة . فطفقت أستعد لذلك استعدادًا .. » .

ومنذ ذلك التاريخ سعى رشيد رضا لصحبة الأفغاني .. فلما لم يتيسر له ذلك .. هاجر إلى مصر [١٣١٥ هـ = ١٨٩٧م] فلقي الإمام محمد عبده ، واتفق معه على أن يكون تلميذه ،

وترجمان فكره ، وأصدر مجلة [المنار] - التي ظلت منبر هذا التيار التجديدي لأكثر من أربعين عامًا .

وبعد وفاة الإمام محمد عبده [١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م] واستقلال رشيد رضا بالقيادة الفكرية لهذا التيار ، اقترب أكثر من ذي قبل من « العمل السياسي » ، فاهتم بمعالجة علاقات العرب بالأتراك .. والمسألة الشرقية .. والتدخل الاستعماري الغربي في الشرق الإسلامي .. وشئون الخلافة الإسلامية .. والخطر الصهيوني على فلسطين - وكان أحد أقطاب [حزب اللا مركزية] الذي أراد إصلاح الإدارة العثمانية ، على نحو يحفظ وحدة الدولة ويستجيب للطموحات العربية المشروعة في إطارها - وهو الحزب الذي تكون [١٣٣٠ هـ = ١٩١٢م] .. كما كانت له علاقات بالمشاريع السياسية للشريف حسين بن علي [١٢٧٠ - ١٣٥٠هـ = ١٨٥٤ - ١٩٣١ م] والملك عبد العزيز آل سعود [١٢٩٣ - ١٣٧٣هـ = ١٨٧٦ - ١٩٥٣م] ..

لكن ، يظل الإنجاز الأعظم لرشيد رضا على الجبهة الفكرية : مجلة المنار .. وإذاعته لفكر محمد عبده وجمال الدين الأفغاني .. ومواصلته جهود محمد عبده في تفسير القرآن - [تفسير المنار] - وتأريخه لحياة محمد عبده ومدرسته .. والكتب الكثيرة والفتاوى العديدة التي واصل فيها وبها حركة التيار التجديدي ، والتي خاض بها الكثير من

المعارك الكبرى التي شهدها العالم الإسلامي في مرحلة الزحف الاستعماري والفكر التغريبي على عالم الإسلام [1] .

* * *

(١) [تاريخ الأستاذ الإمام رشيد رضا] - طبعة القاهرة سنة ١٩٣١م ، و[مسلمون ثوار] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٨م .

(٣٩) ابن باديس

[١٣٠٧ - ١٣٥٩ هـ = ١٨٨٩ - ١٩٤٠ م]

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس .. رئيس « جمعية العلماء المسلمين بالجزائر » .. والأب الشرعي للنهضة الإسلامية والحركة الوطنية الجزائرية الحديثة والمعاصرة .

ولد بمدينة « قسنطينة » ، وبها درس علوم العربية والإسلام .. ثم رحل إلى تونس فالتحق بجامعة « الزيتونة » سنة [١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م] وطلب العلم فيها على يدي عدد من أكابر العلماء ، منهم : الشيخ محمد النخلي ، والشيخ الطاهر بن عاشور .. فارتبط بفكر مدرسة التجديد والإحياء الإسلامي - مدرسة الأفغاني ومحمد عبده .

ومنذ مرحلة مبكرة من حياته توجه إلى رفض الواقع الاستعماري الفرنسي في الجزائر ، والذي بلغ في مسخه لهوية الجزائر - « العربية - الإسلامية » حد جعلها « ولاية فرنسية » وامتدادًا لاتينيًا لفرنسا عبر البحر المتوسط ، وليس فقط مجرد مستعمرة فرنسية .. وكان شيخه « حمدان الونيسي » قد عاهده على أن لا يخدم الحكم الاستعماري في الجزائر ، فأصبح هذا « العهد » تقليدًا يعاهد به ابن باديس تلامذته ومريديه ! .

ولقد سافر إلى الحجاز حاجًا سنة [١٣٣٠هـ = ١٩١٢م] .. وهناك عرض عليه بعض العلماء الجزائريين المقيمين بمكة والمدينة أن

يجاور مثلهم الحرمين الشريفين .. لكنه رفض ، وعبر عن مشروعه لاسترداد الجزائر للعروبة والإسلام ، فقال : « نحن لا نهاجر . نحن حراس الإسلام والعربية والقومية في هذا الوطن » ! .

وعلى امتداد ما يقرب من العشرين عامًا - من عودته إلى الجزائر سنة [١٣٣١ هـ = ١٩١٣ م] وحتى إعلانه تكوين « جمعية العلماء المسلمين في الجزائر » سنة [١٣٤٩هـ - ١٩٣١م] - استبسل ابن باديس في ملحمة لصناعة الرجال ، الذين يمتلكون - حسب قوله - : « فكرة صحيحة ولو مع علم قليل » ! .. وكان التعليم في المساجد والكتاتيب .. وكان الوعظ ، وتفسير القرآن الكريم كما كانت الصحافة .. هي سبيله إلى هذا الإنجاز ، الذي جمع حول ابن باديس نحوًا من ألف رجل عزموا على استرجاع الجزائر إلى العروبة والإسلام .

ومنذ سنة [١٣٤٣هـ = ١٩٢٥م] أطل ابن باديس على الرأي العام الجزائري من خلال الصحافة .. فشارك في جريدة [النجاح] وأصدر [المُنتقد] فلما ألغتها الإدارة الفرنسية أصدر [الشهاب] .. و [الشريعة] و [السنة المحمدية] و [الصراط] .

وعندما احتفل الفرنسيون بمرور قرن على احتلالهم للجزائر ، وخطب الكاردينال « لافيجري » فقال : « لقد ولى عهد الهلال وأقبل عهد الصليب » في الجزائر .. جاء الرد على هذا التحدي بإعلان ابن باديس تكوين « جمعية العلماء المسلمين في الجزائر » سنة [١٣٤٩ هـ = ١٩٣١ م] .. وهي الجمعية التي

قادت صناعة الجيل الذي أحيا الانتماء « العربي الإسلامي » للجزائر ، وعهد للجيل الذي ثار بالسلاح ، لتحقيق هذا الهدف سنة [١٣٧٤ هـ = ١٩٥٤ م] .

ولقد بلغت مقالات ابن باديس وخطبه - عندما جمعت - أربع مجلدات .. وكانت مع تفسيره للقرآن - [مجالس التذكير] - وكتبه الأخرى : كتائب الفكر المجاهد ، التي انتزعت الجزائر من « الفرنسة » إلى الاستقلال والعربية والإسلام .

وعندما انتصرت الثورة الجزائرية ، واستقلت الجزائر سنة [١٣٨٢هـ = ١٩٦٢م] لم يكن هناك خلاف على أن هذه الثمرة الطيبة هي من جني غرس الشيخ عبد الحميد بن باديس .

* * *

(٤٠) حسن البنا

[١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م]

على امتداد أوطان الأمة الإسلامية - من « غانة » إلى « فرغانة » - شرقًا ومن « حوض نهر الفولجا » إلى جنوبي « خط الاستواء » - بل وفي مواطن الأقليات الإسلامية خارج دار الإسلام - إذا نظر الباحث المنصف إلى ظواهر وحركات ومشروعات البعث والنهضة والتغيير والإصلاح .. فسيجد ظاهرة الصحوة الإسلامية ومشروعها الحضاري أقوى وأخطر وأكبر وأعمق ظواهر ومشاريع العصر الذي نعيش فيه .. يستوي في ذلك التقييم : الباحثون المؤيدون ، أو المناوئون لهذا المشروع .

والحقيقة الثانية : التي لن تجد عليها خلافًا بين الباحثين ، ولا بين حركات وتيارات هذه الصحوة الإسلامية : هي الأبوة والإمامة والريادة التي يمثلها الإمام الشهيد حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] بالنسبة لهذه الظاهرة الكبرى ، التي تمثل أمل النهضة لدى الإسلاميين .. والقلق المخيف لأعداء الإسلاميين ! ..

أما الحقيقة الثالثة - في هذا المقام : فهي أن أبوة وإمامة وريادة حسن البنا لهذا الإحياء الإسلامي المعاصر ، إنما تمثل الحلقة « المعاصرة » في سلسلة الإحياء الإسلامي « الحديث » .. إنها مرحلة متميزة في « الكم » و « الكيف » .. ولكنها امتداد

متطور ، لمرحلة « النشأة » و « التبلور » التي تمثلت في حركة « الجامعة الإسلامية » التي ارتاد ميدانها ورفع أعلامها إمام الإحياء الإسلامي في العصر الحديث جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] والتي كان الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] المهندس الأعظم لتجديدها الفكري .. كما مثل الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م] الامتداد الذي أسلم أمانتها إلى حسن البنا ، الذي انتقل بها إلى هذا « الكيف » المعاصر الذي نعيش فيه .

لقد بدأ المشروع الحضاري الإسلامي ، على يد الأفغاني ، حركة تجديد واجتهاد وإحياء ، تستهدف تحرير العقل المسلم ليواجه ويتجاوز التخلف الموروث عن الحقبة « المملوكية - العثمانية » ، وليتمكن من مواجهة التحدي الحضاري الغربي ، الذي اقتحم حياتنا الفكرية وواقعنا الإسلامي في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة .. وبعبارة محمد عبده ، فلقد « وجه الأفغاني عنايته لحل عقد الأوهام عن قوائم العقول » .

أما مقصده السياسي : « فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شئونها ، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفي مجده » [1] !

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٢ ص ٣٤٩ ، ٣٥٢ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

وفي هذا المشروع الحضاري « رابط » محمد عبده على « ثغرة الفكر » ، وجاهد في ميدانها جهادًا عظيمًا ، حتى جعله اجتهاده المهندس الأعظم لفكر هذا المشروع .. وبعبارته هو ؛ التي يتحدث فيها عن « الثغرة الفكرية » التي « رابط » عليها مجددًا ومجاهدًا .. يقول : « لقد ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه .. لتتم حكمة الله في حفظه نظام العالم الإنساني ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقًا للعلم ، باعثًا على البحث في أسرار الكون ، داعيًا إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبًا بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل ، كل هذا أعده أمرًا واحدًا . وقد خالفتُ في الدعوة إليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم ! .

أما الأمر الثاني : فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير ... »[1] .

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣١٨ .

وعلى امتداد ما يقرب من أربعين عامًا [١٣١٥ هـ - ١٨٩٨م = ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥م] كانت مدرسة [المنار] - التي قادها رشيد رضا - هي ترجمان هذا التيار ، الذي وضع الأسس والمعالم للمشروع الحضاري الإسلامي ، والذي كون له : « العقل - الصفوة - النخبة » - كما تمثلت في تنظيماته - وأبرزها تنظيم [جمعية العروة الوثقي] .

تصاعد التحدي .. وعموم البلوى ؟! ..

في أوائل هذا القرن العشرين حذر الإمام محمد عبده من عواقب صراع « العرب » و « الأتراك » ، لأن « هذان الشعبان هما أقوى شعوب الإسلام .. ودول أوربة واقفة لهما بالمرصاد .. فإذا وهنت قوتهما في الصراع ، وثبت دول أوربة ، فاستولوا على الفريقين ، أو على أضعفهما .. فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق على حياته .. »[1] .

وبعد خمسة عشر عامًا من هذا « التحذير - النبوءة » وقع المحظور .. وبدأ عموم البلوى يخيم على سائر بلاد الإسلام .. فالشريف حسين بن علي [١٢٧٢ - ١٣٥٠ هـ = ١٨٥٦ - ١٩٣١ م] تمرد على الدولة العثمانية سنة [١٣٣٤هـ = ١٩١٦م] استجابة لعوامل داخلية ، ومدفوعًا بإغراءات إنجليزية ! .. ففتحت في جدار دولة الإسلام الكبرى الثغرة التي

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٧٣٥ .

أفضت إلى تنفيذ الغرب لمعاهدة « سيكس - بيكو » السرية ، التي عقدوها سنة [١٣٣٤ هـ = ١٩١٦ م] لتقسيم تركة الدولة العثمانية بين أقطاب التحالف الغربي .. ولوعد بلفور سنة [١٣٣٦هـ = ١٩١٧م] بإقامة الكيان الصهيوني ، قاعدة غربية على أرض فلسطين .

واحتل الفرنسيون الشام ، وقال قائدهم « جورو » أمام قبر صلاح الدين الأيوبي : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » .

واحتل الإنجليز فلسطين والعراق ، وقال قائدهم « اللنبي » عندما دخل القدس : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » ! .

وبعد أن رفرفت رايات الاستعمار الغربي على أوطان الأمة الإسلامية - من غانة إلى فرغانة أسقطت الخلافة الإسلامية سنة [١٣٤٢هـ = ١٩٢٤م] .. فعمت البلوى ، التي جاهد ضدها الأفغاني .. وحذر منها محمد عبده ، وتيار الجامعة الإسلامية لأكثر من نصف قرن من الزمان ! ..

بل لقد حدث ما هو أخطر من احتلال الأرض ، ونهب الثروة ؛ حدث الاختراق للعقل المسلم ، وبدأ صوت « التغريب » - على لسان نفر من أبناء الأمة - يبشر بأن الخلاص لن يتحقق إلا عبر تبني المشروع الحضاري الغربي ، بخيره وشره ، بحلوه ومره ، بصوابه وخطئه .. فنحن منه ؛ لأننا أبناء حضارة البحر المتوسط .. وعقلنا يوناني ، لم يغير القرآن من يونانيته ، كما لم يغير الإنجيل يونانية العقل الغربي -

إذ القرآن مصدق للإنجيل [1] - .. والإسلام ليس إلا رسالة روحية ، لا سياسة فيها ولا دولة ولا حكم .. بل يا بُعد ما بينها وبين السياسة ، وما كان محمد إلا صاحب سلطان روحي ، كالخالين من الرسل ، لم يقم دولة ، ولم يرأس حكومة .. فرسالته ، كسابقتها ، تدع ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه [2] ! .. وللمؤمنين أن يؤمنوا ما شاء لهم الإيمان بقصص القرآن ، لكن الباحثين لا بد لهم من الشك فيه [3] ! وليست العربية هي لغة النهضة والتقدم ، لأنها لغة القرآن والأخلاقيات العربية ، لا لغة الديمقراطية والبرلمانات [4] ! .. ومعايير النضج الفكري هي الإيمان بالغرب والكفران بالشرق [5] ! ..

نعم .. حدث هذا الاختراق .. وصدرت الكتب العربية الحاملة لهذه الأفكار ، وأمثالها ، لنفر من أعلام الفكر العربي في العقد الثالث من هذا القرن العشرين .. الأمر الذي اهتز له

---

(١) انظر : د. طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] جـ ١ ص ٤٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

(٢) انظر : الشيخ علي عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص ٤٨ - ٨٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

(٣) انظر : د. طه حسين [في الشعر الجاهلي] ص ٨٠ ، ٨١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .

(٤) انظر : سلامة موسى [البلاغة العصرية واللغة العربية] طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥ م .

(٥) انظر : سلامة موسى [اليوم والغد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .

ضمير الأمة كما لم يهتز في منعطف من منعطفات التحديات التاريخية التي واجهتها .. فكانت الاستجابة الإيجابية أمام هذا التحدي ، تعبيرًا عن نفاسة المعدن .. وتحقيقًا للسنة الإلهية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1] .. سنة : حفظ الإسلام بالمسلمين .. وتجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام ! ..

الجامعة الإسلامية في طور جديد

نعم .. كان الإسلام ، على مر تاريخ الأمة ، هو حصنها المنيع عندما تهدد الملمات والتحديات وجودها .. وكانت صيحة : « وا إسلاماه ! » هي كلمة السر التي تتنادى بها الأمة ، وتتداعى إليها عقولها وقلوبها .. خاصتها وجماهيرها .. كان هذا هو قانون « التحدي » و « التصدي » على مر تاريخ الإسلام والمسلمين .. ولقد عاد ليعمل عندما عمت البلوى أثناء وعقب الحرب الاستعمارية العالمية الأولى ..

● ففي سنة [١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م] اجتمع صفوة علماء الإسلام بالقاهرة ، وأسسوا [جمعية الشبان المسلمين] .

● وفي العام التالي [١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م] حدثت « اللحظة التاريخية » ، التي مثلت « التطور النوعي » لإنجاز حسن البنا في سياق تطور المشروع الإسلامي للنهضة الحضارية .. عندما أدرك الرجل أن تصاعد التحدي .. وثغرات

(١) الحجر : ٩ .

الاختراق .. وعموم البلوى ، إنما تتطلب الانتقال بالقضية من إطار الصفوة والنخبة - الذي كانت عليه منذ [العروة الوثقى] وحتى [الشبان المسلمين] - إلى الدائرة التي تشترك فيها « الأمة » مع « النخبة » ، وإلى المستوى الذي تسهم فيه « الجماهير » مع « الصفوة » في مواجهة التحديات ..

لقد كان النصف قرن الذي مضى من عمر الجامعة الإسلامية : تأسيسًا لمشروع النهضة الإسلامية .. وتكوينًا « للعقل » القائد لهذا المشروع .. وأمام تصاعد التحديات .. والاختراق من الداخل .. كان لابد من بلورة « جسم » لهذا « العقل » ! .. فكان الإنجاز التاريخي لحسن البنا في سياق الإحياء الإسلامي : الانتقال بـ « أسس المشروع الحضاري » إلى « معالم » أشد وضوحًا ، وأكثر تفصيلاً ، حتى ليقترب بها من « البرنامج » المقدم « للجماهير » .. والانتقال بـ « التنظيم » الحامل للرسالة ، من إطار « الصفوة » - كما كان الحال في [جمعية العروة الوثقى] - إلى إطار « الجماهير » - كما تجسد في [جماعة الإخوان المسلمين] ! ..

تلك هي اللحظة التاريخية لحسن البنا .. وذلك هو التطور النوعي ، والإضافة الكيفية لإنجازه ، في السياق التاريخي لحركة الإحياء الإسلامي الحديث .. وتلك هي « بصمته » الخالدة في ظاهرة الصحوة الإسلامية المعاصرة ! .

معالم المشروع الحضاري

وإذا كان المقام لا يتسع لحديث مفصل عن معالم المشروع الإسلامي للنهضة الحضارية ، كما صاغه الإمام الشهيد حسن البنا ، لحركة الصحوة الإسلامية المعاصرة ، ممثلة في [جماعة الإخوان المسلمين] .. فإننا نقف هنا عند « عناوين » أمهات المسائل في هذا المشروع .. وهي « عناوين » شاهدة على شمول المشروع للإجابات الإسلامية على أهم التحديات وعلامات الاستفهام التي مثلت ، يومئذ ، أبرز العلل والمخاطر والتحديات .

● ففي مواجهة « التغريب » .. الذي اخترق عقل الأمة ، وغدا له أنصار من بين أبنائها .. يقف مشروع الأستاذ البنا ليقول : « إن الحضارة الغربية ، بمبادئها المادية ، قد انتصرت في هذا الصراع الاجتماعي على الحضارة الإسلامية ، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معًا ، في أرض الإسلام نفسه ، وفي حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم ، كما انتصرت في الميدان السياسي والعسكري .. وكما كان لذلك العدوان السياسي أثره في تنبيه المشاعر القومية ، كان لهذا الطغيان الاجتماعي أثره كذلك في انتعاش الفكرة الإسلامية [1] .. إن مدنية الغرب ، التي زهت بجمالها العلمي حينًا من الدهر ، وأخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم

(١) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] – رسالة المؤتمر الخامس – ص ١٥٠ – ١٥١ . طبعة دار الشهاب . القاهرة .

لدوله وأممه ، تفلس الآن وتنتحر ! .. فهذه أصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات ، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات .. وأصولها الاجتماعية تقضي عليها المبادئ الشاذة والثورات المندلعة في كل مكان . وقد حار الناس في علاج شأنها وضلوا السبيل [1] ! .. ونحن نريد أن نفكر تفكيرًا استقلاليًا ، يعتمد على أساس الإسلام الحنيف ، لا على أساس الفكرة التقليدية التي جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته في كل شيء ، نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة ، تجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد [2] ! .. » .

● ولقد كان رفض « التغريب » في مشروع الأستاذ البنا رفضًا « للتقليد .. والتبعية » .. ولم يكن رفضًا « للتفاعل - الصحي » بين الحضارات .. ولا دعوة « للعزلة .. والانغلاق .. والاكتفاء الذاتي » ! .. فهو الذي يقول عن حضارتنا الإسلامية ، وأمتنا الإسلامية : « لقد اتصلت بغيرها من الأمم ، ونقلت كثيرًا من الحضارات ، ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومتانة نظامها عليها جميعًا ، فعربتها أو كادت ، واستطاعت أن تصبغها وأن تحملها على لغتها ودينها بما فيهما من روعة وحيوية وجمال ، ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعًا ،

(١) المصدر السابق - رسالة نحو النور . ص ٥٩ ، ٦٠ .
(٢) المصدر السابق - رسالة : دعوتنا في طور جديد . ص ١٢٠ .

من غير أن يؤثر ذلك في وحدتها الاجتماعية أو السياسية .. » [1] .

● وفي مواجهة « التخلف الموروث » .. وتيارات « التقليد » لهذا « التخلف » .. دعا حسن البنا إلى « التجديد » .. وحدد في صراحة ووضوح ، أن دعوته هي واحدة من « الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب .. » [2] .. وطالب - في النظرة النقدية للتراث والتاريخ - بالتمييز بين « الدين - الثابت » وبين « الفكر - المتغير » و « الممارسات - البشرية » .. ذلك « أن أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو كتاب الله ، تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ .. وأن كثيرًا من الآراء والعلوم التي اتصلت بالإسلام وتلونت بلونة تحمل لون العصور التي أوجدتها والشعوب التي عاصرتها ، ولهذا يجب أن تستقي النظم الإسلامية ، التي تُحمل عليها الأمة ، من هذا المعين الصافي ، معين السهولة الأولى ، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح ، رضوان الله عليهم ، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا به الله ، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه . والإسلام دين البشرية جمعاء ! .. » [3] .

ووقف موقفًا نقديًا من تاريخ الدولة الإسلامية ، عندما حدد

(١) المصدر السابق - رسالة : بين الأمس واليوم . ص ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق - رسالة : دعوتنا في طور جديد . ص ١٢٢ .

(٣) المصدر السابق - رسالة : المؤتمر الخامس . ص ١٥٤ - ١٥٥ .

العوامل السبعة التي أدت إلى تحلل كيانها .. وهي :

أ - الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه .

ب - والخلافات الدينية والمذهبية .

جـ - والانغماس في ألوان الترف والنعيم .

د - وانتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب ، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه .

هـ - وإهمال العلوم العملية والمعارف الكونية ، وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة .

و - وغرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم ، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم ، حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة ، وأخذتهم على غرة .

ز - والانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم ، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم ، والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع ! »[1] .

● وفي مواجهة الذين اكتفوا من مقاصد « الاستقلال »

(١) المصدر السابق - رسالة : بين الأمس واليوم . ص ١٣١ ، ١٣٢ .

بالاستقلال « السياسي » - الذي يقف عند « العَلَم .. والنشيد » ؟! .. دعا حسن البنا إلى الاستقلال الذي يحقق « سيادة الأمة » ؛ لأن الإسلام لا يرضي من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال ، فضلاً عن السيادة وإعلان الجهاد ، ولو كلفهم ذلك الدم والمال .. »[1] .. وإلى الاستقلال الاقتصادي - للأمة - وليس لقطر واحد من أقطارها ... فالهدف هو تحقيق « نظام اقتصادي استقلالي للثروة والمال والدولة والأفراد[2] .. والنقد[3] ذلك أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والإسلام تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي ، وتنقذنا من هذا التحكم الغربي في التصدير والاستيراد وما إليهما[4] .. » .. وإلى « الاستقلال الحضاري » الذي يعيد لأمة الإسلام وحضارته مكانة الإمامة للدنيا وموقع الشهود على العالمين .. « فلقد كانت قيادة الدنيا ، في وقت ما ، شرقية بحتة ، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية ، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية ، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى ، ونهض الغرب نهضته الحديثة فورث الغرب القيادة العالمية .. وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط ، فلم تبق إلا أن تمتد يد « شرقية » قوية ، يظللها لواء الله ، وتخفق على رأسها راية القرآن ، ويمدها جند الإيمان القوي المتين ، فإذا الدنيا مسلمة هانئة ، وإذا

(١) المصدر السابق - رسالة : المؤتمر الخامس . ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢) المصدر السابق - رسالة : الإخوان المسلمون تحت راية القرآن . ص ١٠٠ .

(٣) المصدر السابق . رسالة : مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي . ص ٢٣٨ .

(٤) المصدر السابق . رسالة : مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي . ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

بالعوالم كلها هاتفة : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [1] .. » [2] .

إنه استقلال الحضارة « المتميزة » - لا « المنغلقة » ولا « التابعة » ذلك أن « الإسلام لا يأبى أن نقتبس النافع ، وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها ، ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه في كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء ، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه لنجري وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين ! .. » [3] .

• وفي مواجهة المضمون الغربي ، الضيق الأفق ، والانعزالي ، لكل من « الوطنية » و « القومية » .. يقدم مشروع الأستاذ البنا الصيغة التي تحقق الانسجام بين درجات الانتماء : الوطني .. والعربي .. والإسلامي .. والإنساني .. « فالإسلام قد وفق بين شعور الوطنية الخاصة وشعور الوطنية العامة [4] .. ومصر هي قطعة من أرض الإسلام ، وزعيمة أممه [5] .. وفي المقدمة من دول الإسلام وشعوبه [6] .. ونحن نرجو أن تقوم

---

(١) الأعراف : ٤٣ .

(٢) مجموعة الرسائل . رسالة : نحو النور . ص ٦٠ .

(٣) المصدر السابق . رسالة : الإخوان المسلمون تحت راية القرآن . ص ٩٨ .

(٤) المصدر السابق . رسالة : نحو النور . ص ٦٢ - ٦٣ .

(٥) المصدر السابق . رسالة : إلى الشباب . ص ٨٨ .

(٦) المصدر السابق . رسالة : الإخوان المسلمون تحت راية القرآن . ص ٩٩ .

في مصر دولة مسلمة تحتضن الإسلام ، وتجمع كلمة العرب وتعمل لخيرهم ، وتحمي المسلمين في أكناف الأرض من عدوان كل ذي عدوان ، وتنشر كلمة اللّٰه وتبلغ رسالته .. فالمصرية لها في دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها في الكفاح والنضال .. ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ، ولخير العالم كله ! .. »[1] .

● وفي مواجهة « الغلاة » .. الذين لا يرون في المجتمعات الإسلامية ، وفي عقائد المسلمين المعاصرين إلا شوائب الكفر والجاهلية .. فيحكمون بهما على الأمة .. أو على النظم والمجتمعات .. يقدم مشروع الأستاذ البنا الموقف الموضوعي المتوازن .. فنحن « لا نكفر مسلمًا أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض - برأي أو معصية - إلا إن أقر بكلمة الكفر ، أو أنكر معلومًا من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملًا لا يحتمل تأويلًا غير الكفر .. »[2] .

« ولقد اندمجت مصر بكليتها في الإسلام بكليته ، عقيدته ولغته وحضارته ، ودافعت عنه وذادت عن حياضه وردت عنه عادية المعتدين .. ومن هنا بدت مظاهر الإسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة في كثير من جوانب الحياة المصرية ، فأسماؤها

(١) المصدر السابق . رسالة : دعوتنا في طور جديد . ص ١١٢ - ١١٤ .
(٢) المصدر السابق . رسالة : التعاليم . ص ٢٧١ .

إسلامية ، ولغتها عربية ، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله ويعلو منها نداء الحق صباح مساء ، وهذه مشاعرنا لا تهتز لشيء اهتزازها للإسلام وما يتصل بالإسلام .. » .. والمعركة قائمة بيننا وبين الشوائب التي وفدت إلينا من الحضارة الغربية ، تلك « الحضارة التي غزتنا غزوًا قويًّا .. فانحسر ظل الفكرة الإسلامية عن الحياة الاجتماعية المصرية في كثير من شئونها الهامة ، واندفعنا نغير أوضاعنا الحيوية ونصبغ معظمها بالصبغة الأوربية ، وحصرنا سلطان الإسلام في حياتنا على القلوب والمحاريب ، وفصلنا عنه شئون الحياة العملية ، وباعدنا بينه وبينها مباعدة شديدة ، وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو متناقضة ! .. »[1] .. فالمعركة معركة تنقية المجتمعات الإسلامية من الدخيل ، الذي أقام فيها الثنائية والتذبذب بين روح الإسلام وبين الروح المادية الإلحادية ، روح اللذة والشهوة ، الذي تميزت به الحضارة الغربية .. وليست معركة مع مجتمعات ارتدت عن الإسلام ونوره إلى الجاهلية وظلماتها ! .

● **وفي مواجهة المتعجلين لقطف الثمار** .. الذين يريدون القفز سريعًا إلى القبض على صولجان الحكم .. والذين يستبطئون طريق التربية وتغيير الذات - ذات الفرد ، فالأسرة ، فالمجتمع .. ثم الدولة - .. في مواجهة هؤلاء يؤكد مشروع الأستاذ البنا على ضرورة اعتماد طريق المراحل .. ومنهج التربية .. وسياسة

(١) المصدر السابق . رسالة : دعوتنا في طور جديد . ص ١٢٠ ، ١٢١ .

النفس الطويل .. فينادي الرجل قائلا : « أيها الإخوان المسلمون ، وبخاصة المتحمسون المعجلون منكم : اسمعوها مني كلمة عالية داوية .. إن طريقكم هذا مرسومة خطواته ، موضوعة حدوده .. ولست مخالفا هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول .

أجل ! قد تكون طريقًا طويلة ، ولكن ليس هناك غيرها . إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب ، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال ، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات .. ومن صبر معي حتى تنمو البذرة ، وتنبت الشجرة ، وتصلح الثمرة ، ويحين القطاف ، فأجره في ذلك على الله ، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين : إما النصر والسيادة ، وإما الشهادة والسعادة .

ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول .. ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلّابة ، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها ، واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر ، وما هي منكم ببعيد ! أريد أن أكون صريحًا معكم للغاية ، فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة .. أعدوا أنفسكم .. وفي الوقت الذي يكون فيه منكم ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها ، روحيًا بالإيمان والعقيدة ، وفكريًا بالعلم والثقافة ، وجسميًا بالتدريب والرياضة ، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار ،

وأقتحم بكم عنان السماء ، وأغزو بكم كل جبار عنيد ، فإني فاعل إن شاء الله ! .. » [1] .

* * *

تلك بعض من « عناوين نماذج » من الميادين التي صاغ لها الإمام الشهيد حسن البنا مشروعًا حضاريًا إسلاميًا ، توخى فيه تجديد الفكر الإسلامي ، ليجدد بواسطته واقع الأمة الإسلامية .. وهو المشروع الذي أقام لتنفيذه أول وأكبر التنظيمات الجماهيرية الإسلامية في عصرنا الحديث .. فكان لهما - للمشروع وللتنظيم - أوضح البصمات على كل فصائل وحركات وتيارات الصحوة الإسلامية المعاصرة ؛ على امتداد وطن الإسلام ، ومواطن الأقليات الإسلامية خارج بلاد الإسلام .

فإذا علمنا أن الرجل الذي أنجز هذا الإنجاز العملاق - حتى استحق لأجله - من قبل الكثيرين - أنه مجدد الإسلام في القرن الهجري الرابع عشر - .. إذا علمنا أن حياته في هذه الدنيا لم تتجاوز ثلاثة وأربعين عامًا ؛ أدركنا معنى « البركة » التي يودعها الله ﷻ في عمر العبد من عباده .. وعلمنا معنى أن الأعمار لا تقاس - فقط - بالطول ، وإنما بالعمق الذي يمنحها من الثراء والتأثير أعظم وأكبر مما يمنحها طول السنين ؟! .. ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ

---

(١) المصدر السابق . رسالة : المؤتمر الخامس . ص ١٦١ ، ١٦٢ .

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [1] .. صدق الله العظيم .

* * *

(١) إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥ .

(٤١) الخضر حسين

[١٢٩٣ - ١٣٧٧ هـ = ١٨٧٦ - ١٩٥٨ م]

هو شيخ الأزهر : محمد الخضر حسين . ولد في « نفطة » ، من أعمال « الجريد » ، جنوبي القطر التونسي ، لأسرة جزائرية الأصل .. وفيها نشأ ، وحفظ القرآن ، وألمّ بجانب من الأدب ، والعلوم العربية ، والشرعية .

وفي الثانية عشرة من عمره [١٣٠٥هـ = ١٨٨٨م] انتقل مع أسرته إلى « تونس » العاصمة ، وبعد عامين التحق بجامعة الزيتونة ، فنبغ في علوم العربية ، والشريعة ، وتجلى ذوقه الأدبي تذوقًا وإنشاء .. وكان أول موقف له إزاء سلطات الاستعمار الفرنسي لبلده هو رفضه تولي بعض الخطط العلمية التي عرضتها عليه حكومة تونس الفرنسية ! ..

وفي سنة [١٣٢١هـ = ١٩٠٣م] نال شهادة العالمية ، وأصبح من علماء الزيتونة .. وفي ذات العام أصدر أولى المجلات العلمية والأدبية في بلاد الشمال الأفريقي [السعادة العظمى] فلفت الأنظار إلى قلمه .. وإلى جانب نثره وشعره كان خطيبًا ، ومحاضرًا .

وفي سنة [١٣٢٤هـ = ١٩٠٥م] تولى قضاء مدينة « بنزرت » ومنطقتها ، إلى جانب الخطابة والتدريس بجامعها الكبير .. وبعد عامين عاد إلى تونس العاصمة مدرسًا بالمدرسة

الصادقية التي كان قد حاضر في قدماء خريجيها عن « الحرية في الإسلام » .. وفي العام التالي تطوع للتدريس بالزيتونة ، وتولى تنظيم مكتبتها ، ثم عين ، رسميًا ، مدرسًا بها .

وفي سنة [١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م] اشترك في تأسيس « الجمعية الزيتونية » .. ولما قامت الحرب الإيطالية الطرابلسية سنة [١٣٢٩هـ = ١٩١١م] قادت مجلته [السعادة العظمى] حملة مناصرة الطرابلسيين ضد الاستعمار الإيطالي .. واتهمته السلطات الاستعمارية الفرنسية « ببث روح العداء للغرب » .. فسافر إلى « الآستانة » - عبر مصر ودمشق - ثم عاد إلى تونس ، ليهاجر منها ، ثانية إلى دمشق - عبر القاهرة - ثم إلى الآستانة ، فعمل محررًا عربيًا بوزارة الحربية العثمانية ، وشارك في رحلات ومفاوضات سياسية عثمانية خلال الحرب العالمية الأولى - فلما ضاق بالفساد العثماني والتعصب الطوراني عاد إلى دمشق ، فاعتقله الأتراك فيها سنة [١٣٣٤هـ = ١٩١٦م] لعدة أشهر .. ثم عاد إلى الآستانة ؛ فبرلين ، فالآستانة ، فدمشق - فلما احتلها الفرنسيون - الذين سبق له وهاجر من احتلالهم لبلده تونس - رحل إلى القاهرة ليستوطنها منذ سنة [١٣٣٩هـ = ١٩٢١م] ..

وفي « القاهرة » أقام بناءه الفكري ، واستقرت علاقاته الجهادية في سبيل العروبة والإسلام ، فحصل على العالمية من الأزهر ، وأصبح عضوًا في « هيئة كبار العلماء » ، ودخل

مجمع اللغة العربية ، وصار شيخًا للأزهر سنة [١٣٧١هـ = ١٩٥٢ م] وأسس - منذ سنة [١٣٤٢هـ = ١٩٢٤م] [جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية] - التي كانت ملتقى المجاهدين ضد الاستعمار الفرنسي لتونس والجزائر والمغرب .

وإلى جانب المجلات التي رأس تحريرها [الهداية الإسلامية] و [نور الإسلام] و [لواء الإسلام] .. والمقالات والمحاضرات - التي جمعت في ثلاثة أجزاء [رسائل الإصلاح] - والدراسات اللغوية التي قدمها لمجمع اللغة العربية - إلى جانب ذلك كله ، كانت كتبه التي شارك بها في كبرى المعارك الفكرية معالم للرصانة الفكرية ، والمنطق الراجح ، والعقلانية الإسلامية .. وفي مقدمة هذه الكتب : [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] - الذي رد به على الشيخ علي عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ = ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] - الذي صدر سنة ١٩٥٢م ، و [نقض كتاب في الشعر الجاهلي] - الذي رد به على كتاب [في الشعر الجاهلي] للدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] سنة ١٩٢٦م .

ولقد كانت رئاسته للاجتماع التحضيري لتأسيس « جمعية الشبان المسلمين » [١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م] - وهو الاجتماع الذي ضم أعلام الفكر وأكابر المجاهدين والعلماء في العالم الإسلامي - دليلًا على المكانة العلمية والجهادية التي اعترف له بها العلماء والمجاهدون .

وكما كان أول شيخ للأزهر ، في ظل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م .. فلقد استقال من منصبه بعد أقل من ستة عشر شهرًا ، عندما استشعر رغبة الدولة في السيطرة على الأزهر .. ويومها قال : « إن الأزهر أمانة في عنقي ، أسلمها - حين أسلمها - موفورة كاملة ، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدي ، فلا أقل من أن لا يحصل له نقص ! .. يكفيني كوب لبن وكسرة خبز ، وعلى الدنيا بعدهما العفاء ! » .

وعندما انتقل إلى جوار ربه ، وصفه صديقه العالم الفاضل محب الدين الخطيب [١٣٠٣ - ١٣٨٩ هـ = ١٨٨٦ - ١٩٦٩ م] فقال : « هذا رجل آمن بالإسلام ودعوته ، وأحب من صدر حياته أن يكون من الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] [(١)] .

* * *

(١) [معركة الإسلام وأصول الحكم] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٩م ، و [مسلمون ثوار] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

(٤٢) أمين الخولي

[١٣١٣ - ١٣٨٥ هـ = ١٨٩٥ - ١٩٦٦ م]

قد لا تعرف أجيال جديدة - وهذا مؤسف .. بل ومخجل! - من هو الشيخ أمين الخولي [١٣١٣ - ١٣٨٥هـ = ١٨٩٥ - ١٩٦٦ م] .. وهو الذي عاش متربعًا على قمة الهرم الفكري في مصر ووطن العروبة وعالم الإسلام لأكثر من خمسين عامًا ، هي جل عمره الذي تجاوز السبعين .

لذلك ، سأروي - وأنا أقدم بين يدي دراسته عن [القرآن الكريم] - طرفًا من المشهد الذي تعرّفت عليه فيه قبل وفاته بأقل من عام .

كنت قد تقدمت - عقب تخرجي من الجامعة - بمخطوطات أربعة كتب من تأليفي - هي [فجر اليقظة القومية] ، و [العروبة في العصر الحديث] ، و [الأمة العربية وقضية الوحدة] ، و [إسرائيل .. هل هي سامية] - تقدمت بها إلى إحدى مؤسسات النشر ، التابعة لوزارة الثقافة المصرية لنشرها ..

وكان القائمون على هذه المؤسسة يدققون في اختيار أجود الكتب ، وأيضًا أشهر الأسماء من بين المؤلفين .

وبادئ ذي بدء - وقبل فحص الكتب - أشاروا عليَّ - في أدب جم - بالذهاب بمخطوطاتي إلى مؤسسة أخرى - تابعة

أيضًا لوزارة الثقافة - لا تدقق مثلهم في مستويات الفكر وشهرة المؤلفين ! .. لكنني - بأدب أشد - رجوتهم أن يكون الحكم بعد فحص الإنتاج ، عسى أن يكون لي في منشوراتهم نصيب ! فقبلوا استلام المخطوطات .. وأخذت دورها في الفحص والتدقيق .

وبعد شهور عاودت الذهاب إليهم ، وسعدت لأن تقرير فحص الكتاب الأول [فجر اليقظة القومية] كان إيجابيًا ، بل وحوى من التزكية والإشادة والثناء ما هو جدير بمشاهير المؤلفين.. وانتظرت أن يأخذ الكتاب دوره في الطباعة والإصدار .

لكن .. حدث أن رئيس مجلس إدارة المؤسسة - وكان رحمه الله - من جيل المثقفين والمترجمين العظام - بدا له - لمخاوف سياسية ؛ و « أوهام أيديولوجية » - ألا ينشر الكتاب .. لكن ؛ لأنه أستاذ كبير ؛ يعرف التقاليد المرعية .. لم يكن من الممكن - رغم سلطانه - أن يرفض نشر كتاب تمتع بتقرير صلاحية إلا بناء على تقرير آخر من « فاحص » أكبر وأستاذ لا معقب لحكمه في الرأي والعلم والتدقيق .. فقرر إحالة كتابي إلى الشيخ أمين الخولي ! .

وعندما ذهبت لأستعلم عن الكتاب ، قالوا لي - وهم يتبسمون .. ويعتذرون - : « لقد تقرر تحويل كتابك إلى المفتي » ! أي إلى الإعدام ! .

ولما طلبت المزيد من الإيضاح .. حدثوني عن أن الكتاب قد أُحيل إلى رجل لا يمدح حتى نجوم السماء ! .

وكان لي صديق - هو المرحوم الأستاذ أمين مجاهد - أعرف أنه من مريدي الشيخ أمين الخولي ، الذين تتلمذوا عليه - أوائل عقد الأربعينيات - بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ، فحدثته عن الموضوع فعرض عليّ أن يتصل به ، وأن يقترح عليه أن نزوره معًا ، للتعرف عليه .

فلما عرض الأستاذ مجاهد اقتراحه على أستاذه أمين الخولي ، ضحك - عبر الهاتف - وقال :

- إن في هذه الزيارة - أثناء فحصه لكتابي - شبهة مجاملة ومحاباة ! .

فأجابه الأستاذ مجاهد :

- يا أستاذنا ، إنك فوق كل الشبهات ! .

فقبل أن نزوره ، وذهبنا إلى بيته - بمصر الجديدة .. في شارع العجم الذي هو الآن شارع أمين الخولي - فرأيت الشيخ أمين الخولي ، لأول مرة في حياتي سنة ١٩٦٥م .

رأيت عقلًا أحسبه من أكبر العقول في جيل الأساتذة العظام الذين أنجبتهم مصر في النصف الأول من القرن العشرين - وهو جيل لازلنا نباهي بأعلامه الأمم والحضارات .

رأيت فلاحًا مصريًا ، يعيش دقائق وتفاصيل حياة الفلاح المصري ، التي أعرفها كفلاح - ويحمل حكمة هذا الفلاح ، الضاربة في أعمق أعماق تاريخ الحضارات .. مع أفق حضاري عالمي ، استوعب بالفكر - كصناعة ثقيلة - وبالثقافة المنفتحة على مختلف الثقافات - استوعب مواريث الإنسانية ، في مختلف الحضارات والديانات والفلسفات .. مع وعي سياسي جعل صاحبه يتحدث عن التيارات السياسية العالمية ، والمذاهب الأيديولوجية الكونية ، والمصالح القومية والدولية ، وكأنه صورة معاصرة لجمال الدين الأفغاني ! .

رأيت عالمًا بالأصول الإسلامية ، والخصائص العربية ، أمينًا إلى حد التقوى في التعامل مع النصوص والتواريخ والمذاهب والآراء التي خلّفها لنا السابقون ، مع نزوع شديد إلى التقدم والتطور والتجديد .

رأيت إنسانًا - على أستاذيته العظيمة ، وعظمته بين جيل الأساتذة العظام - يصغي إليّ ليسمع طرفًا من تجربتي الفكرية البازغة .. وكثيرًا عن تجربتي السياسية - التي أكبرها كثيرًا - وعن تجربتي مع مأساة التعذيب في السجون والمعتقلات .. إلى الحد الذي جعله يتواضع - وهو العملاق - أمام الصور التي حكيتها له عن طرق من هذه المعاناة .. حتى لقد بدا مبهورًا أمام صور الصمود الإنساني في ملحمة ظلم « الإنسان » لأخيه الإنسان ! .. وحتى لقد اغرورقت عيناه بالدموع عدة مرات ! .

رأيت شيخًا تجاوز السبعين من عمره ، يعيش في منزل فسيح، هو مكتبة كبيرة ، زاخرة بعيون الفكر وكنوز المعارف .. ولقد قال لي : إنه يمضي معظم وقته في هذه المكتبة العامرة التي فاضت جدرانها على أركان الغرفة أكوامًا من المجلدات .. حتى إذا أدركه الإعياء دلف إلى حجرة صغيرة ، ملحقة بغرفة « المكتب - المكتبة » - أراني إياها - وبها سرير صغير ، ليرتاح عليه حتى يسترد قواه ، فيعاود العيش مع الأفكار ! .

وعلى امتداد لقائين - في منزل هذا الأستاذ العظيم - تجاوزت ساعاتهما العشر ساعات - أدركت معنى أن أمين الخولي كان صانع رجال ، وصائغ أساتذة ، بأكثر مما كان مؤلفًا للكتب ومحققًا للمخطوطات - على نفاسة ما كتب من كتب .. ودقة ما حقق من مخطوطات .

وفي هذين اللقائين ، اتفقنا واختلفنا .. بل وبلغ الاختلاف درجة الحدة حينًا ، وحد الغضب أحيانًا - ونهض صديقي وتلميذه الأستاذ أمين مجاهد بدور الملطف لحدة الخلاف - ومع ذلك ، فلقد أحسست أن الرجل يقف بإزائي موقف الأستاذ العظيم ، الأمين والحريص على موهبة يكتشفها ويتعرف عليها .. فوجهني - ناصحًا - إلى ضبط بعض العبارات في الكتاب الذي يراجعه لي ، وذلك حتى لا أندفع - دون مبرر - إلى مصير شهداء الرأي والفكر - كما قال - ونبهني على

حقيقة لم أكن أعرفها ، عندما قال لي : إنك صاحب أسلوب متميز ، وإن هذا نادر في عالم الكتابة والكتاب ، ونصحني بالحرص على هذا التميز - ولا زلت أذكر عبارته : « إن أسلوب الرجل قطعة منه ! » .

ثم كانت المفاجأة - لمؤسسة النشر التي أحالت إليه الكتاب ، ليفتي بالإعدام ! ذلك التقرير الذي كتبه عن الكتاب ، وعن الكاتب - فلقد تحدث فيه عن لقائنا - والذي أشار فيه إلى مواطن الاتفاق - وإلى نقاط الاختلاف - مؤكدًا على حقي في الاختلاف ! .. حتى لقد اعتبر القائمون على أمر النشر في تلك المؤسسة ، أن هذا التقرير وثيقة فريدة لم يسبق أن كتبها هذا الأستاذ - الذي لا يمدح حتى نجوم السماء - فما بالنا إذا كانت هذه الوثيقة عن كاتب ليس له - يومئذ - من عالم الشهرة نصيب ؟! .. بل واعتبروا هذا التقرير « إجازة » تجعلهم يرحبون بكل ما لدي من إنتاج فكري ، أتقدم به - مستقبلًا - لينشروه ! [1] .

* * *

(١) ومع ذلك أبى رئيس مجلس الإدارة - مخافة التبعات السياسية - إلا أن يحيل الكتاب إلى رئاسة الجمهورية التي أحالته إلى مسئول الشئون العربية الذي أحاله إلى أستاذ بالمعهد الاشتراكي ليصدر الكتاب بعد ثلاث سنوات من الفحص والتدقيق .

ذلكم هو مشهد لقائي الفريد بهذا العقل المصري المتميز ، وتعرفي على هذه العبقرية العربية الفذة .. وهذا هو الدرس العظيم الذي تعلمته من هذا الفلاح الحكيم والفصيح ، الذي ولد بريف مصر - في قرية « شوشاي » من أعمال محافظة المنوفية ، بدلتا النيل سنة (١٣١٣هـ = ١٨٩٥م) - في نفس العام الذي ولد فيه والدي - عليهم جميعًا رحمة الله فحفظ القرآن الكريم « بكتّاب » القرية .. وتعلم بالمعاهد الدينية التابعة للأزهر الشريف ، ثم تخرج من « مدرسة القضاء الشرعي » - التي كانت مع « مدرسة دار العلوم » - ساحة التجديد الإسلامي ، الوثيق الصلة بأصول الإسلام وثوابت الحضارة الإسلامية .

والذي كانت حياته مدرسة لصنع الرجال وصياغة كوكبة من الأساتذة الكبار - في الجامعة وفي « جامعة الأمناء » - كما كانت حياته سلسلة من المعارك الفكرية ، التي اتفق فيها معه كثيرون ، واختلف فيها معه كثيرون .. في داخل مصر والوطن العربي والعالم الإسلامي - إبان توليه الأستاذية في الجامعة ، ووكالة كلية الآداب وعضوية مجمع اللغة العربية ، وإدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم وبعد إحالته إلى التقاعد سنة ١٩٥٥م .. بل لقد امتدت معاركه الفكرية إلى ما وراء وطن العروبة وعالم الإسلام ؛ أثناء توليه مسئولية الشئون الدينية بالسفارة المصرية في إيطاليا .. ثم في ألمانيا .. وكذلك في المؤتمرات الفكرية الدولية التي مثل بلاده فيها خير تمثيل .. ناهيك عن معاركه الفكرية ضد تحيزات بعض المستشرقين

وجهالاتهم ، بالتعليقات التي كتبها على عدد من مواد [دائرة المعارف الإسلامية] - في طبعتها العربية الأولى ..

* * *

هذا هو الشيخ أمين الخولي ، الذي عرفته .. والذي كتب عن [مالك بن أنس] ، و [المجددون في الإسلام] ، و [الأزهر في القرن العشرين] ، و [الجندية في الإسلام] ، وكتب [من هدي الرسول] ، و [في أموالهم] ، و [صلة الإسلام بإصلاح المسيحية] .. غير مئات من الدراسات والمقالات - في مجلة « أدب » التي كان يصدرها لسان حال « لجمعية الأمناء » .. وفي غيرها من الصحف والمجلات - هذا غير تحقيقاته لعدد من عيون التراث العربي والإسلامي التي قدم فيها منهاجًا عظيمًا في أمانة التعامل مع النصوص التي مات أصحابها ، والتي غدت - كما كان يقول - « يتيمة بين أيدي المحققين ، الذين يجب أن يتعاملوا معها بضمير الأوصياء على الأيتام » ! .

هذا هو الشيخ أمين الخولي - كما عرفته في مشهد واحد من مشاهد اللقاء - قبل وفاته سنة [١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م] - بأقل من عام .. والذي آمل - عندما أقدم عنه للباحثين والقراء هذه الصفحات أن أذكّر الأجيال الجديدة بواحد من أعظم العقول التي أنجبتها أمتنا في القرن العشرين رحمه الله .. وجعل عمله العلمي في ميزان حسناته يوم الدين .. إنه ﷻ أعظم مسئول ، وأكرم مجيب ! .

(٤٣) سَيِّد قطب

[١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م]

هو سيد قطب إبراهيم حسين شاذلي . واحد من أكثر الكتاب والمفكرين والساسة الإسلاميين الذين شغلوا ويشغلون تيارات وحركات الصحوة الإسلامية المعاصرة .

ولد في صعيد مصر - ببلدة موشا ، التابعة لأسيوط - لأسرة مستورة الحال ماديًا ، ووطنية الانتماء سياسيًا - ذات أصول هندية .. وفي السادسة من عمره دخل المدرسة الأولية بالقرية أربع سنوات حفظ فيها القرآن الكريم .. وفي سنة [١٩٢١م] انتقل إلى القاهرة ، ليكمل تعليمه ، وبعد حصوله على شهادة « الكفاءة » اشتغل مدرسًا بالمدارس الأولية ، وواصل دراسته في « تجهيزية دار العلوم » ، ثم التحق « بمدرسة دار العلوم العليا » وتخرج منها سنة [١٩٣٣م] ، فانتقل إلى التدريس الابتدائي ، بدمياط .. فبني سويف .. فحلوان .. وفي سنة [١٩٤٤م] أصبح مفتشًا بالتعليم الابتدائي .. ثم انتقل إلى الإدارة العامة للثقافة في سنة [١٩٤٥م] .

وفي القاهرة أتقن سيد قطب الإنجليزية ، وتأثر بآدابها - وكانت له موهبة فنية وشعرية وأدبية وملكة نقدية فذة - ثمت بتتلمذه على الأستاذ عباس العقاد - بعد فترة عابرة من

الإعجاب بالدكتور طه حسين - حتى أصبح من « مريدي » العقاد ، وأقرب تلاميذه إليه .. ثم استقل برأيه عن أستاذه ، نازعًا إلى الاغتراف من المنابع لا من الأستاذ ! .

ولقد عرفت انتماءاته السياسية مراحل متميزة .. من « الوفد » إلى « الهيئة السعدية » إلى « الإخوان المسلمين » .

وعرفت حياته الفكرية ، هي الأخرى ، مراحل متميزة .. ففي البداية كان شاعرًا أديبًا وناقدًا ، خاض العديد من المعارك النقدية ضد كثير من أعلام الأدب والنقد في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات .. وفي هذه المرحلة سيطر عليه شعور بعبثية الحياة .. وفي سنة [١٩٤٥م] بدأ أولى دراساته الفنية الإسلامية [التصوير الفني في القرآن] - وفي سنة [١٩٤٨م] بدأت علاقاته الفكرية - « التنظيمية - بفصائل التغيير والتجديد ، ذات النزعة الإسلامية .. فشارك في رئاسة تحرير مجلة [الفكر الجديد] - التي كانت تصدرها جماعة الإخوان المسلمين - وكتب فيها - عدد يناير سنة [١٩٤٨م] - مشروعًا لتقنين الفكر الاجتماعي والاقتصادي الإسلامي .. وبدأ يسهم في تحرير صحيفة [الاشتراكية] - لسان الحزب الاشتراكي - و [اللواء الجديد] - لسان اللجنة العليا للحزب الوطني - .. وصحب هذا التطور الفكري تطور في معايير النقد الأدبي والفني لديه ، فانتقد في سنة [١٩٤٩م] - استلهام توفيق الحكيم - في مسرحيته « أوديب » - الأساطير الإغريقية

الإسلامية » .. لكنه انضم - تنظيميًا للإخوان المسلمين عقب الثورة ، وأشرف على قسم نشر الدعوة في الجماعة .. وفي مرحلة الوفاق بين الثورة والإخوان - ولهم في التمهيد لها وفي قيامها الدور الأكبر - دافع سيد قطب عن الثورة ، في كتابات كثيرة ، واختير مستشارًا لمجلس قيادة الثورة للشئون الثقافية والعمالية ، وعين سكرتيرًا مساعدًا « لهيئة التحرير » - تنظيمها السياسي الأول - الذي تأسس في [يناير سنة ١٩٥٣م] .

وعقب الخلاف بين الإخوان والثورة - بعد توقيع اتفاقية الجلاء [في ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤م] رأس سيد قطب مجلة [الإخوان في المعركة] - وهي مجلة الجماعة السرية ، المناوئة للثورة .. ودخل السجن عقب [أكتوبر سنة ١٩٥٤م] ، وحكم عليه بالأشغال الشاقة خمسة عشر عامًا .. لكن الرئيس العراقي عبد السلام عارف - والذي كان معجبًا بتفسيره للقرآن [في ظلال القرآن] - طلب الإفراج عنه ، فصدر له « عفو صحي » في [مايو سنة ١٩٦٤م] ، بعد عشر سنوات من السجن والتعذيب .. انتقلت بفكره « نقلة نوعية » فحكم على المجتمعات الإسلامية كلها بالكفر والجاهلية .. بل وحكم بارتداد « الأمة » عن الإسلام منذ قرون ، وكتب يقول : « إن وجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة » والمطلوب جعلهم « مسلمين من جديد » ! .

وعن هذه المرحلة عبرت كتبه [هذا الدين] ، و [المستقبل

لهذا الدين] ، و [معالم في الطريق] .

وبعد خمسة عشر شهرًا من الإفراج عنه ، أُدخل السجن من جديد في [أغسطس سنة ١٩٦٥م] - متهمًا بقيادة تنظيم جديد يتبنى أيديولوجية فكره الجديد .. فحوكم .. وأعدم في [٢٦ أغسطس سنة ١٩٦٦م] .. تاركًا من الآثار الفكرية ٢٤ كتابًا ، وديوان شعر ، و١١٠ قصيدة ، وثلاث قصص للأطفال ، وأربع صور قصصية ، وكتاب خواطر - بالاشتراك مع إخوته - وروايتان ، وسيرة ذاتية ، و ٤٨٧ مقالة ، وعددًا من المقدمات التي كتبها لعدد من الكتب .. وتاركًا بابًا جديدًا لفصيل جديد من فصائل الصحوة الإسلامية المعاصرة ، يرفض كل الواقع .. ويدعو لتغييره بالقوة ..

لقد سار سيد قطب على درب الاستشهاد ، مؤمنًا بما قدمت يداه .. بل لقد تنبأ بذلك عندما كتب في [معالم في الطريق] : « وتتبدل الأحوال ، ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية ، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى ، وينظر إلى غالبه من عل ما دام مؤمنًا ، ويستيقن أنها فترة وتمضي ، وأن للإيمان كرة لا مفر منها .

ومهما كانت القاضية ؛ فإنه لا يحني لها رأسًا . إن الناس كلهم يموتون ، أما هو فيستشهد ، وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة ، وغالبه يغادرها إلى النار ، وشتان شتان ، وهو يسمع نداء ربه الكريم : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٦- ١٩٨]

صدق الله العظيم [١] .

* * *

(١) [سيد قطب : الخطاب والأيديولوجيا] للدكتور محمد حافظ دياب . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧م ، و [الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري] للدكتور محمد عمارة . طبعة دار الشروق سنة ١٩٩١ م .

(٤٤) أبو الأعلى المودودي

[١٣٢١ - ١٣٩٩ هـ = ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م]

أبو الأعلى المودودي [١٣٢١ - ١٣٩٩ هـ = ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م] هو واحد من أبرز « المفكرين - المجاهدين » في حركة الصحوة الإسلامية المعاصرة ..

ولد في « أورنك أباد » الدكن بمقاطعة حيدر آباد ، بالهند في [٣ رجب سنة ١٣٢١ هـ = ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٣م] .. وفي تكوينه العلمي والمعرفي درس العربية والفارسية - إلى جانب لغته الأوردية - ودرس علوم الإسلام .. ثم أجاد الإنجليزية واستوعب مذاهب الحضارة الغربية .. واحترق الصحافة منذ فجر حياته العملية .. وتفتح وعيه الإسلامي عندما انخرط في حركة « إحياء الخلافة الإسلامية » التي قامت بالهند سنة [١٣٣٧ هـ = ١٩١٩م] .

وبعد تجارب عديدة في إصدار الصحف والمجلات ، وفي المشاركة في إصدارها ، أنشأ في سنة [١٣٥١هـ = ١٩٣٢م] مجلته « ترجمان القرآن » التي قدمته إلى مسلمي الهند مفكرًا متميزًا عن المفكرين المسلمين الذين انخرطوا في « حزب المؤتمر » - ذي الأغلبية الهندوكية - وعن المفكرين المسلمين الذين انخرطوا في حزب « الرابطة الإسلامية » - ذي التوجه العلماني - وكان شعار مجلة ترجمان القرآن : « احملوا ، أيها

المسلمون القرآن ، وانهضوا ، وحلقوا فوق العالم ! » .. أما أول مؤلفاته فهو كتابه [الجهاد في الإسلام] الذي ألفه سنة [١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م] ردًّا على الافتراء الموجه للإسلام بأنه قد انتشر بالسيف .

وفي سنة [١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م] كانت شهرة المودودي قد ذاعت بين مسلمي الهند ، فدعاه الفيلسوف محمد إقبال [١٢٩٠ - ١٣٥٧ هـ = ١٨٧٣ - ١٩٣٨ م] إلى أن يغادر « حيدر آباد » ويتخذ من « لاهور » - ذات المحيط الإسلامي الواسع والكثيف - مكانًا لجهاده ودعوته .. فلبى المودودي دعوة إقبال .. وفي العام التالي توفي إقبال ، وأصبح المودودي أبرز مفكري المسلمين الهنود منذ ذلك التاريخ .

وفي السنوات الخمس [١٣٥٦ - ١٣٦٠ هـ = ١٩٣٧ - ١٩٤١ م] قدم المودودي الدراسات والأبحاث والكتب - وأيضًا الخطب - فلقد كان خطيبًا مفوهًا - التي بلورت معالم المشروع السياسي الذي رآه البديل الإسلامي لمشروع « حزب المؤتمر » ولمشروع « حزب الرابطة الإسلامية » .

وفي سنة [١٣٦٠هـ = ١٩٤١م] قام تنظيم « الجماعة الإسلامية » ، التي تبنت رؤية المودودي برنامجًا لها .. وانتخب المودودي أميرًا لهذا التنظيم .

وكان « حزب المؤتمر الهندي » يدعو إلى مستقبل للهند المستقلة ، تكون فيه الهند دولة واحدة ، مؤسسة على قومية

واحدة ، لوحدة الأرض والمصلحة السياسية .. تأخذ بالديمقراطية الغربية ، التي تحتكم إلى الأغلبية .. وتأخذ بالعلمانية ، التي تفصل الدين عن الدولة .

وفي الكتب الخمسة الأساسية التي صاغ المودودي فيها مشروعه السياسي والحضاري ، البديل والمناهض لمشروع حزب المؤتمر - وهي كتب : [المسلمون والصراع السياسي الراهن] ، و [الأمة الإسلامية وقضية القومية] ، و [النظرية السياسية الإسلامية] ، و [الحكومة الإسلامية] ، و [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] - في هذه الكتب تبلورت معالم المشروع الإسلامي لمستقبل الهند : دولة اتحادية ، متعددة القوميات ، تتمايز قومياتها حضاريًا .. ومن ثم تتمايز في القوانين .. رفض الديمقراطية الغربية ، لا لأنها سلطة الأغلبية ؛ وإنما لثبات الأغلبية الهندوكية - التي ستظل دائما أغلبية - ٧٥٪ من السكان - ولثبات الأقلية المسلمة - التي ستظل دائمًا أقلية - ٢٥٪ - فواقع الهند غير صالح لتطبيق الديمقراطية الغربية .. ورفض العلمانية الغربية ؛ لأن الإسلام دين ودولة .. وإذا كانت العلمانية تجعل كل الحاكمية للشعب ، فإن حاكمية الله ، في الإسلام ، هي الحاكمة على سلطان البشر أجمعين ! .

وعندما انتهت الأحداث بالهند إلى التقسيم - إلى هند وباكستان سنة [١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م] - قَبِلَ المودودي واقع التقسيم ، وواصل جهاده في باكستان .

ورغم وضوح أفكار المودودي السياسية ، إلا أن كثيرا من الأفراد والحركات قد أساءت فهمها ، أو فهم بعض منها ، إما لاجتزاء بعض من نصوصه ، دون البعض الآخر .. وإما للوقوف عند بعض عباراته « الإثارية » التي جاءت في خطب جماهيرية ركز فيها على جوانب بعينها دون أخرى .. الأمر الذي أدى إلى أحكام ظالمة على فكره ، لا من خصومه وحدهم ، بل ومن المشايعين له والمتعصبين لاتجاهه الإسلامي ! .

● فالمودودي – الذي ارتاد في الفكر الإسلامي الحديث – رفع شعار « الحاكمية » وبلور نظرية في « الحاكمية الإلهية » ، يقدم الحاكمية الإلهية على أنها السيادة الإلهية الحاكمة .. سيادة الفعال لما يريد ، الذي لا يُسأل عما يفعل .. ويعترف بوجود حاكمية بشرية فيما لا نص فيه ، قطعي الدلالة والثبوت ، وهي المساحة الأوسع في القانون الإسلامي ، الذي يتطور – بالاجتهاد – وفق الزمان والمكان .. وليس صحيحًا نفي المودودي لسلطة الأمة .. فلها السلطة والحاكمية المحكومة بسيادة الشريعة الإلهية .

ونحن لن نفهم نظرية المودودي في الحاكمية – وهي محور فكره السياسي كله – إذا نحن وقفنا فقط عند قوله : « إن أي شخص أو جماعة يدعي لنفسه أو لغيره حاكمية كلية أو جزئية .. هو ولاريب سادر في الإفك والزور والبهتان المبين .. فالله حاكم وحده ، بالمعاني السياسية والاجتماعية .. وهو لم يهب

أحدًا حق تنفيذ حكمه في خلقه .. وإن الإنسان لا حظ له من الحاكمية إطلاقًا .. وإن الأساس الذي ارتكزت عليه دعامة النظرية السياسية في الإسلام : أن تنتزع جميع سلطات الأمر والتشريع من أيدي البشر ، منفردين ومجتمعين ، ولا يؤذن لواحد منهم أن ينفذ أمره في بشر فيطيعوه ، أو ليسن قانونًا لهم فينقادوا له ويتبعوه . إن وضعية الدولة الإسلامية أنها ليست ديمقراطية .. فإن الديمقراطية عبارة عن منهاج للحكم تكون السلطة فيه للشعب جميعًا .. وهي ليست من الإسلام في شيء ! » .

إننا لن نفهم نظرية المودودي في الحاكمية إذا وقفنا فقط عند هذه العبارة وأمثالها .. وإنما نفهمها إذا جمعنا كل نصوصه في القضية ، لنفسر مجمل موقفه ، ولنراها في ضوء الملابسات السياسية التي قلت فيها .. فالرجل ، هو أيضًا الذي يقول :

« إنه لا يمكن لأي عاقل أن يعارض الديمقراطية .. إن القضية التي تقلقنا هي أن نظام الحكم في الهند يسير على أساس المؤسسات الديمقراطية ، على افتراض وجود قومية واحدة.. ولا يجب أن نخلط هنا بين الديمقراطية نفسها والمؤسسة ذات النوع الجمهوري ، على افتراض وجود القومية الواحدة ، فبينهما فرق السماء والأرض ، ولا يعني الاختلاف مع واحدة الاختلاف مع الأخرى .. إنه حين يتم تطبيق أصول الحكومة المنبثقة عن الأغلبية في النظام الديمقراطي ؛ فإن هذا

يعني أن المجموعة كثيرة العدد تتولى الحكم .. ويمكن لمبادئ حكومة الأغلبية أن تكون في مكانها الصحيح حين يتم الاتفاق أصلًا في الأمور الأساسية للمواطنين .. فيمكن لأقلية اليوم أن تصبح أغلبية الغد ، ولأكثرية اليوم أن تصبح أقلية الغد .. ولكن اختلاف الأهداف أو الأصول الدينية أو العواطف القومية سيجعل الأغلبية تظل دائمًا هكذا .. فهي ليست ، إذن الديمقراطية .. بل هي البربرية ! .. إن الإسلام أقر نيابة الشعب واستخلافه عن اللَّه ، في ظل سيادة اللَّه وحاكميته .. ولقد خول في هذه الحكومة للمسلمين حاكمية شعبية مقيدة .. فالأمة نائبة عن اللَّه ، وهي تنتخب حاكمها ، ونوابها ، وأهل الحل والعقد فيها بطريقة ديمقراطية ، الأمر الذي يجعل الخلافة الإسلامية ديمقراطية .. إن ديمقراطيتنا الإسلامية هي - كديمقراطية الغرب - لا تتألف الحكومة فيها ولا تتغير إلا بالرأي العام . ولكن الفرق بيننا وبينهم : أنهم يحسبون ديمقراطيتهم حرة مطلقة العنان ، ونحن نعتقد الخلافة الديمقراطية متقيدة بقانون اللَّه ﷻ » .

فالرفض للديمقراطية ولحاكمية الأمة إذا كانت الأغلبية كافرة ؛ لأنها ستكون حاكمية متحررة من الشريعة .. أما إذا كانت الأغلبية مؤمنة ، ومتقيدة بالشريعة ، فإن حاكميتها هي « الديمقراطية الإسلامية » و « الخلافة الديمقراطية » التي يدعو إليها المودودي .

فالنظرة الشاملة لنصوص الرجل ، ورؤيتها في ضوء الواقع الهندي الذي كتبت فيه هو السبيل لفهم حقيقة نظرية الحاكمية الإلهية ، التي صاغها .. والتي أحدثت ولا تزال تحدث الكثير من الجدل في صفوف الإسلاميين وغير الإسلاميين .

● ولقد حكم المودودي بـ « الكفر » و بـ « الجاهلية » على المجتمعات التي لا تجعل حاكمية الله وقانونه فوق حاكمية البشر وقوانينهم .. قديمة تلك المجتمعات أم حديثة .

● وقدم نقدًا عبقريًا للنظريات الأساسية التي طبعت فكر الحضارة الغربية الحديث بطابعها نقد فلسفة التاريخ عند هيجل [١٧٧٠ - ١٨٣١م] .. ومذهب داروِن [١٨٠٩ - ١٨٨٢م] في التطور .. ومذهب ماركس [١٨١٧ - ١٨٨٣ م] في الصراع الطبقي .. وأفاض في المقارنة بين توازن الحضارة الإسلامية ووسطيتها ، وبين افتقاد الحضارة الغربية إلى التوازن والوسطية .

● كذلك اتخذ المودودي من التراث الإسلامي موقفًا نقديًا .. فسلط الأضواء على فكر التجديد والإحياء والأصالة ، ومال إلى رفض الوافد غير الإسلامي ، وخاصة اليوناني منه .. وزكى مواقف العلماء الذين قدموا لليقظة الإسلامية مشاريع متكاملة ، وجاهدوا في سبيل تطبيقها ، دون أن يقفوا فقط عند حدود التفكير والتأليف [1] ؟! ..

---

(١) [أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية] للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧م ، و [الحكومة الإسلامية] للمودودي - طبعة =

(٤٥) محمد الغزالي

[١٣٣٥ - ١٤١٦ هـ = ١٩١٧ - ١٩٩٦ م]

هو « الفقيه - الداعية المجدد » الشيخ محمد الغزالي السقا ..

مصري المولد ، والنشأة - ولد - لأسرة ريفية فقيرة ومتدينة - في قرية « نكلا العنب » مركز « إيتاي البارود » محافظة « البحيرة » - بدلتا مصر - يوم السبت [٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٥هـ = ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٧م] . ولقد اختار له والده اسم « محمد الغزالي » تيمنًا بحجة الإسلام « أبو حامد الغزالي » - لنزعة صوفية لدى الوالد .

وكان الشيخ الغزالي أكبر إخوته - السبعة - . ولقد نشأ وأسرته الفقيرة تعلق عليه الآمال . ولقد أتم حفظه القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره ، والتحق - طالبًا للعلم الإسلامي - بالمعهد الديني - التابع للأزهر الشريف - بمدينة الإسكندرية . فحصل على شهادة « الابتدائية » سنة [١٩٣٢م] . ومن نفس المعهد - القسم الثانوي - حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة [١٩٣٧م] ..

وفي سنة [١٩٣٧م] التحق بالتعليم العالي الأزهري - كلية « أصول الدين » بالقاهرة - وفيها تلقى العلم على كوكبة

= القاهرة سنة ١٩٧٧ م [نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون] طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .

من كبار العلماء ، منهم الشيخ عبد العظيم الزرقاني .. والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .. وتخرج من « أصول الدين » ، فنال شهادة « العالمية » سنة [١٩٤١م] .. كما حصل - من نفس الكلية - على إجازة الدعوة والإرشاد سنة [١٩٤٣م] .

وفي نفس العام الذي التحق فيه بكلية أصول الدين سنة [١٩٣٧م] - التقى بمرشد جماعة الإخوان المسلمين ، الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] وأصبح عضوًا بالجماعة ، فبدأت بذلك أهم تحولات حياته الفكرية والعملية .

ولقد تزوج الشيخ الغزالي ، وهو لا يزال طالبًا بكلية أصول الدين ، وأنجب من الأولاد تسعة .. يحيا منهم ولدان - ضياء .. وعلاء - وخمس سيدات .

كما بدأت ممارسته للدعوة الإسلامية أثناء طلبه العلم بكلية أصول الدين ، عندما عمل إمامًا وخطيبًا بأحد مساجد القاهرة .. فلما نال شهادة العالمية سنة [١٩٤١م] ، عين - في العام الثاني سنة [١٩٤٢م] - بوزارة الأوقاف - إمامًا وخطيبًا بمسجد « العتبة الخضراء » - بوسط القاهرة .. ولقد تدرج في مناصب الدعوة والوعظ والإرشاد ، بوزارة الأوقاف المصرية ، فتولى التفتيش بالمساجد .. والوعظ بالأزهر الشريف .. ووكيلًا ، فمديرًا للمساجد .. فمديرًا للتدريب .. فمديرًا للدعوة والإرشاد في [٢ يوليو سنة ١٩٧١م] .. فوكيلًا لوزارة

الأوقاف، لشئون الدعوة الإسلامية في [٨ مارس سنة ١٩٨١م].

ولقد تفتحت مواهبه الأدبية والفكرية على يدي الشيخ حسن البنا وفي صحافة الإخوان - التي أصبح من كتابها - حتى أطلق عليه لقب « أديب الدعوة » .. وكتب إليه الأستاذ البنا خطابًا في سنة [١٩٤٥م] - يقول له فيه : « أخي العزيز الشيخ محمد الغزالي .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد. قرأت مقالك « الإخوان المسلمون والأحزاب » في العدد الأخير من مجلة « الإخوان » ، فطربت لعبارته الجزلة ومعانيه الدقيقة ، وأدبه العف الرصين.

هكذا يجب أن تكتبوا أيها الإخوان المسلمون. اكتب دائمًا ، وروح القدس يؤيدك ، والله معك. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حسن البنا ».

ولقد تحمل الشيخ الغزالي نصيبه من المحن والمكاره التي أصابت جماعة الإخوان المسلمين .. فقضى في معتقل « الطور » - بشبة جزيرة سيناء - قرابة العام سنة [١٩٤٩م] .. وأقل من عام في سجن « طره » إبان التحقيقات مع الشهيد سيد قطب سنة [١٩٦٥م] ..

ولما شارك في « المؤتمر الوطني للقوى الشعبية » سنة [١٩٦٢م] ، كانت له مواقف أثارت ضده حملة صحفية قادها عدد من الصحفيين الليبراليين واليساريين ، وانتصرت له فيها جماهير المساجد .. وكان يخطب الجمعة بمسجد عمرو

ابن العاص ، فتحتشد لسماعه عشرات الألوف .. وعندما كانت تثير انتقاداته الدولة ، فتهم بتقييد حريته ، كانت تتحرك لنصرته مظاهرات جماهير المساجد .. وفي سنة [١٩٧٤م] كان له - هو والشيخ محمد أبو زهرة - موقف معارض للتعديلات التي أُدخلت على قانون الأحوال الشخصية - فكان يرى أن مشكلة مصر هي في عجز شبابها عن تكاليف الزواج ، وليست المشكلة في تعدد الزوجات - فضاقت الدولة بمعارضته ، ومنعته من الخطابة بجامع عمرو بن العاص ، وسحبوا منه اختصاصاته في وظائف الدعوة ، حتى لقد ألغوا المنصب الذي كان يشغله - مدير عام الدعوة - ! فوجد نفسه على « حصير » دون مكتب في « سندرة » ملحقة بمسجد صلاح الدين - بالقاهرة - فجلس على « الحصير » يشتغل بالتأليف ! .

ولما أحس باقتراب المخاطر منه ، إبان التحقيقات مع صالح سرية - المتهم الأول فيما عرف بقضية « الفنية العسكرية » - الذي ذكر أنه زار الشيخ الغزالي مرة ! - سعى إلى الخروج من مصر ، فسافر إلى المملكة العربية السعودية ، أستاذًا بجامعة أم القرى - بمكة المكرمة - فأمضى بالجامعات السعودية ما بين سنة [١٩٧٤م وسنة ١٩٨١م] .. وفي سنة [١٩٨١م] - الذي رقي فيه إلى منصب وكيل وزارة الأوقاف لشئون الدعوة - قدم استقالته من الوزارة ، عندما اختلف مع سياسة الدولة في الصلح مع إسرائيل .

وكان تعرّف الشيخ الغزالي على الواقع العربي والإسلامي ،

خارج مصر ، قد بدأ مبكرًا .. ففي سنة [١٩٥٢ - ١٩٥٣م] شغل وظيفة رئيس « التكية المصرية » بمكة المكرمة .. وفي الأعوام من سنة [١٩٦٨م إلى سنة ١٩٧٣م] أمضى شهر رمضان في دول الكويت وقطر والسودان والمغرب - وشارك في ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر - بانتظام - سنويًا - منذ سنة [١٩٨٠م] .. وعمل في قطر - أستاذًا زائرًا - ما بين سنة[١٩٨٢م وسنة ١٩٨٥م] .. وعاش بالجزائر ما بين سنة[١٩٨٥م وسنة ١٩٨٨م] منشئًا وراعيًا لجامعتها الإسلامية - جامعة الأمير عبد القادر ؛ ومشرفًا على مجلسها العلمي .. وعلى امتداد هذه الأعوام الخمسة عشر [١٩٧٤ - ١٩٨٨م] ، عاش واقع الأمة ، واستوعب مشكلاتها ، وأعطى لجماهيرها ؛ وغدا أبرز فقهاء الدعوة والتجديد والأصالة والاستنارة على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام .

ولقد امتلك الشيخ الغزالي حرية المفكر واستقلالية المجدد منذ بداية عقد الخمسينيات ، عندما استقل عن تنظيم جماعة الإخوان المسلمين - لخلافه مع مرشدها العام الأستاذ حسن الهضيبي - فكان تفرغه للدعوة والتأليف .. وظل محافظًا على استقلالية الفكر حتى بعد أن عادت المودة والتعاون والعلاقات مع جماعة الإخوان في سنوات عمره الأخيرة .

* * *

وإذا كان الشيخ الغزالي قد تتلمذ على حسن البنا ، الذي

تتلمذ على رشيد رضا ، تلميذ محمد عبده ، أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغاني .. فلقد حدد الشيخ الغزالي منهاج هذه المدرسة التي ينتمي إليها مشروعه الفكري التجديدي - في معرض حديثه عن مدارس الفكر الإسلامي - مدرسة الرأي .. والأثر .. والموازنة بينهما - كما هو الحال عند ابن تيمية - مع ميل للأثر .. ومدرسة الاختيار الشخصي والتنسيق بين وجهات النظر المختلفة - حدد منهاج مدرسته ، التي وازنت بين « الرأي » و « الأثر » على نحو متميز عن موازنة مدرسة ابن تيمية ، وذلك « بترويجها للعقل ، وتقديم دليله ، واعتبارها العقل أصلاً للنقل . وهي تقدم الكتاب على السنة ، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد . وهي ترفض مبدأ النسخ ، وتنكر إنكارًا حاسمًا أن يكون في القرآن نص انتهى أمده . وترى المذهبية فكرًا إسلاميًا قد ينتفع به ، ولكنه غير ملزم ، ومن ثم فهي تنكر التقليد المذهبي ، وتحترم علم الأئمة ، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية ، ولا تلقي بالاً إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة »[1] .

فهو علم ، متميز من أعلام هذه المدرسة التي تمايزت اجتهادات وتجديدات أعلامها في هذا الإطار .

ولقد كان الشيخ الغزالي يوجز الحديث عن الإسلام عندما

(١) [دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين] ص ٦٩ - ٧٧ طبعة دار الوفاء - القاهرة سنة ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م .

يقول : إنه « قلب تقي » و « عقل ذكي » ! معبرًا ، بذلك عن منهاج الوسطية الإسلامية الجامع ، في مصادر المعرفة بين كتابي الله : كتاب الوحي المسطور ، وكتاب الكون المنظور .. وفي سبل المعرفة ؛ بين العقل والنقل والتجربة والوجدان .. ولذلك كان عطاء الشيخ الغزالي في « القدوة » منافسًا لعطائه في « الفكر » كما برئ مشروعه الفكري من الفصام بين العقل والقلب ، وامتزجت فيه الرؤية لمشكلات الأمة والإنسانية ، والماضي والحاضر والمستقبل جميعًا .

- ففي مواجهة الاستبداد المالي والمظالم الاجتماعية ، قدم : عدالة الإسلام ، في العديد من الآثار الفكرية .. مثل : [الإسلام والأوضاع الاقتصادية] ، و [الإسلام والمناهج الاشتراكية] ، و [الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين] ، و [الإسلام في وجه الزحف الأحمر] إلخ ..

- وفي مواجهة الاستبداد السياسي ، دافع عن الشورى الإسلامية ، في كتبه : [الإسلام والاستبداد السياسي] ، و [حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة] .. إلخ .

- وفي مواجهة الهيمنة الغربية وتيارات العلمانية والمادية والإلحاد والتغريب ، قدم : [من هنا نعلم] ، و [دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين] ، و [الغزو الثقافي يمتد في فراغنا] ، و [مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه] ، و [صيحة تحذير من دعاة التنصير] إلخ .

- وفي مواجهة الجمود والحرفية والتقليد ، قدم : [دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين] ؛ و [تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل] ، و [قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة] ، و [السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث] إلخ .

- ولتجديد الذات الإسلامية ، قدم عشرات الكتب ، من مثل : [خلق المسلم] و [عقيدة المسلم] و [جدد حياتك] و [فقه السيرة] و [كيف نفهم الإسلام ؟] و [الجانب العاطفي من الإسلام] و [سر تأخر العرب والمسلمين] إلخ ..

* * *

ولقد كانت رسالة الشيخ الغزالي ، في حياته الفكرية والدعوية والتعليمية والعملية هي إحياء الأمة بالإسلام ، وتحريكها بطاقاته الإحيائية .. « فالجهد الأول المطلوب هو تحريك قافلة الإسلام ، التي توقفت في وقت تقدم فيه حتى عبيد البقر ! .. وسوف تتلاشى التحديات التي تواجهنا يوم يعتنق المسلمون الإسلام ، ويدخلون فيه أفواجًا ، حكامًا وشعوبًا ! »[1] .

وكان داعية لتحرير العقل الإسلامي من قيود الجمود والتقليد ، وذلك بالتمييز بين مصادر الإسلام المعصومة وبين الفكر الإسلامي غير المعصوم ، ورفض الادعاء بأن الأولين لم

(١) [دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين] ص١٩ ، و [هموم داعية] ص١٧ طبعة سنة ١٩٨٣ م .

يدعوا للآخرين مجالاً في الاجتهاد والتجديد » فالإسلام هو صائغ الأئمة المجتهدين » وهم لم يصوغوه .. ومصادر الإسلام معصومة ؛ لأنها من عند الله ، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم ؛ لأنه من عند الناس .. والأئمة الأوائل كانوا روادًا في تأسيس الفقه الإسلامي ، والرائد قد يشغله الاكتشاف عن الموازنة والتقدير ، ولعل من يجيء بعده يكون أقدر على التنظيم والمراجعة والموازنة والاختيار .. »[1] .

وكان يرى أن صلاح دنيا الناس ، بالعدالة الاجتماعية ، شرط لصلاح قلوبهم بدين الإسلام .. فعدالة الإسلام هي الطريق إلى فضائل الإسلام وتقوى القلوب .. « إذ من العسير أن تملأ قلب إنسان بالهدى ؛ إذا كانت معدته خالية ! .. أو أن تكسوه بلباس التقوى ، إذا كان جسده عاريًا ! .. فلابد من التمهيد الاقتصادي الواسع ، والإصلاح العمراني الشامل ، إذا كنا مخلصين حقًا في محاربة الرذائل باسم الدين ، أو راغبين حقًا في هداية الناس لرب العالمين ! »[2] .

وكان يدعو - في فهم المصدر الأول للإسلام : القرآن الكريم - إلى تدبر محاوره الجامعة : التوحيد ، الذي هو قانون الوجود ونظام الحياة ، وطريق تحرير الإنسان وملكاته من

(١) [دستور الوحدة الثقافية] ص:٨٥ - ٩٣ .

(٢) [الإسلام والأوضاع الاقتصادية] ص ٦١ ، ٦٢ . طبعة سنة ١٩٨٧م .

العبودية للطواغيت .. وآيات الله الكونية ، المبثوثة في الأنفس والآفاق ، والتي على تعقلها ترتفع أركان الدين وأعلام الإيمان .. والقصص القرآني ، كأداة للتربية والتزكية ، ومعالم على طريق الاعتقاد الديني .. ونبأ الغيب والبعث والجزاء ، ودوره في بناء الأخلاق .. والتربية والتشريع ، لصلاح الدنيا ، الذي يتأسس عليه صلاح يوم الدين .. »[1] .

وكان مدافعًا عن سنة رسول الله ﷺ ، فهي مع القرآن « قوام الإسلام ، وهي الامتداد لسنا القرآن ، والتفسير لمعناه ، والتحقيق لأهدافه ووصاياه .. وكما أنه لا فقه إلا بسنة ، فلا سنة بغير فقه .. والحكم الديني لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره ، وإنما يضم الحديث إلى الحديث ، ثم تقارن الأحاديث المجموعة بما يدل عليه القرآن الكريم ، فإن القرآن هو الإطار الذي تعمل الأحاديث في نطاقه لا تعدوه .. والأحكام في الأحاديث الصحيحة مأخوذة ومستنبطة من القرآن ، استنبطها النبي ﷺ ، من القرآن بتأييد إلهي وبيان رباني « فهي بيان نبوي للبلاغ القرآني ؛ وإراءة من الله لنبيه ليفصّل ما أجمله القرآن »[2] .

---

(١) [المحاور الخمسة للقرآن الكريم] طبعة سنة ١٩٩٤ م .

(٢) [دستور الوحدة الثقافية] ص ٣٣ ، ٣٤ ؛ ٣٦ - ٣٨ ، و [السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث] ص ١١٨ ، ١١٩ طبعة سنة ١٩٨٩ م ، و [هذا ديننا] ص ١٩٧ طبعة سنة ١٩٦٥ م .

ولقد عاش الشيخ الغزالي حياته وقلبه معلق بالمساجد - وكان حلم حياته - الذي حققه عندما كان مسئولاً عن الدعوة بوزارة الأوقاف - أن تصبح المساجد جامعات إسلامية حرة لشباب الأمة وجماهيرها ، تلقى فيها الدروس المنظمة في علوم الدين والحضارة الإسلامية .. حتى لقد كانت آخر الأوراق التي كتبها إلى الندوة التي عقدت بجامعة الأزهر - يوم ٥ مارس سنة ١٩٩٦ م - حول المساجد والدعوة الإسلامية - والتي حال سفره دون حضوره لها - كانت بمثابة « الوصية » التي كتبها ، لتحويل المساجد إلى جامعات الثقافة الإسلامية - ولقد اتخذتها « الندوة » توصيات لمداولاتها .. وكان ذلك قبل وفاته بأربعة أيام ! ..

* * *

ولقد شرفت بعضوية الشيخ الغزالي العديد من المجامع الفكرية والمؤسسات العلمية - من مثل : « مجمع البحوث الإسلامية » بالأزهر الشريف .. و « المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية » بالأردن و « المعهد العالمي للفكر الإسلامي » بواشنطون ، و « الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية » - بالكويت - إلخ إلخ ..

كما حصل على العديد من الأوسمة والجوائز .. من مثل :

١ - وسام الأمير - وهو أعلى وسام بالجزائر سنة ١٩٨٨ م .

٢ - جائزة الملك فيصل العالمية - لخدمة الإسلام سنة ١٩٨٩ م .

٣ - جائز الامتياز - من باكستان سنة ١٩٩١ م .

٤ - جائزة الدولة التقديرية - من مصر سنة ١٩٩١ م .

٥ - جائزة على وعثمان حافظ - المفكر العام - سنة ١٩٩١م .

* * *

ولقد عاد الشيخ الغزالي للإقامة الدائمة بمصر - في منزله رقم ١٠ بميدان الدكتور سليمان - بحي الدقي - بالقاهرة - منذ سنة [١٩٨٨م] .. وكانت أسفاره إسهامًا في الملتقيات العلمية والفكرية .. وكان من أواخرها رحلته إلى الأمم المتحدة - حيث خطب في عيدها الخمسين ، ممثلًا للأزهر الشريف سنة [١٩٩٦م] .. وأمضى بين مسلمي أمريكا - في تلك الرحلة ثلاثة أسابيع .

وبعد أسابيع من عودته سافر إلى المملكة العربية السعودية ، للمشاركة في المهرجان الوطني للثقافة - الجنادرية - حيث لبى نداء ربه ، فصعدت روحه إلى بارئها - في قاعة الملك فيصل ، والقلم في يده يدون نقاطًا للدفاع عن الإسلام ، مساء يوم الجمعة [١٧ شوال سنة ١٤١٦ هـ = ٩ مارس سنة ١٩٩٦م] .. ليدفن « بالبقيع » في المدينة المنورة : عاصمة

النبوة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .

* * *

مؤلفات الشيخ الغزالي :

١ - الإسلام والأوضاع الاقتصادية . طبعة نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٩٦ م .

٢ - الإسلام والمناهج الاشتراكية .

٣ - الإسلام والاستبداد السياسي .

٤ - الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين . طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٧ م .

٥ - من هنا نعلم . طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦ م .

٦ - تأملات في الدين والحياة . طبعة دار الدعوة - الإسكندرية - سنة ١٤١٢ هـ = سنة ١٩٩٢ م .

٧ - خلق المسلم . طبعة دار الدعوة سنة ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م .

٨ - عقيدة المسلم . طبعة دار الدعوة سنة ١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م .

٩ - التعصب والتسامح .

١٠ - فقه السيرة . طبعة دار الدعوة سنة ١٩٨٨ م .

١١ – في موكب الدعوة .

١٢ – ظلام من الغرب .

١٣ – جدد حياتك . طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦ م .

١٤ – ليس من الإسلام .

١٥ – من معالم الحق .

١٦ – كيف نفهم الإسلام . طبعة دار الدعوة سنة ١٤١١هـ = ١٩٩١ م .

١٧ – الاستعمار أحقاد وأطماع .

١٨ – نظرات في القرآن . طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦ م .

١٩ – مع الله – دراسات في الدعوة والدعاة .

٢٠ – معركة المصحف . طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦ م .

٢١ – كفاح دين . طبعة مكتبة وهبة – القاهرة سنة ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م .

٢٢ – الإسلام والطاقات المعطلة .

٢٣ – حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة . طبعة دار الدعوة سنة ١٤١٣ هـ = سنة ١٩٩٣ م .

٢٤ – هذا ديننا . طبعة دار الشروق – القاهرة سنة ١٤١٦هـ = ١٩٩٦ م .

٢٥ - حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي .

٢٦ - الجانب العاطفي من الإسلام .

٢٧ - دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين . طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦ م .

٢٨ - ركائز الإيمان بين العقل والقلب . طبعة مكتبة وهبة سنة ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م .

٢٩ - حصاد الغرور . طبعة مكتبة وهبة سنة ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ م .

٣٠ - الإسلام في وجه الزحف الأحمر .

٣١ - قذائف الحق .

٣٢ - الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر . طبعة مكتبة وهبة سنة ١٤١٠ هـ = سنة ١٩٩٠ م .

٣٣ - فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء . طبعة دار الاعتصام - القاهرة سنة ١٩٨٠ م .

٣٤ - دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين . طبعة دار الوفاء - القاهرة سنة ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م .

٣٥ - واقع العالم الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر .

٣٦ - مشكلات في طريق الحياة الإسلامية . طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦ م .

٣٧ - هموم داعية . طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦ م .

٣٨ - مائة سؤال في الإسلام . طبعة دار ثابت . القاهرة سنة ١٩٨١ م .

٣٩ - علل وأدوية . طبعة دار الدعوة سنة ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م .

٤٠ - مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه . طبعة الأردن - عمان سنة ١٩٨٤ م .

٤١ - قصة حياة .

٤٢ - سر تأخر العرب والمسلمين . طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦ م .

٤٣ - الطريق من هنا .

٤٤ - جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج .

٤٥ - الحق المر . جـ ١ - جـ ٥ . طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦ م .

٤٦ - من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث .

٤٧ - الغزو الثقافي يمتد في فراغنا . طبعة الأردن - عمان سنة ١٩٨٥ م .

٤٨ - المحاور الخمسة للقرآن الكريم . طبعة دار الصحوة ودار الوفاء - القاهرة سنة ١٤١٥ هـ = ١٩٩٤ م .

٤٩ – السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث . طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٦ م .

٥٠ – قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة . طبعة دار الشروق سنة ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م .

٥١ – تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل . طبعة دار الشروق سنة ١٩٩١ م = سنة ١٤١١ هـ .

٥٢ – كيف نتعامل مع القرآن الكريم . طبعة المعهد العالمي الفكر الإسلامي . واشنطون سنة ١٤١٢ هـ = سنة ١٩٩٢ م .

٥٣ – صيحة تحذير من دعاة التنصير . طبعة دار الصحوة .

٥٤ – نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم . طبعة دار الشروق سنة ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م .

٥٥ – كنوز من السنة .

مراجع – عن الشيخ محمد الغزالي – غير مؤلفاته :

١ – دكتور محمد عمارة [الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري . والمعارك الفكرية] طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة سنة ١٩٩٢ م .

٢ – دكتور يوسف القرضاوي [الشيخ الغزالي كما عرفته .. رحلة نصف قرن] طبعة دار الوفاء سنة ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م .

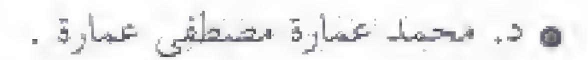
٣ - محمد شلبي [الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م .

٤ - د. أحمد حجازي السقا [دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي] طبعة القاهرة .

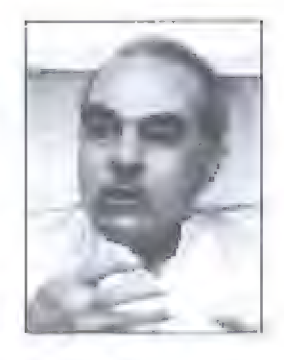
٥ - د. عامر النجار [نظرات في فكر الغزالي] طبعة القاهرة .

* * *

السيرة الذاتية للمؤلف



● د. محمد عمارة مصطفى عمارة .



● مفكر إسلامي ومؤلف ومحقق وعضو « مجمع البحوث الإسلامية » بالأزهر الشريف .

● ولد بريف مصر ببلدة « صروة » ، مركز « قلين » ، محافظة « كفر الشيخ » في ٢٧ رجب سنة ١٣٥٠هـ - ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١م في أسرة ميسورة الحال ماديًا ، تحترف الزراعة ، وملتزمة دينيًا .

● قبل مولده ، كان والده قد نذر لله إذا جاء المولود ذكرًا ، أن يسميه محمدًا ، وأن يهبه للعلم الديني أي أن يطلب العلم في الأزهر الشريف .

● حفظ القرآن وجوّده بـ « كُتّاب » القرية مع تلقي العلوم المدنية الأولية بمدرسة القرية مرحلة التعليم الإلزامي .

● في سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م التحق « بمعهد دسوق الديني الابتدائي التابع للجامع الأزهر الشريف ، ومنه حصل على شهادة الابتدائية سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م .

● وفي المرحلة الابتدائية النصف الثاني من أربعينيات القرن العشرين بدأت تتفتح وتنمو اهتماماته الوطنية ، والعربية الإسلامية ، والأدبية ، والثقافية ، فشارك في العمل الوطني - قضية استقلال مصر ، والقضية الفلسطينية - بالخطابة في المساجد والكتابة نثرًا وشعرًا ، وكان أول مقال نشرته له صحيفة [مصر الفتاة] بعنوان « جهاد » عن فلسطين في إبريل سنة ١٩٤٨م وتطوع للتدريب على حمل السلاح ضمن حركة مناصرة القضية الفلسطينية لكن لم يكن له شرف الذهاب إلى فلسطين .

● في سنة ١٩٤٩م ، التحق « بمعهد طنطا الأحمدي الديني الثانوي » التابع للجامع الأزهر الشريف ، ومنه حصل على الثانوية الأزهرية سنة ١٣٧٣هـ - سنة ١٩٥٤م .

● وواصل في مرحلة الدراسة الثانوية اهتماماته السياسية والأدبية والثقافية ، ونشر شعرًا ونثرًا في صحف ومجلات [مصر الفتاة] و [منبر الشرق] و [المصري] و [الكاتب] وتطوع للتدريب على السلاح بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦م في سنة ١٩٥١م .

● في سنة ١٣٧٤هـ سنة ١٩٥٤م التحق « بكلية دار العلوم » جامعة القاهرة ، ومنها تخرج ، ونال درجة « الليسانس » في اللغة العربية والعلوم الإسلامية ; ولقد تأخر

تخرجه بسبب نشاطه السياسي إلى سنة ١٩٦٥م بدلًا من سنة ١٩٥٨م .

● وتواصل في مرحلة الدراسة الجامعية نشاطه الوطني والأدبي والثقافي فشارك في « المقاومة الشعبية » ، بمنطقة قناة السويس ، إبان مقاومة الغزو الثلاثي لمصر سنة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

● ونشر المقالات في صحيفة [المساء] المصرية ومجلة [الآداب] البيروتية ، وألف ونشر أول كتبه عن [القومية العربية] سنة ١٩٥٨م .

● بعد التخرج من الجامعة ، أعطى كل وقته تقريبًا وجميع جهده لمشروعه الفكري ، فجمع وحقق ودرس الأعمال الكاملة لأبرز أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة : رفاعة رافع الطهطاوي ، وجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وعلي مبارك ، وقاسم أمين . وكتب الكتب والدراسات عن أعلام التجديد الإسلامية من مثل الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا ، والشيخ محمد الغزالي ، وعمر مكرم ، ومصطفى كامل ، وخير الدين التونسي ، ورشيد رضا ، وعبد الحميد بن باديس ، ومحمد الخضر حسين ، وأبو الأعلى المودودي ، وحسن البنا ، وسيد قطب ، والشيخ محمود شلتوت .... إلخ .

● ومن أعلام الصحابة الذين كتب عنهم : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو ذر الغفاري ، وأسماء بنت أبي بكر . كما كتب عن تيارات الفكر الإسلامي القديمة والحديثة . وعن أعلام التراث الإسلامي ، من مثل : غيلان الدمشقي ، والحسن البصري ، وعمرو بن عبيد ، والنفس الزكية - محمد بن الحسن - وعلي بن محمد ، والماوردي ، وابن رشد (الحفيد) ، والعز ابن عبد السلام ...... إلخ .

● وتناولت كتبه - التي تجاوزت المائة - السمات المميزة للحضارة الإسلامية ، والمشروع الحضاري الإسلامي ، والمواجهة مع الحضارات الغازية والمعادية ، وتيارات العلمنة والتغريب ، وصفحات العدل الاجتماعي الإسلامي ، والعقلانية الإسلامية . وحاور وناظر العديد من أصحاب المشاريع الفكرية الوافدة . وحقق عددًا من نصوص التراث الإسلامي القديم منه والحديث .

● وكجزء من عمله العلمي ومشروعه الفكري ، حصل من كلية دار العلوم في العلوم الإسلامية تخصص الفلسفة الإسلامية على الماجستير سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م ، بأطروحة عن [المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية] وعلى الدكتوراه سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م ، بأطروحة عن [الإسلام وفلسفة الحكم] .

● أسهم في تحرير العديد من الدوريات الفكرية المتخصصة وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية في وطن العروبة وعالم الإسلام وخارجهما كما أسهم في تحرير العديد من الموسوعات السياسية والحضارية والعامة ، مثل : [الموسوعة السياسية] و [موسوعة الحضارة العربية] و [موسوعة الشروق] و [موسوعة المفاهيم الإسلامية] .... إلخ .

● نال عضوية عدد من المؤسسات العلمية والفكرية والبحثية ، منها : « المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية » بمصر ، و « المعهد العالمي للفكر الإسلامي » بواشنطن ، و « مركز الدراسات الحضارية » بمصر ، و « المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية » مؤسسة آل البيت - بالأردن و « مجمع البحوث الإسلامية » بالأزهر الشريف .

● حصل على عدد من الجوائز ، والأوسمة ، والشهادات التقديرية ، والدروع ، منها : « جائزة جمعية أصدقاء الكتاب » بلبنان سنة ١٩٧٢م ، وجائزة الدولة التشجيعية بمصر سنة ١٩٧٦م ، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى بمصر سنة ١٩٧٦م ، وجائزة علي وعثمان حافظ لمفكر العام سنة ١٩٩٣م ، وجائزة المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية سنة ١٩٩٧م ، ووسام التيار الفكري الإسلامي - القائد المؤسس سنة ١٩٩٨م .

● جاوزت أعماله الفكرية تأليفًا وتحقيقًا المائة كتاب ، وذلك غير ما نشر له في الصحف والمجلات .

● ترجمت العديد من كتبه إلى العديد من اللغات الشرقية والغربية من مثل التركية ، والمالاوية ، والفارسية ، والأوردية ، والإنجليزية ، والفرنسية ، والروسية ، والإسبانية ، والألمانية ، والألبانية .

* ثبت بأعماله الفكرية :

أ - تأليف :

١ - معالم المنهج الإسلامي - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧م .

٢ - الإسلام والمستقبل - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧م .

٣ - نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧م

٤ - معارك العرب ضد الغزاة - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٨م .

٥ - الغارة الجديدة على الإسلام - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٨م .

٦ - جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧م .

٧ - الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٨م .

٨ - الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧م .

٩ - التراث والمستقبل - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧م .

١٠ - الإسلام والتعددية : التنوع والاختلاف في إطار الوحدة - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧م .

١١ - الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧م .

١٢ - الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا إسلامية الدولة والمدنية والقانون - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٩م .

١٣ - الإسلام والسياسة : الرد على شبهات العلمانيين - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧م .

١٤ - الإسلام وفلسفة الحكم - دار الشروق - سنة ١٩٩٨م .

١٥ - معركة الإسلام وأصول الحكم - دار الشروق - سنة ١٩٩٧م .

١٦ - الإسلام والفنون الجميلة - دار الشروق - سنة ١٩٩١م .

١٧ - الإسلام وحقوق الإنسان - دار الشروق - سنة ١٩٩٨م .

١٨ - الإسلام والثورة - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

١٩ - الإسلام والعروبة - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

٢٠ - الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

٢١ - هل الإسلام هو الحل ؟ لماذا وكيف ؟ - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

٢٢ - سقوط الغلو العلماني - دار الشروق - سنة ١٩٩٥م .

٢٣ - الغزو الفكري وهم أم حقيقة ؟ - دار الشروق - سنة ١٩٩٧م .

٢٤ - الطريق إلى اليقظة الإسلامية - دار الشروق - سنة ١٩٩٠م .

٢٥ - تيارات الفكر الإسلامي - دار الشروق - سنة ١٩٩٧م .

٢٦ - الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري - دار الشروق - سنة ١٩٩٧م .

٢٧ - المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

٢٨ - عندما أصبحت مصر عربية إسلامية - دار الشروق - سنة ١٩٩٧م .

٢٩ - العرب والتحدي - دار الشروق - سنة ١٩٩١م .

٣٠ - مسلمون ثوار - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

٣١ - التفسير الماركسي للإسلام - دار الشروق - سنة ١٩٩٦م .

٣٢ - الإسلام بين التنوير والتزوير - دار الشروق - سنة ١٩٩٦م .

٣٣ - التيار القومي الإسلامي - دار الشروق - سنة ١٩٩٦م .

٣٤ - الإسلام والأمن الاجتماعي - دار الشروق - سنة ١٩٩٨م .

٣٥ - الأصولية بين الغرب والإسلام - دار الشروق - سنة ١٩٩٨م .

٣٦ - الجامعة الإسلامية والفكرة القومية - دار الشروق - سنة ١٩٩٤م .

٣٧ - قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية - دار الشروق - سنة ١٩٩٣م .

٣٨ - عمر بن عبد العزيز - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

٣٩ - جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

٤٠ - محمد عبده تجديد الدنيا بتجديد الدين - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

٤١ - عبد الرحمن الكواكبي - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

٤٢ - أبو الأعلى المودودي - دار الشروق - سنة ١٩٨٧م .

٤٣ - رفاعة الطهطاوي - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

٤٤ - علي مبارك - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

٤٥ - قاسم أمين - دار الشروق - سنة ١٩٨٨م .

٤٦ - معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام - نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٩٧م .

٤٧ - القدس الشريف رمز الصراع وبوابة الانتصار -

نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٩٧م .

٤٨ - هذا إسلامنا خلاصات الأفكار - دار الوفاء - سنة ٢٠٠٠م .

٤٩ - الصحوة الإسلامية في عيون غربية - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧م .

٥٠ - الغرب والإسلام - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧م.

٥١ - أبو حيان التوحيدي - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧م .

٥٢ - ابن رشد بين الغرب والإسلام - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧م .

٥٣ - الانتماء الثقافي - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧م .

٥٤ - التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧م .

٥٥ - صراع القيم بين الغرب والإسلام - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧م .

٥٦ - الدكتور يوسف القرضاوي المدرسة الفكرية والمشروع الفكري - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧م .

٥٧ - عندما دخلت مصر في دين الله - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧م .

٥٨ - الحركات الإسلامية رؤية نقدية - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨م .

٥٩ - المنهج العقلي في دراسات العربية - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧م .

٦٠ - النموذج الثقافي - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨م .

٦١ - تجديد الدنيا بتجديد الدين - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨م .

٦٢ - الثوابت والمتغيرات في فكر اليقظة الإسلامية الحديثة - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧م .

٦٣ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨م .

٦٤ - التقدم والإصلاح بالتنوير الغربي ؟ أم بالتجديد الإسلامي ؟ - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨م .

٦٥ - الحملة الفرنسية في الميزان - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨م .

٦٦ - الحضارات العالمية : تدافع أم صراع ؟ - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨م .

٦٧ - إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين - نهضة

مصر - سنة ١٩٩٨م .

٦٨ - القدس بين اليهودية والإسلام - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩م .

٦٩ - الأقليات الدينية والقومية : تنوع ووحدة ؟ أم تفتيت واختراق ؟ - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨م .

٧٠ - السنة النبوية والمعرفة الإنسانية - نهضة مصر - سنة ٢٠٠٠م .

٧١ - خطر العولمة على الهوية الثقافية - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩م .

٧٢ - مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية - نهضة مصر - سنة ٢٠٠٠م .

٧٣ - بين الغزالي وابن رشد .

٧٤ - الدين والدولة والمدنية عند السنهوري باشا .

٧٥ - هل المسلمون أمة واحدة ؟ - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩م .

٧٦ - الغناء والموسيقي حلال أم حرام ؟ - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩م .

٧٧ - تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة - نهضة مصر -

سنة ١٩٩٩م .

٧٨ - الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين - نهضة مصر - سنة ٢٠٠٠م .

٧٩ - من القومية أولًا إلى الإسلام أولا .

٨٠ - التحرير الإسلامي للمرأة - دار الشروق - سنة ٢٠٠٢م .

٨١ - الظاهرة الإسلامية - المختار الإسلامي - ١٩٩٨م .

٨٢ - الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩م .

٨٣ - الحوار فريضة إسلامية .

٨٤ - إسلاميات السنهوري باشا .

٨٥ - منار الإحياء والتجديد .

٨٦ - النص الإسلامي بين الاجتهاد والجمود والتاريخية - دار الفكر - دمشق سنة ١٩٩٨م .

٨٧ - أزمة الفكر الإسلامي الحديث - دار الفكر - دمشق سنة ١٩٩٨م .

٨٨ - المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد - دار المعارف - سنة ١٩٨٣م .

٨٩ - العطاء الحضاري الإسلامي - دار المعارف - سنة ١٩٩٨م .

٩٠ - إسلامية المعرفة ماذا تعني ؟ - دار المعارف - سنة ١٩٩٩م .

٩١ - ثورة الزنج - دار الوحدة - سنة ١٩٨٠م .

٩٢ - دراسات في الوعي بالتاريخ - دار الوحدة - سنة ١٩٨٤م .

٩٣ - الإسلام والوحدة القومية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٩م .

٩٤ - الإسلام والسلطة الدينية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - سنة ١٩٨٠م .

٩٥ - الإسلام بين العلمانية والسلطة الدينية - دار ثابت - القاهرة - سنة ١٩٨٢ م .

٩٦ - فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين - دار الوفاء - القاهرة - سنة ١٩٩٥ م .

٩٧ - سلامة موسى : اجتهاد خاطئ أم عمالة حضارية ؟ - دار الوفاء - سنة ١٩٩٥ م .

٩٨ - العالم الإسلامي والمتغيرات الدولية - دار الوفاء -

سنة ١٩٩٧ م .

٩٩ - عالمنا : حضارة أم حضارات ؟ - دار الوفاء - سنة ١٩٩٧م .

١٠٠ - الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين - دار الوفاء - سنة ١٩٩٧م .

١٠١ - العلمانية بين الغرب والإسلام - دار الوفاء - سنة ١٩٩٦م .

١٠٢ - محمد عبده سيرته وأعماله - دار القدس - بيروت سنة ١٩٧٨م .

١٠٣ - نظرية جديدة إلى التراث - دار قتيبة - دمشق سنة ١٩٨٨م .

١٠٤ - القومية العربية ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب - دار الفكر - القاهرة سنة ١٩٥٨م .

١٠٥ - الفكر القائد للثورة الإيرانية - دار ثابت - القاهرة سنة ١٩٨٢م .

١٠٦ - الإسلام وضرورة التغيير - دار المعارف - سنة ٢٠٠١م .

١٠٧ - ظاهرة القومية في الحضارة العربية - الكويت -

سنة ١٩٨٣م .

١٠٨ - رحلة في عالم الدكتور محمد عمارة حوار - دار الكتاب الحديث - بيروت سنة ١٩٨٩م .

١٠٩ - نظرية الخلافة الإسلامية - دار الثقافة الجديدة - القاهرة سنة ١٩٨٠م .

١١٠ - العدل الاجتماعي لعمر بن الخطاب - دار الثقافة الجديدة - سنة ١٩٧٨م .

١١١ - الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب - دار الثقافة الجديدة - سنة ١٩٧٨م .

١١٢ - إسرائيل هل هي سامية ؟ - دار الكتاب العربي - القاهرة سنة ١٩٦٨م .

١١٣ - الإسلام وأصول الحكم دراسات ووثائق - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٨٥م .

١١٤ - الدين والدولة - الهيئة العامة للكتاب - سنة ١٩٩٧م .

١١٥ - الاستقلال الحضاري - الهيئة العامة للكتاب - سنة ١٩٩٣م .

١١٦ - الإسلام وقضايا العصر - دار الوحدة - بيروت

سنة ١٩٨٤م .

١١٧ - الإسلام والحرب الدينية - دار الوحدة - بيروت سنة ١٩٨٢م .

١١٨ - الإسلام والعروبة والعلمانية - دار الوحدة - سنة ١٩٨١م .

١١٩ - الفريضة الغائبة عرض وحوار وتقييم - دار الوحدة - سنة ١٩٨٣م .

١٢٠ - التراث في ضوء العقل - دار الوحدة - سنة ١٩٨٤م .

١٢١ - فجر اليقظة القومية - دار الوحدة - سنة ١٩٨٤م .

١٢٢ - العروبة في العصر الحديث - دار الوحدة - سنة ١٩٨٤م .

١٢٣ - الأمة العربية وقضية الوحدة - دار الوحدة - سنة ١٩٨٤م .

١٢٤ - أكذوبة الاضطهاد الديني في مصر - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة سنة ٢٠٠٠م .

١٢٥ - في المسألة القبطية : حقائق وأوهام - مكتبة الشروق - القاهرة سنة ٢٠٠١م .

١٢٦ - الإسلام والآخر : من يعترف بمن ؟ ومن ينكر من ؟ - مكتبة الشروق - القاهرة سنة ٢٠٠١م .

١٢٧ - شبهات وإجابات حول القرآن الكريم - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - ٢٠٠١م .

١٢٨ - الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - سنة ٢٠٠١م .

١٢٩ - الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية - دار الشروق - سنة ٢٠٠٢م .

١٣٠ - شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - جـ ١ ، ٢ ، ٣ سنة ٢٠٠١م .

ب - دراسة وتحقيق :

١٣١ - الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٣م .

١٣٢ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٩م .

١٣٣ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٣م .

١٣٤ - الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٥م .

١٣٥ - الأعمال الكاملة لقاسم أمين - دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٩م .

١٣٦ - رسائل العدل والتوحيد - دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٧م .

١٣٧ - كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام - دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٩م .

١٣٨ - رسالة التوحيد للإمام محمد عبده - دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٣م .

١٣٩ - الإسلام والمرأة في رأي الإمام محمد عبده - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧م .

١٤٠ - فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال لابن رشد - دار المعارف - سنة ١٩٩٩م .

١٤١ - التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ لمحمد مختار باشا المصري - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٨٠م .

١٤٢ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان للشيخ

محمد الخضر حسين – نهضة مصر – سنة ١٩٩٩م .

١٤٣ – السنة والبدعة للشيخ محمد الخضر حسين – نهضة مصر – سنة ١٩٩٩م .

جـ - مناظرات :

١٤٤ – أزمة العقل العربي – دار الآفاق الدولية – القاهرة سنة ١٩٩٣م .

١٤٥ – المواجهة بين الإسلام والعلمانية – دار الآفاق الدولية – القاهرة سنة ١٤١٣هـ .

١٤٦ – تهافت العلمانية – دار الآفاق الدولية – القاهرة سنة ١٤١٣هـ .

د - بالاشتراك مع آخرين :

١٤٧ – الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية – الكويت – سنة ١٩٨٩م .

١٤٨ – القرآن – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت سنة ١٩٧٢م .

١٤٩ – محمد ﷺ – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت سنة ١٩٧٢م .

١٥٠ – عمر بن الخطاب – المؤسسة العربية للدراسات

والنشر - بيروت سنة ١٩٧٣م .

١٥١ - علي بن أبي طالب - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٤م .

١٥٢ - قارعة سبتمبر - مكتبة الشروق - القاهرة سنة ٢٠٠٢م .

* * *

رقم الإيداع

٢٠٠٤/١٠٦٢٣

الترقيم الدولي I.S.B.N

977-342-239-9

الفهرس

الكتاب في سطور

أعلام الأمة هم المرآة الأكثر تمثيلا لتاريخها وإنجازاتها الحضارية عبر المسيرة التي بدأت بظهور الإسلام. ومواصلة لهذه المسيرة يعرض هذا الكتاب ترجمات منفصلة، تتصل بخيط رفيع الأسلوب بحياة وإنجازات خمسة وأربعين علما من أعلام التجديد والاجتهاد في تاريخ الإسلام - من القرن الهجري الأول وحتى العصر الذي نعيش فيه.

ففي صفحات هذا الكتاب ينابيع من الفكر المجدد، فجرتها عبقريات إسلامية، من خلال حياة وفكر هؤلاء الأعلام، الذين ازدانت بهم - ولا تزال - حضارة الإسلام.

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٩٤٠٥٤٦٤٩

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

